الدكتور محمد إبراهيم الفيومى

الإمام الغزالى
وعلاقة اليقين بالعقل

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
١١ شارع جواد حسنى - القاهرة
ص ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

الى والدى الثاوى بجوار ربه

محمــــد

تقديم

فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

الباحثون حول الامام الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .

والاعتصام بالله : له جانبان يكونان وحدة متحدة ، هما : الايمان بالله ، والعمل الصالح ولابد لكل من يريد أن يطمئن فى الحياة وأن يسعد فيها : من الايمان ، والعمل الصالح ويقول الله تعالى :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن : فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

والايمان والعمل الصالح ، لهما حدود فهناك فى حدهما الأدنى : « أضعف الايمان » وهناك : « المؤمن الضعيف » وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ايمانا وأطلق على هذا : أنه مؤمن .

ثم هناك مقابلة السيئة بالسيئة ، وهناك كظم الغيظ ، وهناك العفو عن الناس ، والله يحب المحسنين الذين يقابلون — عن قدرة — السيئة بالاحسان .

الايمان الاقوى ، والعمل الصالح فى درجة الاحسان .

الايمان فى درجة القرب ، والعمل الصالح فى درجة : **« ألا لله الدين الخالص »** ايمان الصديقين ، وعمل المقربين : ذلك هو ما دعا اليه الامام الغزالى وهو ما دعا اليه كل صوفى .

لقد دعا الى ذلك الامام الغزالى ، فى قوة قوية ، لقد دعا الى الله ، فى أسلوب أخاذ ومنطق عذب ، وحجة لها سناء ، وعليها طابع النور . ولكن الناس فى هذه الحياة ينقسمون الى قسمين منذ أن وجدوا :

قسم منهم أخلد الى الأرض واتبع هواه ، انه ينظر الى أسفل دائما ، انه ينظر الى أسفل — شاعرا أو غير شاعر — وكل نظرة تجعل المقياس المادة : انما هى اخلاد الى الأرض ، وكل نظرة تتخذ من الاستمتاع الحسى ميزانا . انما هى اخلاد الى الأرض ، وكل نظرة تتمسك بالشكل . انما هى اخلاد الى الأرض فى صورة من صور الاخلاد ، وكل من أخلد الى الأرض فى أية صورة من الصور . فانه ثار على الامام الغزالى ، بالفعل عندما يكون له قلم يكتب أو منطق يعبر ، وثار عليه بالقوة عندما لا يملك . أى أنه سار فى حياته على وضع يغاير طريق الامام .

والقسم الآخر من بنى البشر . قد فطر على الخير ، وجبل على النور ، انه معتصم بالله ، روحا وقلبا وجوارح . ومن خشع قلبه ، فقد خشعت جوارحه ، ومن سجد لله قلبه فقد سجدت لله جوارحه .

ان هذا القسم الذى تكاد تكون طبيعته الملائكة . يرى أن الامام الغزالى . قد أنار الله قلبه ، فكان قلمه قبسا من نور الله ، وكان هديه اتباعا لله ورسوله ، وكانت حياته محاولة مهدية للسير على قدم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ويرى هذا الفريق أن الامام الغزالى ، قد اعتصم بالله ، فهداه الى صراطه المستقيم . ومن هذا الفريق الامام النووى . الحجة الضخمة فى الحديث ، وفى فقه الشافعية ، شارح صحيح مسلم ومؤلف كتاب المجموع ، وكتاب الاذكار ، وكتاب رياض الصالحين .

يقول الامام النووى عن كتاب احياء علوم الدين . « يكاد الاحياء يكون قرآنا » .

كان الامام — ولا يزال وسيستمر — مصدر تيارين مختلفين :

تيار كراهية فى نفوس من أخلدوا الى الأرض . وتيار حب لدى من اتجهوا الى الله .

وانه ليسعدنى اليوم : أن أرى الكثير من بين أبنائنا يسيرون فى طريق الاعتصام بالله ويدعون الى ذلك على بصيرة من أمرهم .

ومن بين هؤلاء الأستاذ النابه دكتور محمد ابراهيم الفيومى . لقد أخذ فى دراسة محة الاسلام مهتديا ومتبصرا .

فلما وضح له الطريق ، واستنار له السبيل أخذ فى الدعوة الى طريق الله : بقوله وسلوكه وأخذ فى الكتابة عن الامام بقلمه المتثبت المتروى .

وفى سبيل الكتابة عن الامام . رجع الى كثير من المراجع ، وتدبر آراء كثير ممن كتبوا عن حجة الاسلام ، وكون له رأيا لا يتسم بالتقليد ، ولا بالغموض ، ولا بالسطحية ، وانما هو رأى المتثبت المتروى .

واننا لنرجو له التوفيق والسداد فى كل ما يكتب ، ونأمل فيه قلما ناصر الحق دالا على الطريق المستقيم .

الدكتور عبد الحليم محمود

مقدمة

يرتبط تاريخ أى أمة فى الأمم بتاريخ أعلامها ، ويرتبط تاريخ الأعلام بقيمة تراثهم وبما قــدموه لها من جهاد صادق • وصدق الجهاد له جانبان :

الجانب الأول : صدق الجهاد فى الحرب فى سبيل عقيدة الوطن وحريته •

الجانب الثانى : صدق الجهاد فى البحوث والمعرفة ، والتاريخ للامام الغزالى تاريخ للجانب الثانى فهو من رواد المعرفة والحقيقة • معرفة المعــارف حقيقة الحقائق بيد أن الامام الغزالى له جوانب جمة •

فهو فقيه وأصولى بارع عندما تقرأ له الفقه والأصول ، ومتكلم عندما تقرأ الاقتصاد فى الاعتقاد وقواعد العقائد ، وفيلسوف متحرر عندما تطالع له مقاصد الفلاسفة والتهافت ، وصوفى كبير عالج التصوف بمنطق القرآن والسنة فى كتابه المنقذ من الضلال ، وامام مجدد عندما تقرأ له كتابه الضخم احياء علوم الدين ، وأديب فحل تميز بأسلوب السلاسة والوضوح ومن أجل هــذه التآليف الجمــة المتنوعة تعرض لثورة نقــدية عارمة •

وكنا نلاحظ أن الثورة عليه كان لها أكثر من ميدان • وتعــدد ميادين النقــد هــذه كان بالطبع متوقعا ما دام الامام خاض فى فنون مختلفة وكل فن له رجال هم أئمته فمن هنا تعــدد مجال النقــد عليه لهــذا نرى :

- هناك من الفقهاء من ثاروا عليــه ، وقالوا عنه . ان عبارته فى الأصول واسعة غير محررة •
- وهناك من المحــدثين من جرحوه وقالوا عنه : حاطب ليل يأخــذ بالأحاديث الموضوعة •
- وهناك من النحاة من نسبوه الى الضعف •
- وهناك من الفلاسفة من حملوا عليه معاول الهــدم •
- وهناك من السياسيين • من شهر به وحملوا الناس على احراق كتبه كما حصــل فى الأندلس •

وما ذكرناه ليس حصرا لميادين الثورة عليه وانما بيان لتنوعها وفى تنوعها شهادة بالفضل للامام • كذلك أخـذ على الامام الغزالى بعض عبارات منها :

- ليس بالامكان أبدع مما كان •
- من ليس له شيخ فشيخه الشيطان •
- طلبت العلم لغير الله فأبى الا أن يكون لله •

يقولون عنها أنها عبارات موهمة •

كذلك وجه الى الغزالى من أحبائه وجهة نظر نقـدية عامة • وهى ما أثرت عن أبى بكر بن العربى :

« ان الغزالى دخل بطن الفلسفة ولم يخرج منها » •

كذلك أخـذ على الغزالى أن ما لحق المسلمين من انحطاط وشيوع دروشة وزهـد فى العمل واهتمامهم بالاتجاه الصوفى لنتيجة مواقف الغزالى أمام الفلسفة والحط منها وعـدم إبراز اهتمامه بالعلوم الأخرى •

ان مثل هـذه المثالب لا تقلل من قيمته انما تجعلنا نهتم به •

قال عبد الغافر الفارسى سبط القشيرى : ظهرت تصانيف الغزالى وفشت ولم تبد فى أيامه مناقضة لمـا كان فيه ولمـآثره •• الى آخر ما قاله •

وقال الامام النووى : كاد الاحياء أن يكون قرآنا •

فتلك جوانب متعـددة يصعب علينا أن نلم بها فى مثل هـذا الحـديث ، ولكن هـذا البحث يحتم علينا أن نقول شيئا عنه وهـذا الشىء يجب أن لا يكون فرعيا فى حياة الامام بل لابد أن نقول شيئا يصور حياة الإمام الحقيقية • وذلك وان كان صعبا غير أننا نراه ليس مستحيلا •

اذ الجوانب كانت بحثا فى الحقيقة ، ثم استحالت الى البحث عنها وذلك ليس استنتاجنا انما تلك قصته فى كتابه العظيم المنقـذ من الضلال الذى قـدم

له الدكتور عبد الحليم محمود بمقـدمة مستفيضة تخـدم غاية المنقـذ فى وضوح واشراق .

اذن فتلك الجوانب كانت محاولة للاجابة عن ماهية الحقيقة وظل البحث عن الحقيقة مشكلة الغزالى ومصدر قلقه . وتلك مشكلة فكرية لا تخص الغزالى وحده وانما هى انطباعات من النظرة الدقيقة التى تطلب تصفح هذا العالم . كيف ذلك ؟

***

أمامك هـذا العالم . لا شك أنك تعيش فيه سواء تطرف بك النظر الى اعتبارك له شبحا أم اعتدلت فرأيته حقيقة سواء أكان هـذا أم ذاك فانك لا تنكر أنك تعيش هـذا التطور .

بيد أن الناس بعضهم يميل الى أن هذا الوجود غير حقيقى والبعض الآخر يذهب الى أنه حقيقى . فهم وان تفرقت بهم نوازع الاختلاف تجمعهم محاولة فهم الغايات من حقيقة الوجود .

ولا شك أن الغايات تختلف باختلاف الأفراد . واختلاف الغايات يأتى من الغموض والوضوح أو البعـد والقرب .

من هـذ الاختلاف حول قرب الغايات وبعـدها ووضوحها وغموضها قـد تظهر أنها قابلة للتحقيق وقـد ترى أنها بعيدة المنال والتحقق .

ثم تدور الأسئلة حولها : هل هى فى مقـدور الانسان فيستطيع التعبير عنها وتصورها أولا ؟

وهل هى غايات أو شطحات ؟

مثل ذلك وغيره يعتبر أبعادا للشك والحيرة . فما دام كل اغراب فى الفكر غاية فالشك والحيرة كائنان .

اننا مختلفون أحـوالا وحالات ومتفاوتون أعمارا ومتباينون واجبـات ومكتسبات بحيث قـد نخال وضع الأصول والقواعد المحـددة للفكر ضربا من المحال بل ويعـد منه مجرد النصح والاشارة تهجما وجسارة على المفكر .

انظر الى أى موضوع من الحياة أو من الفكر تجـد ما يؤيد ما سبق :

ما معنى الدين ؟

ما معنى العلم ؟

ما معنى العقل ؟

هل تعتقد أنك على حـق اليوم فى موضوع كذا .. ؟

هل تعتقد أنك كنت على حـق بالأمس فى موقفك ؟

ما رأيك فى فلان الذى قدم لك النصيحة اليوم ؟ قد تقول انه كثير الكلام .

ما رأيك فى فلان وموقفه منك بالأمس ؟ قـد تغير حكمك فتقول كن على حـق ..

أحكام تتغير وتتبدل وبشكل ملحوظ .

الحق أننا فى عوالم كل فرد يخلق عالمه لنفسه والذى يقنع المرء انما هـو العالم الذى فى صـدره وليس العالم الذى يعيش فيه وهـذا ما يوجب الشك على بعضنا منهم الامام الغزالى :

أحـد هؤلاء الذين انتابتهم أزمة شكية طمعا فى غاية فتعددت به الطرق . ان مراده الحقيقة أى هـذه الأشياء يبحث عنها :

أليس الدين يبحث عن الحقيقة ؟

أليس العلم يبحث عن الحقيقة ؟

أليست الفلسفة تبحث عن الحقيقة ؟

ان الرجل الساذج الذى يقول الدنيا أشغال شاقة وآخرتها اعـدام .. أعياه كنه الحقيقة .

ان ابطال قصة الحقيقة هؤلاء الثلاثة المخاطرون : الدين ـ الفلسفة ـ العلم . الجمهور متفرج ضاحك تارة وساخط أخرى أديب شاعر .

ولكن يا ترى ؟ هل الحقيقة هى التى قسمت الناس الى شيع وأحزاب ؟ أو الناس هم الذين اقتسموها فيما بينهم مذاهب وأفكارا مللا ونحلا • لا نستطيع الجزم بأنهم اقتسموها وان كنا نجزم أن من الناس من تشيع لفرقة ؟ ومن الناس من تشيع لفكره والنادر من أراد الحقيقة •

فالحقيقة ليست ضد الدين وليست ضد الفلسفة وليست ضد العـلم • فمن رجال الدين من وقف ضد الحقيقة ، ومن رجال العلم من وقف ضد الحقيقة ، ومن رجال الفلسفة من وقف ضد الحقيقة سواء أشعروا بذلك أم لم يشعروا والباحثون دائما لا يودون الحقيقة للحقيقة فى غالب أبحاثهم فالدين يطلب الحقيقة ويعين عليها وان كان بعض رجاله لا يهـدفون اليها •

والعلم يطلب الحقيقة ويعين عليها وان كان بعض رجاله لا يهـدفون اليها •

والفلسفة تطلب الحقيقة وتعين عليها وان كان بعضهم لا يهـدف دائما اليها أعنى من وراء ذلك أن الدين غير المتـدين والفلسفة غير الفيلسوف والعلم غير العـــالم •

ولكن ما هى الحقيقة التى يطلبها كل من الدين والفلسفة والعلم وما هى الحقيقة التى يطلبها كل من رجل الدين والفيلسوف والعالم : أهى واحـدة أم متعـددة ؟ الحقيقة هـدف ووسائل البحث عنها متعـددة •

الباحث عنها بالدين ، الباحث عنها بالفلسفة ، الباحث عنها بالعلم •

فهل كانت هـذه الوسائل فى الأصل وسيلة واحـدة ثم تطورت ؟ أى هل كان أصلها الدين ثم تطورت الى فلسفة ثم الى العلم ظن ذلك بعض الفلاسفة مثل « أوجست كونت » وسوف تتطور الى وسائل أخرى ربما يكشف عنها المستقبل المجهول ؟ كما تقول وجهة نظره أيضا •

ليست المسألة تطورا وانتقالا فنحن نرى الانسان منذ الأزل متدينا عالما فيلسوفا ان شئت رأيته فى الحضر أو فى البداوة فهو كذلك • فى عصره القـديم وفى عصره الحـديث فهو متدين عالم فيلسوف وما كان صفة ثابتة للفرد فهى ظواهر عامة للجماعة •

فاذا كان الانسان له جانب عقلى وحسى وجانب آخر وراء العقل والحس فلكل ما يخصه أو لكل جانب سلوكه •

فالفلسفة طريقها العقل •

والعلم طريقه العقل والحس •

والدين وسيلته التلقى ، والتلقى قد يكون من الله للرسول ومن الرسول الى الأمة •

هذه صورة عامة للمسألة فى ظاهرها ولكنها تحتاج الى نظر لأن هذا التقسيم قد يكون من حيث الواقع محتاجا الى جدل طويل • ولو طرحنا عدة اضافات لكلمة الحقيقة ربما كانت أوضح وأقل نزاعا مثل :

حقيقة الحياة •

حقيقة الوجود •

حقيقة ما قبل الوجود وما بعد الوجود •

هذه الاضافات ربما تؤدى الى فهم منهج العلم فى بحثه عن الحقيقة حقيقة حياتنا وكيف نترقى فى مظاهر حياتنا ؟

وبينت منهج الفلسفة عندما نسأل عن ماهية الوجود مثل من الذى صنع الوجود ، الاهان أو اله ؟

وبينت منبع الدين واختصاصه بالانبياء عما قبل الطبيعة وعما بعدها •

لكن هل وقف العلم عند النقطة التى حددت له ؟

هل وقفت الفلسفة عند سؤال اختصاصها ؟

هل وقف الدين عند مسائله ؟

لقد تعدى كل حده وفق أطماع رجاله لا وفق تطور فى المنهج • من هنا ازدادت المشاكل خطرا وبرزت لنا مغايرات عدة للشيء الواحد • فالحقيقة

فى نظر الدين غيرها فى نظر رجل الدين والحقيقة فى نظر الفلسفة غيرها فى نظر الفيلسوف والحقيقة فى نظر العلم غيرها فى نظر العالم •

فعندما نتكلم عن الحقيقة عند رجل الدين والفيلسوف والعالم يجب أن نذكر أشياء كأوصاف وخصائص منها مثل : الانسان حيوان ناطق •• الانسان وليد البيئة والوراثة •• الانسان منفعل •• والانسان غبى جـدا عاقل جـدا •• وسط ومجنون •

قـد تكون الحقيقة اذا ارتبطت بالباحث عنها تمثل هـذه الأدوار وتلك المراحل من الحيوانية والناطقية والبيئة والوراثة والغباوة والعبقرية والجنون •

ومجتمع الأغبياء يصطفى الغباوة ومجتمع العباقرة يصطفى العبقرية وواقع الأمر غير ذلك وسوف يظل الفكر غير الحقيقة ما دمنا نفقد شجاعة الاعتراف •

واذا كان كل واحـد منا لا يعترف بالغباء وكلنا نلوذ بالعبقرية اذا كان واقع الأمر كذلك فبأى ميزان من الموازين نزن العبقرى من الغبى ؟

ففهم الحقيقة من بين ذلك التراث البشرى كان محيرا ولا سيما من أراد الحقيقة للحقيقة فسوف يصبح التراث البشرى لديه غير معين على ذلك المطلب وهـذا مما جعل حيرة الغزالى مقلقة قاسية •

الفكر وليد الوعى بالحياة • وسبيلنا الى فهم الفكر انما هو التعبير ووراء التعبير تكمن المشكلة •• ولكن أى مشكلة ••• ؟؟؟

المعروف أن التعبير أداة للافصاح عما يجول فى ميدان الفكر أو محصـلة الوعى • وهـو أيضا بعض من الفكر • والفكر هـو أيضا بعض ما يعرفه الانسان عن هـذا العالم ولكن قـد يجول هـذا السؤال •

كيف يصل الينا الفكر •• ؟؟

سؤال يبدو أن الاجابة عنه صعبة غير يسيرة •• ولكن اذا تصورنا انسانا ما •• وقف على برج القاهرة ورمى بنظرة على القاهرة فى أوقات مختلفة •• مثلا •

نظر اليها فى ساعة الضحى ؟؟

ونظر اليها فى أصيل النهار ؟؟

ونظر اليها وقــد لفها الظلام ؟؟

هل قرأ شيئا ما •• يعبر بصراحة عن أحياء القاهرة فى ساعة الضحى انه لم يقرأ شيئا ولكنه نظر من عل فراعه تضاؤل المدينة وحركة الانسان التى تدل على الاضطراب •• هل قرأ شيئا من ذلك ••

لا ••

ولكن كيف وصل اليه ذلك ؟؟ كيف تهادى الاعجاب اليه ــ أو كيف ســـقط الرعب عليـــه ••

هــذه سورات فكرية •• كمنت فى نفسه اعجاب •• ارهاب •• دوامات •• اضطرابات •• تختلف باختلاف الأوقات •• التى اختارها للوقوف على البرج وهو فى كل وقت من الأوقات يرى من الصور المرئية شيئا آخر واحساسا غريبا بينما القاهرة هى القاهرة والبرج هــو البرج ••

هــذا فكر شحن به من ارتفاع مكان صعده وثبت عليه وقتا ما •• ثم تزاحم اليــه الفكر ••

كيف وصل اليه الفكر ؟؟

انه لم يصل اليه شىء ما •• من الخارج تماما ••

لأن الخارج شىء ليس بالرعب ولا بالحب ولكنه شىء ولا يخرج عن كونه شيئا •• أطلقنا عليه أحياء القاهرة •

ولكن •• هناك معان ركب الدماغ منها الدوار هــذه المعانى لم تكن هى أحياء القاهرة •• ولا سماء القاهرة •• ولا أرض القاهرة ليست شيئا من الوعى الخارجى • ولا صورة منه • انما هى أشياء فيها دلالة على العجز الانسانى عن المعرفة •• لأنه عندما وقف على البرج ونظر الى أسفل •• تشتتت الحواس من البعــد الذى بين قمة البرج والأرض وبدلا من أن يدرك أصابه الدوار •

أمامنا شيء ولكننا لا نستطيع التعبير عنه لأن التعبير شيء منا وليس خارجا فعندما نعبر .. نعبر عن أنفسنا وعن عجزنا . وعما تصورناه فما صدر منا من عبارات الاعجاب والارهاب انمـــا هـــو صورة للتوزع النفسى والقلق العقلى . والتصور التعبيرى .. وليس هـــو الحقيقة الخارجة انما هـــو تعبير وفكر ..

فالتعبير ليس شيئا من الحقيقة الخارجة انما هـــو رمز للانطواء الفكرى اذ الحقيقة لا تعرف تعبيرا محـــدودا ولا تحب ثرثرة ...

ولكنها موجودة وعندما نعبر عنها قـــد نضل الطريق .. أو كما قال الجنيد معنى تضمحل فيه الرسوم وتتدرج فيه العلوم . ويكون الله كما لم يزل . وللجنيد أيضا معنى أشد عمقا وأروع فكرا وأصدق تصويرا وذلك فى قوله ..

محـــو آثار البشرية .. وتجرد الالوهية . .

فالفكر من الآثار البشرية : تصورا وظنا ، وهما ، وخيالا ، وعجزا ، لذلك كان غير الحقيقة .

وسوف نجـــد كل ذلك استفهامات عريضة أحاطت بالامام الغزالى وتاريخه الفـــكرى .

دكتور محمد الفيومى

الجزء الأول

الجـــو الفكرى قبـــل الامام الغزالى

الباب الأول : لوحة تاريخية عن حياة الغزالى

الباب الثانى : خطـــوط فكرية عن الجـــــو الفكرى قبل الغزالى

الباب الثالث : خطوط فكرية عن مواقف النقد قبل الغزالى

الباب الأول

لوحـــة تاريخية عن حيـــاة الامام الغزالى

- الغزالى فى مراحله العلمية
- الغزالى الأستاذ
- رحلات ومجاهدات

أولا — الغزالى فى مراحله العلمية

١ — لقب الغزالى :

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد .

الألقــاب والكنى :

الغزالى حجة الاسلام أبو حامد بن زين الدين الطوسى الشافعى . اذا كان هــذا اسمه فمن أين جاءه لقب الغزالى ؟

(أ) قيل انه منسوب الى غزالة بتخفيف الزاى قرية من قرى طوس(١) .

(ب) وقيل انه منسوب الى غزالة ابنة كعب الأحبار فانها جــدته(٢) .

(جـ) وقيل كان والده غزالا يغزل الصوف ويبيعه(٣) .

الغزالى بالتخفيف أو الغزّالى بالتشديد :

الغزالى بالتخفيف :

نسبة صحيحة من حيث اللغة اذا نسب الى غزالة بلده أو جــدته ومن نطق بالتشديد فلهجة أهل خوارزم وجرجان .

الغزّالى بالتشديد :

ومن نطق بالتشديد نسبة الى الغزال حرفة والده فتكون نسبة صحيحة من حيث اللغة ومن نطق بالتخفيف فلهجتنا كما هــو المشهور بين أهــل العلم عندنا بمصر(٤) .

٢ — الغزاليـــون :

١ — هناك من العلماء من يطلق عليهم هــذا اللقب .

٢ — فهناك أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالى الفقيه الشافعى الواعظ المتوفى سنة ٥٢٠هـ(٥) وهو أخو حجة الاسلام المذكور .

٣ ــ الغزالى القــديم : وهو أحمد بن محمد المعروف بالغزالى القــديم الكبير الفقيه الشافعى المكنى بأبى حامد ، وقــد وافق حجة الاسلام فى النسبه والكنية واسم الأب ترجم له السبكى فى الطبقات الكبرى للشافعية فى الطبقــة الرابعة فيمن توفى بين الاربعمائة والخمسمائة ولم يقف على سنة وفاته ، وقال انه قــد دفن بطوس وقبره مشهور بين أهلها وأنهم يسمونه الغزالى المــاضى .

وذكر أنه ممن وقع الخبط فى أمره وجهل أكثر الخلق حاله . وأنه رآه مذكورا بنسبته فى بعض النقول المعتمدة ولكن فى زمن قبل حجة الاسلام . فبقى متوقفا عليه لأنه لم يكن يعرف غزاليا آخر غير حجة الاسلام وأخيه وطفق يسأل عنــه عنه يهتدى اليه . وذهب والده تقى الدين وشــيخه الذهبى الى أنه زيادة من ناسخ فى تلك النقول حتى وقف على ترجمة الزاهد أبى على الفارمذى فى كتاب الانساب لابن السمعانى فرأى فيها أنه تفقه على أبى حامد الكبير فانشرح صدره وأيقن أن فى الشافعية غزاليا آخر ثم عثر بعــد ذلك على خبره فيما انتقاه ابن الصلاح فى كتاب المذهب فى ذكر شيوخ المذهب للمطوعى فازداد سرورا ثم ذكر أنه عم حجة الاسلام أخو أبيه فيما بلغه وقيل انه عم أبيه أخو جده ا هـ .

قلت الذى فى ترجمة الفارمذى المذكور من الأنسا بـفى النسخة المطبوعة بالشمس ، ليدن سنة ١٨١٢ انه أبو حامد محمد بن أحمد الغزالى وهــو خطأ من ناسخ الأصل لأن التاج السبكى أورده فى حرف الألف من الطبقة الرابعــة ولأنه قال عنــه وافــق حجــة الاســلام فى اسم أبيه فصــوابه أحمد بن محمد كما ذكرناه(٦) .

٤ ــ محمد بن محمد الغزالى الطوسى المتوفى بحلب يوم السبت الثانى عشر من رمضان ٨٣٠ ذكره السخاوى فى الضوء اللامع ونقل عن حافظ حلب البرهان العلاء بن خطيب الناصرية ثناؤه على علمه ودينه وأنه أخبرهما أن جــده الثامن هــو الامام الغزالى وقــــد تكرر اسم محمــــد فى سلسلة نسبه عشر مرات بالتتابع(٧) .

هــذا ما رأيته فى كتب التاريخ ، ومما يحملنا على الشك فى صحة هــذا النسب أن الغزالى لم يعقب الا البنات . نلاحظ أن هؤلاء أربعــة ممن ينتمون الى مذهب الشافعية فهل كان هــذا المذهب منتشرا فى ذلك الربع ؟ .

« فى طبقات السبكى » والاعلان « بالتوبيخ للسخاوى » أن هـذا المذهب يعنى مذهب الشافعية انتشر فيما وراء النهر بمحمد بن اسماعيل القفال الكبير الشاسى وتوفى سنة ٣٦٥ وذكر المقـدسى أنه كان الغالب على كثير من البلدان فى اقليم المشرق كـكورة الشاس وأبلاقة وتشارنج(٨) ٠

الملاحظة الثانية :

أن لقب الغزالى لازم بيت الغزالى نفسه يعنى أنه أقـدم من ميلاد الغزالى فيكون النسب الى البلدة أو الجـدة ثم زادته حرفة والده توكيدا ٠٠

هؤلاء الأربعة يحملون لقب الغزالى ، وكما هو واضح من تاريخهم ينحدرون من شجرة واحـدة وان كانوا ليسوا على درجة واحـدة من النباهة والذكر ٠

فأرفعهم صيتا ، وأسيرهم مثلا الأول وهـو المقصود بالترجمة والتاريخ هـو الامام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد × بن أحمد الغزالى الطوسى حجة الاسلام وزين الدين ولد فى مدينة طوس سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ (أو) ١٠٥٩ م ٠

٣ — مدينة طـوس :

كانت ثانى مدينة فى خراسان بعـد نيسابور ، وكانت تتألف من مدينتين توأمين هما « الطابوران » و « توقان » ٠

التوقان : كانت أكبر فى القرن الثالث أما فى القرن الرابع وما بعـده فكانت الطابوران أكبر من توقان ٠ وكان بطـوس قبر الامام الرضا وقبر هارون الرشيد الى جـواره ٠ وفى سنة ٦٠٧ هـ = ١٢٢٠ م دمرت جحافل المغول مدينة طـوس تدميرا لم تنهض منه بعـد ذلك أبدا وانما نشأ بعـد ذلك عمارة الى مشهد الرضا وقبر هارون الرشيد ومن ثم ظهرت مدينة مشهد : مدينة كبيرة منذ القرن الثامن بها قبور عظيمة من بينها قبر الامام الغزالى شرق ضريح الامام الرضا وقبر الفردوسى(٩) ٠

٤ — بيت الغزالى :

لاحظنا أن الأربعة الغزاليين من أعلام عصرهم منحـدرهم بيت واحـد وأواصرهم الخئولة والعمومة والجـدودة ٠ فكأن العلم فى الأسرة والتفقـه فى

اللذين لم يبتدئا بالامام الغزالى ولم يستفتحا بأخيه ولكنهما ظهرا فى الأسرة قبل ذلك وداما لها بعـــد ذلك بمؤلفات الامام •

٥ ــ والدهمـا :

فلا عجب أن رأينا الوالد مشوقا الى العلم والعلماء يغشى مجالس الفقهــاء ويختلف الى مجامعهم ويتوفر على خـدمتهم ويبادر الى التفقه عليهم بما يتاح له وكان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع سائلا الله رزقا حسنا فى ولد صالح يجعله فقيها واذا حضر مجالس الوعظ وأصغى الى الوعاظ نديت عيناه واستهل دمعــه وسأل الله رزقا حسنا فى ابن صالح يجعله واعظا(١٠) •

والذى سمع دعاء نبى الله زكريا استجاب له اذ رزقه بولدين : أبى حامد وأبى الفتــوح ونشأ الصغيران على ما كان أبوهمـــا يريد لهما وتمنى على الله أن يكونا •

٦ ــ الخطوة الأولى فى التعليم :

وتشاء الأقـــدار أن يموت والد الامام ليتم نعمته عليهما بالتربية وحسن الرعاية ، وكانت تلك النعمة هى أن وفق الى صـــديق له صوفى أوصاه بتربيتهما والعناية بتعليمهما •• قائلا له « ما كنت لآسف على شىء فى الدنيا كأسفى على الخط وكيف لى من معلمين وقـــد استدركت بعض ما فاتنى من نفسى فى ذلك وأحب منك أن تتم لهما ما عليهما ولا عليك ألا يقع لهما شىء بعـــد تعليمهما »(١٠) •

فاذا كان الغزالى دعوة أبيه واستجابة الله فما كان للمتصوف أن ينقض ما أبرمه الله فقام بتربيتهما • وأقصى ما نتصوره لتربية الرجل الصوفى لهمـــا أنه أوقفهما على حروف الهجاء وأطعمهما مائدة التصوف طعاما خالصا صافيا نبتت منه أبدانهما وصفت به نفوسهما ولقـــد كانت تلك التربية عميقة الأثر فى نفس اليتيمين فكلاهما متصوف والتصوف هو أوضح الصفات التى لازمتهما ، ثم قال لهما لمـا قرب أجله ونفـــذت المئونة :

« اعلما أننى قـــد أنفقت عليكما ما كان لكما وأما أنا فرجل من أهل الفقر والتجريد بحيث ليس لى مال فأوسيكما وأصلح حالكما فما لكما الا أن تلجآ الى مدرســـة » •

٧ ـ الخطوة الثانية فى التعليم :

ثم اتصل بأحمد بن محمد الراذكانى وقرأ عليه شيئا من الفقـه وغيره من العلوم مثل النحو والصرف(١١) •

وهناك نقطة : كيف واجه الغزالى وأخوه مطالب الحياة ، هـذه النقطة لم تستوفها المراجع فربما يكون ذلك السكوت مؤداه أن حياة الغزالى الأولى غير واضحة أو ربما كان ذو مال أعانه على السفر الى الامام أبى نصر الاسماعيلى وعلق عنه التعليقة أى ما دونه فى مذكراته فى الفقه ثم رجع الى طوس(١٢) •

٨ ـ قصـة التعليقـة :

ذكرها السبكى فقال :

« •••• ثم سـافر الغزالى الى جرجان الى الامام أبى نصر الاسماعيلى وعلق عنه التعليقة ثم رجع الى طوس » •

قال الامام أسعد الميهنى : فسمعته أى الغزالى يقول قطعت علينا الطريق وأخـذ العيارون جميع ما معى ومضوا فتبعتهم فالتفت الى مقـدمهم وقال : ارجع ويحك والا هلكت فقلت : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على «تعليقتى» فقط فما هى بشىء تنتفعون به فقال : وما هى تعليقتك ؟؟ • فقلت : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقـد أخـذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم اليه المخلاة قال الغزالى :

« هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى »(١٣) •

قال الدكتور عبد الرحمن بدوى :

وهـذه القصة لو صحت ولم تكن لمجرد الوعظ والاستعبار تثير مشكلات •

الأولى : أنها تقول ان هـذه التعليقة هى كتب هاجر لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ليست اذن كتابا واحـدا مؤلفا مستقلا •

الثانية :أنها كانت تتضمن نقولا وهـذه النقول عن شيخه الامام الاسماعيلى هـذا فهل يقصد من ذلك أنها كانت مذكرات علقها الغزالي عن أستاذه فى مختلف فروع الفقه الشافعى ؟

هـذه القصة أولها النقلة والناقـدون بوجهين :

الوجـه الأول للغزالى .

الوجـه الثانى على الغزالى .

الأول . منهم من يفسرها على أنها كانت مصدرا من مصادر النشاط العلمى والاعتكاف على العلم كى لا يكون للصوص عليه من سبيل فى علمه وهـذا هـو ما يراه الغزالى فيقول : هـذا مستنطق أنطقه الله ليرشدنى .

أما كونها كتبا وليست كتابا فهـذا حق لأن الفقه ما هـو الا كتب مثل كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وكتاب الصوم والحج ... الخ ولذلك سميت التعليقة فى فروع المذهب .

وهى نقول علقها الغزالى عن أستاذه اثر المطالعة والمراجعـة من شرح وحاشية وهـذا يمكن أن يكون توجيها آخر غير توجيه الدكتور عبد الرحمن بدوى فيما أثاره .

الثانى : وكانت : من المنافسين عليه : أنه كان مهملا الاستذكار ويزيف ما يرويه . وهـذا ليس من الحق .

قـد يكون مهملا للاستذكار ولكنه كان جادا فى طلب العلم حيث رحل الى جرجان فهو وان أهمل الاستذكار فانه نشط فى التدوين ، وبالرغم من ذلك فانا نرى لذلك أسبابا مثل طلب العيش ، ثم رجع عن هـذا الاهمال الى الجـد .

ويذهب ماكدولاند :

الى أن الاستظهار هـو آفة الغزالى وكأنه يعـد ذلك منقصة ومعابا(١٥) .

ونرد عليه فنقول :

ان كان هناك استظهار للعلوم فهو بمثابة رد فعل لكيد اللصوص وفى نفس الوقت تمثل مرحلة الاستظهار هـذه الحياة الأولى للغزالى وقبـل الاتصـال بامام الحرمين وان صح ان الاستظهار يكون منقصة . وأنه صفة الامام الغزالى فيقبل من المعاصرين له ، أما نحن الباحثين فى حياته فليس لنا أن نأخـذ عليه ذلك لاطلاعنا على الكثير من تراثه النقـدى الهادف ولا نخالنا نتشكك فى شخصية « الغزالى » من حيث مكوناتها الطبيعية أولا وبراعته من منقصة الافتتان بكـل مكتوب ولأنه كان عقلا ناقـدا ثانيا .

أبو القاسم الاسماعيلى المتوفى سنة ٤٧٧ من هـو ؟

هو أبو قاسم اسماعيل بن مسعد بن اسماعيل الامام أبى أحمد بن ابراهيم الاسماعيلى الجرجانى روى عن حمزة السهمى وروى الكامل لأبى عـدى وعاش سبعين سنة قال عنـه ابن العماد : صدر علم نبيل وافر له بدقة النظم والنثر . وليس هـو أبو نصر الاسماعيلى لأنه توفى سنة ٤٠٥ فلا يمكن أن يكون الغزالى قـد حضر دروسه لأن الغزالى ولد سنة ٤٥٠(١٦) .

٩ ـ الخطوة الثالثة فى العلم التخرج :

امام الحرمين الجـوينى :

ثم لمـا رجع من جرجان الى طوس وبعـد اقامته ثلاث سنين عاكفا على تعليقته قـدم نيسابور ورهطا من الزملاء(١٧) مختلفا الى دروس امام الحرمين وجـد واجتهد حتى خرج فى مدة قريبة وبذ الاقران وحمل القرآن وصار أنظر أهـل زمانه واحـد من أقرانه فى امام الحرمين . وكان الطلبة يستفيدون منه ويدرس لهم ويرشدهم ويجتهد فى نفسه حتى بلـغ الأمر الى أن أخـذ فى التصـنيف .

وكان الامام مع درجته ـ لا يصغى الى الغزالى لانافته عليه فى سرعة العبارة وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف وان كان منتسبا اليه كما لا يخفى من طباع البشر ولكنه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه مظهرا خـلاف ما يضمره ثم بقى كذلك الى انقضاء أيام الامام(١٨) .

وقيل أنه ألف كتابه المنخول فبعد أن نظر فيه الامام الجويني قال : «دفنتني وأنا حي هلا صبرت حتى أموت • وأراد أن كتابك غطى على كتابي»[16] •

أولا : يحملنا على الشك فى تلك القصة أنه لم يثبت لامام الحرمين كتاب يحمل اسم المنخول •

ثانيا : ورد فى نسخة خطية قديمة توجد بدار الكتب المصرية برقم « ١٨٨ » أصول فقه تاريخ المخطوط ٥٩١ هـ • فى آخر هذا المخطوط :

هذا تمام القول فى الكتاب وهو تمام « المنخول من تعليق الأصول بعد حذف الفضول وتحقيق كل مسألة بماهية العقول مع اقلاع عن التطويل والتزام ما فيه شفاء الغليل والاقتصار على ما ذكره امام الحرمين رحمه الله فى تعاليقه من غير تبديل » •

فنرى أن الغزالى يذكر فضل امام الحرمين • وكلمة رحمه الله ان لم تكن تصرفا من الناسخ تفيدنا أنه ألف بعده • وكل ما تفيدنا تلك القصة مع رفض تفاصيلها أن الغزالى كان مثالا للعلماء فى نشاطهم وجدهم وما وقع فى نفس امام الحرمين فاننا نحمله على الغبطة ومدى حرصه على تحصيل العلم • وأن امام الحرمين توفى والغزالى قد تصدر للافتاء والشرح والتبيان فكأنه أنهى حياة الطلب التقليدى على امام الحرمين فى أخريات أيام أستاذه وبدأ يرقى فى درجات الأستاذية •

امام الحرمين ولد فى ١٨ محرم سنة ٤١٩ — ١٠٢٨ وتوفى سنة ١٠٨٥ وهو من هو ؟ — نبغ فى علوم الجدل ويقال أنه وضع نظرية الجوهر الفرد وكان مثالا لحرية الرأى حتى أنه كان ينقد والده وكان فى مجلسه يقول هذه زلة من زلات الشيخ يريد والده •

ثانيا — الغزالى الأستاذ

١ — خرج الامام من نيسابور بعد موت أستاذه الجليل وقصد المعسكر ثم شاءت الاقدار أن يرفع على عرش الأستاذية عن جدارة علمية يلمسها فيه نظام الملك ويشهد له علو درجته وظهور اسمه وحسن مناظرته وجرى عبارته

وذلك فى مجالس نظام الملك العلمية وكان يؤمها جماعة من الأفاضل والأئمة العظماء ، فأم الغزالى تلك المجالس « فرفعت اسمه فى الآفاق حتى أدت به الحال الى أن رسم للمسير الى بغداد للقيام بالتدريس بالمدرسة الميمونة النظامية فسار اليها وأعجب الكل بتدريسه ومناظرته .. وصار بعد امامة خراسان امام العراق » .

وأخذ يدرس العلوم الشرعية لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد (٢٣) . وعلى ما نظن يعتبر هذا العدد كبيرا بالنسبة لعصر الغزالى وهو غير قليل بالنسبة لعصرنا وفى هذا دليل حسن يشهد بعلو كعب الغزالي ومدى تسلطه على القلوب .

٢ — مراحل مؤلفاته :

وفى هذه الفترة ما بين ٤٨٤ — ٤٨٩ . هذه الفترة أخذ بها الغزالى لانها كانت مجدا وذكرا ونباهة فى شتى الميادين الثقافية فكتب فى هذه الفترة :

١ — المنخول فى أصول الفقه .
٢ — شفاء الغليل فى أصول الفقه .
٣ — مآخذ الخلاف .
٤ — لباب النظر .
٥ — تحصين المآخذ .
٦ — المبادىء والغايات .
٧ — خلاصة المختصر .
٨ — البسيط
٩ — الوسيط .
١٠ — الوجيز فى فقه الامام الشافعى .
١١ — تهذيب الأصول .

وهو وان كان لم يدرس الفلسفة فى المدرسة النظامية الا أنه أحكم دراستها فى تلك الفترة فقال : « فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم (أى الفلسفة) من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى فى التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية وأنا ممنو بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد »(٢٢) .

فكتب فى هذه الفترة فوق دراسات فى الأصول والعلوم الشرعية :

١ ــ مقاصــد الفلاسفة • ٢ ــ تهافت الفلاسفة •

٣ ــ المستظهرين فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية •

٤ ــ حجــة الحــق • ٥ ــ معيار العلم فى فن المنطق •

٦ ــ محل النظر فى المنطق • ٧ ــ الاقتصاد فى الاعتقاد •

٨ ــ ميزان العمل •

فمثل هــذا النشاط من رجل دون الخمسين لآية على حسن تفهمه لمــــا يقصده من دراسات ، هــذا فضلا عن مركزه الاجتماعى •

رحــلات ومجاهــدات :

لابد لمثل هذا أن يدرس نفسه مثلما درس شتى المذاهب والفرق عله يعثر على الحقيقة فى طوايا نفسه بعد أن يئس من العثور عليها فى خفايا السطور وتعثر بها • فأخــذ يسأل نفسه ماذا يقصد من تلك الدراسات انه يريد معرفة الله ، أليس فى معرفة النفس معرفة الرب وشاهد النبوة يقول من عرف نفسه عرف ربه •• وليس شىء أقرب اليك من نفسك فاذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك(٢٥) •

فأخــذ يسائل ويلاحظ نفسه عن الأحوال والأعمال ، فاذا الأحوال عــوائق قـــائلا :

١ ــ ثم لاحظت أحوالى : فاذا أنا منغمس فى العلائق ، وقــد احــدقت بى من الجــوانب •

٢ ــ ولاحظت أعمالى ــ وأحسنها التدريس والتعليم ــ فاذا أنا فيهــا مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة • ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذ هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت : فتبينت انى على شفا جرف هار ، وانى أشفيت على النار ، وأنى لم اشتغل بتلاف الأحوال •

فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا بعد فى مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما . وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة ألا وتحمل عليها جند الشهوة حملة ، فتفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى سلاسلها الى المقام ، ومنادى الايمان ينادى : الرحيل ، فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل ، رياء وتخييل ، فان لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ . فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة ، اياك أن تطاوعها ، فانها سريعة الزوال . فان أذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، وربما التفتت اليك نفسك ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة ، قريبا من ستة أشهر أولها : رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار : اذ أقفل الله على لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطييبا لقلوب المختلفة الى فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان ، حزنا فى القلب انعدمت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشرب ، فكان لا ينساغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة . وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، منه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له . فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه . وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب .

وأظهرت عزم الخروج الى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام . فتلطفت بلطائف

الحيل فى الخروج من بغداد على عزم الا أعادوها أبدا • واستهدفت الأئمة أهل العراق كافة ، اذ لم يكن الاعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، اذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين • وكان لك مبلغهم من العلم •

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد الحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على واعراضى عنهم وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوى ، وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام ، وزمرة العلم •

ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معى من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين ، فلم أر فى العالم ما لا يأخذه العالم لعياله أصلح منه •

ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريبا من سنتين ، لا شغل لى الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة : اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى • ثم رحلت منها الى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى •

ثم تحركت فى داعية فريضة الحج ، واستمداد من بركات مكة ، والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، صلوات الله عليه • فسرت الى الحجاز • ثم جذبتنى الهمم ، ودعوات الأطفال الى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه • فآثرت العزلة به أيضا ، حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر •

وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة • وكان لا يصفولى الحال الا فى أوقات متفرقة • لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها ، فتدفعنى عنها العوائق وأعود اليها •

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين • وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها » •

وعلى ما نعتقد أن خروج الامام كان سببا دينيا ونفسيا وليست التقلبات السياسية وان صادف خروجه مقتل نظام الملك وملكشاه .

ومعتقدنا له من شواهد أحوال الامام ما يؤيده فعندما فارق بغداد فرق ما كان معه من المال ولو كان للسياسة دخل فى الخروج لاحتاط لنفسه ... هذا ... وان ملاحظة الأحوال الامام فى تطوافه لنلاحظ انه كان كثير الاعتكاف دائم الفكر حفيا بالوقوف على الأراضى المقدسة . ومن هذا شأنه لا يظن أن تحمله السياسة على أهوائها ومع ذلك لا ننفى تدخل التقلبات السياسية فى شخصه ولا نجزم بفعلها ، ولكن نقول صادفت التقلبات السياسية تقلبات الغزالى الفكرية ولقد كانت تلك التقلبات هدفا للخصوم فكم أولت الأحداث التى ألمت به تأويلا ينقص من شأنه وما دمنا على ثقة من تاريخ الغزالى لنفسه فلا نرضى اذن بتاريخ غيره له وان كان ثقة أيضا ، فالغزالى أرخ سبب خروجه فاعتمدنا عليه ولا داعى للارتباك . وشاهدنا الحسى على أنه كان أمرا دينيا ذلك الفيض من المؤلفات . فى هذه المرحلة ، وتلك المرحلة تنبه الغزالى الى أن المؤلفات السابقة كانت مجادلات قام بها عقل نقدى عدا أصول الفقه فانها كانت لحاجة التدريس . أما اليوم والنفس ظمأى تواقة الى المعرفة فكيف يرويها ويحييها فأحياها بالدين فكانت تلك المؤلفات :

١ — احياء علوم الدين .
٢ — الحكمة من مخلوقات الله .
٣ — الرسالة الوعظية .
٤ — الاملاء فى اشكالات الاحياء .
٥ — المضنون به على غير أهله .
٦ — بداية الهداية .
٧ — مشكلة الأنوار .
٨ — مواهم الباطنية .
٩ — جوانب مفصل الخلاف .
١٠ — جواهر القرآن .
١١ — الأربعين فى أصول الدين .
١٢ — القسطاس المستقيم .
١٣ — فيصل التفرقة بين الاسلام والزندية .
١٤ — الرد على الرياضة بالفارسية .
١٥ — كيماء سعادة بالفارسية .
١٦ — كتاب الدرج .
١٧ — الرسالة الدسية .
١٨ — قواعد العقائد[١٩] .

فهذه المؤلفات الدينية تعطينا دليلا حسيا على أن الغزالى خرج يعالج

حالته النفسية اذ عيون مؤلفاته الفت فى تلك الرحلة • ويجب أن نلاحظ أنه فى تلك السنوات العشر خاض تجربته الصوفية وسلوك طريق التزهـد والانقطاع •

٤ — هـل زار مصر ؟

ردد كثير من المؤرخين زيارته لمصر واقامته بالاسكندرية مدة وقصد منها الركوب الى سلطان المغرب يوسف بن تاشفين فبينما هـو كذلك اذ أبلغ اليه نعى يوسف المذكور فصرف عزمه عن تلك الناحية •

قال الدكتور عبد الرحمن بدوى : وهـذه الرواية زائفة كلها لأن يوسف بن تاشفين توفى يوم الاثنين ٣ من المحرم سنة ٥٠٠ ، فهى تفترض اذن أن الغزالى كان فى الاسكندرية سنة ٥٠٠ وجميع الروايات تؤكد أنه كان فى تلك السنة فى خراسان وعلى وجه التخصيص فى نيسابور للتدريس فى نظاميتها — لهـذا يجب عـد مسألة سفر الغزالى الى مصر والاسكندرية أسطورة زائفة(٣٠) •

٥ — عـودته الى طـوس والتدريس :

وبعـد انتهائه من زيارته بيت المقـدس والبلد الحرام أراد العودة الى طـوس فقصد بغـداد ولم يقم مدة طويلة بها بل قصد منها الى خراسان وفى أثناء ذلك اجتمع به أبو بكر ابن العربى(٣١) قبل مغادرته بغـداد الى خراسان ثم لمـا تولى فخر الملك حوالى سنة ٤٩٨ وزارة خراسان ثم الح على الغزالى فى معاودة التدريس فلم يجـد به من الاذعان وعاد الى التدريس فى نظامية نيسابور لا فى نظامية بغـداد اذ كان فخر الملك وزيرا فى نيسابور لسنجر حاكم خراسان من قبل أخيه محمد بن ماكشاه(٣٢) •

ولكن الى متى استمر الغزالى فى التدريس بنظامية نيسابور ونحن نعلم أن فخر الملك قـد قتله أحـد الباطنية فى المحرم سنة ٥٠٠ فلعل الغزالى فكر فى تولى التدريس بنظامية • وهـذا ما نميل اليه ذلك لمـا نراه فى رد الغزالى على مؤيد الملك أنه معنى بصفائه الروحى — هـذا فضلا عن زهـده فى التدريس والمناصب التى يتزاحم الناس حولها وان قبل التدريس فهو غير حفى به انما كان لرجاء رجل السياسة والحاحه على الغزالى فان مات صاحب الرجاء فـلا مطمع للغزالى فى التدريس وفى تلك الفترة الواقعة بين سنة ٤٩٩ — ٥٠٣ • التى عاد وعاود التدريس ألف فيها :

١ — المنقذ من الضلال • ٢ — عجائب الخواص •

٣ — غاية النور فى دراية • ٤ — المستصفى من علم الأصول •

٥ — سر العالمين وكشف ماضى الدارين • ٦ — الاملاء على مشكل الأحياء •

٦ — العزلة والانقطاع :

ثم ترك النظامية وعاد الى بيته واتخذ جواره مدرسة للطلبة وخانقاه للصوفية ووزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ومجالسة ذوى القلوب الرحيمة والتعود للتدريس بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه من فائدة •

١ — الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة •

٢ — الجام العوام فى علم الكلام(٣٣) •

الى أن مضى رحمه الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ودفن بظاهر قصبة طابوران(٣٤) •

فتلك مؤلفاته منها ما هو صحيح النسب اليه ومنها ما هو مشكوك فيه مثل منهاج العابدين والدرة وغير ذلك مما حققه الدكتور عبد الرحمن بدوي • فان فاتنا التحقيق فلا يفوتنا ملاحظة التدرج التاريخى فى مؤلفات الامام الغزالى لتكون شخصية الامام أقرب الينا فى الدراسة والفهم •

٧ — شعر الغزالى :

للغزالى شعر تغلب عليه النزعة الصوفية وهو فى شعره مقل وربما لجأ الى الشعر فى آخر أيامه فله الكوكب المتلالىء شرح قصيدة الغزالى لعبد الغنى النابلسى مخطوط فى دار الكتب المصرية (ج ١٢ : ٣٥٠) برقم ٣٦٢ تصوف فى ورقة (١٢٩٩ — ٤٢٥ أ) وتاريخ نسخه ٢٨ من صفر سنة ١٢٨١ وأولها :

قـــل لاخــوان رأونى دينـــا فبــكونى ورثــوا لى حزنا

وعــدد أبياتها ٤٧ بيتا • هــذا مع اختلاف فى صحة نسبها(٣٥) •

الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم •

الدر المنظوم فى بيان السر المكتوم •

العنــوان الأول فى مخطوط المحمــدية باستانبول رقم ٨٤١ • والثانى فى المخطــوط رقم ٨٥٤ فى فهرســـت فان رونــكل للمخطــوطات العربيـــــة فى متحف جمعية بتافيا للفنون والعلوم فى لاهاى بهولندا وهذا الأخير يقع فى ١٢٠ ورقة مسطرتها١٥سطرا والكتاب عبارة عن قصيدة بروى لا تتعلق باسرار العقيدة الاســـــلامية •

وتبــدأ القصــيدة :

بدأت بعــون الله ربى مبسملا على أنعم فضل الايادى محمــلا

أشعار للغزالى له فى السبكى ع/١١٥ المرتضى (٢٤ — ٢٥) مفتاح السعادة لطـــاس كيدى زاده ٢/٢٠٣ •

وفى المخطوط رقم (٢٢٤١) فى جوتا راجع برتس ج ٤ (ص ٤٢) •

وقــد ورد للغزالى شعر كثير فى منهاج العابدين •

القصيدة المعرجــة ومطلعها :

الشــــدة أودت بالمهـــج يارب تعجـــل بالفـــرج

وطرفا من شعره ردا على الامام الزمخشرى عندما سأله عن معنى (الرحمن على العرش استوى) فقال :

قــل لمن يفهم عنى ما أقــول قصر القــول فــذا شرح يطول
ثم ســـر غامض مـــن دونه قصرت والله أعنـــاق الفحول
أين منك الروح فى جـــوهرها هل تراها أم ترى كيف تجــول

وكذا الأنفاس هل تحصرها | لا . ولا تدرى متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم اذا | غلب النوم فقل لى يا جهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه | كيف يجرى منك أم كيف تبول
فاذا كانت طواياك التى | بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدرى من على العرش استوى | لا تقل كيف استوى كيف النزول
كيف يحكى الرب أم كيف يرى | فلعمرى ليس ذا الا فضول
فهو لا اين ولا كيف له | وهو رب الكيف والكيف يحول
وهو فوق الفوق لا فوق له | وهو فى كل النواحى لا يزول
جل ذاتا وصفات وسما | وتعالى قدره عما تقول

تعقيب :

فهذا تاريخ الامام الغزالى صورة من كفاح ونجاح فى جهاد رحمه الله وطيب ثراه — فقد رأيناه طوافا من البيت الى الحرم القدسى ينشد المعرفة فيتحسسها فى صروح الفلسفة ثم هو غير قانع فيضرب فى مهاد المعرفة ودروبها حتى وصل الى روابى الجليل ناموس عيسى والوادى المقدس أمل موسى . وفى تلك البقاع اراد أن يخلع نعله . بيد أن الدواعى هتفت به مشكاة الأنوار فى البلد الطيب والبلد الحرام .

فما كان له أن يتوانى ويخلع نعله وأنى له التأنى وهو المشتاق الملتاع ثم ينتهى طوافه الى مثوى الرسول وفى تلك الرحلات وطرائقها صورة المجاهدات النفسية وحقائقها ومن هنا استمد الفيض الاشراقى .

فلقد كان قلقه وحيرته عميقا انه كان فى كل رحلة يمثل لنا جانبا من جوانب الحياة الروحية .

فتلك قصة الطواف الجسمى ولنقصن عليكم نبأه الفكرى وصورته الشكلية بعد حين .

الباب الثانى

الجو الفكرى قبل الغزالى

- صورة المجتمع الاسلامى والفلسفة .
- الفلسفيون والافتتان بالفلسفة .
- ملاحظات على الافتتان .
- نتائج الافتتان .
- العقليون والافتتان بالعقل .
- نتائج هذه المرحلة .
- تقويم الجهد الفكرى لعقد الاتصال بين الدين والفلسفة .

الجـو الفكرى قبـل الغزالى

● لا نريد أن نستقصى كيف دخلت الفلسفة ديار الاسلام ، ولا أن نلم بطرف فى ذلك ، فذلك موضوع لا يتصل بما نحن باحثون فيه .

● ولكننا نحب أن نبين أن الفلسفة دخلت ديار الاسلام ووجـدت لدى الاسلاميين مرتعـا لأن تنمـو مترعرعـة وأقبـلوا عليهـا بالشرح والتلخيص والتفصـيل .

● كذلك نحب أن نبين أن الفلسفة عندما دخلت ديار الاسلام لم يكن المجتمع فى خواء فكرى وفراغ من الثقافة .

● كذلك نحب أن نبين أن الفلسفة كنمط فكرى وتراث بشرى لم يكن ليضير الاسلام فى شىء لولا ما ظهر على الاسلاميين المتفلسفين من التعصب لأرسطو والمشائية فتحولوا بالفلسفة الى دراسات مدرسية جامدة جافة فى بعض الأحوال أو أكثرها فى الصفة العامة . وهـذا لا يمنع أن يكون هناك ابداع فى بعض الأحوال وان كان يظهر نادرا .

● كذلك نحب أن نبين هل لقيت الفلسفة قبولا حسنا من المثقفين وأنصافهم وما هـو موقف الاسلاميين منها ؟

● ونرى هل كان الوقوف فى سبيلها جمودا عقليا حسنته العاطفية الدينية ؟؟ أو كان الانسياق فى تيارها نوعا من الحرية العقلية أساسها الانخلاع فى صـفة التـدين ؟؟

وهـذان السؤلان يعتبران معقدى الطرافة وأطراف المشكلة التى زجت بالامام الغزالى لأن يبحث بعمق قيمة الفلسفة وقدسية الدين .

الفلسفة فى جـو المجتمع الاسـلامى

١ ــ صـور عامة :

« لم تظهر الحكمة ــ أو « الفلسفة » بالمعنى الدقيق ــ حينما ظهرت فى البلاد العربية والاسلامية ظهور بحث حر مستقل ، وانما ولدت فى بيئة مضمخة بأريج الدين الاسلامى خاصة ، وبعبق التدين بوجه عام • وقـد كان مولدها عسيرا وتطورها ونماؤها محفوفين بالمكاره والصعاب • ولئن كانت تحظى فى فترات الصحو العقلى بنفحات من النجاح والتأكيد ، فان الجـو الفكرى العام لم يكن ــ الا فى هـذه الفترات وحسب ــ ملائمـا لازدهارها وذيوعها ظل محـدود المـدى ، ضيق الآفاق ، اذا ما قيس بازدهار وذيوع سائر تيارات الفكر العربى كالكلام والتصوف والفقه والأصول • .

والأمر الذى نستطيع استخلاصه من الاشارة الى مواقف الخصومة والعداء التى طالعت الفلسفة منذ ظهورها ، ولازمت مراحل تطورها وانتشارها ، هو أن « الكلام » والتصوف والفقه والتشريع ، كل أولئك قد لبس حلة الدين الاسلامى ، وانطلق من مسائله ، وعالج جوانبه ، فاعتبر بحثا « مشروعا » ، وجاز لاتباعـه أن يسيروا فى سبيلهم التى اختاروها من غير أن يجمع الآخرون على مقاومتهم بدعوى أنهم يخرجون على الصراط المستقيم • أما الفلاسفة فقد لقـوا فى ذلك عنتا كبيرا ، وكان حتما عليهم أن يعنوا بالمشاكل الذهنية التى تختلج بها أفئدة المواطنين فيسبغوا على المسائل الفلسفية ثوب النظر الاسلامى ، وهـذا النظر الاسلامى العقلى المجرد هـو الذى نسميه فلسفة عربية واسـلامية بالمعنى الدقيق ، تمييزا له عن سائر جوانب الفكر العربى التى ألمحنا اليها ، كجانب الفقه والعقل العملى ، و « الكلام » أو الدفاع عن الدين سبلا عاطفية ومناهج وجدانية تكاد تجعل من كل طريقة صوفية ديانة اسلامية بمعنى جـديد ، أو منازعا من منازع النماء الدينى يكاد العقل لا يستطيع له رقابة ولا ضبطا •

وعلى هـذا فان تمييز الفلسفة بالمعنى الدقيق يعتمد على ارتباطها بسائر جوانب الفكر العربى ، والثقافة الاسلامية ، ولا ينفرد عنها الا بالمنهج الذى هو منهج المنطق العقلى ، أو النظر « العلمى » المجرد ومن الجائز أن نجلو هـذا الارتباط اذا قلنا ان هـذه الحكمة أو الفلسفة بالمعنى الدقيق انما عنيت أشـد

العناية بتبيان صلاتها بالشريعة ، وسعت الى التوفيق بين العقل والنقل ، لتبرهن على أن الدين اذا تآخى مع الفلسفة حصل الكمال ، وحصحص الحق على قدر الطاقة البشرية • فذات الله وصفاته وعلاقة الواحد بالمتعدد ، وصلة الله بالعالم ، وانتظام الكون وقوانين الوجود والحياة والنفس والأخلاق وناموس المصير والمعاد ، كل ذلك كان شاغل الفلاسفة وشاغل المتصوفة وشاغل المتكلمين على السواء •

بيد أن الاتفاق فى المشاغل لم يكن يعنى اتساقا فى الجهود ، بل ان فلاسفة المسلمين اضطروا الى الجهاد الأعظم فى سبيل غزو استقلالهم وتأييد أصالتهم عبر صلات خصامهم العنيف مع الفقهاء والصوفية والمتكلمين ، ولا سيما أولئك الذين آثروا التعنت من طائفة المتزمتين • وفى وسعنا القول أن مفكرى العرب والمسلمين قد تمرسوا بالفلسفة تمرسا أوسع من أن تحصره دائرة « الفلسفة » بالمعنى الاصطلاحى الدقيق • قد انطوت التجربة الفلسفية فى الفكر العربى على مواقف خصيبة تجاوز حدود الفلسفة « المدرسية » كما فهمهما مؤرخو الفكر بوجه عام ، ذلك أن هؤلاء الباحثين ألفوا ، فى كل عصر ومكان ، أن يقصروا نطاق الفكر الفلسفى على نشاط الفلاسفة الذين ابتغوا التوفيق بين العقل والنقل ، وبين الفلسفة والدين ، ولكن هذا الرأى لا يشمل سائر المفكرين النوابغ الذين أضافوا الى هذه المشاغل الرئيسية أصالة انتقادية عميقة جعلت روحهم الفلسفية تتميز بحدة واعية اختصوا بها فأصبحوا فى نظرنا نبراس ازدهار التجربة الفلسفية فى ظل الاسلام •

وقد وجدنا تيسيرا للبحث أن نلم بالتجربة الفلسفية العربية واظهار أن هذه الفلسفة تتميز بمنحى أول هو منحى : التيار العقلى ، وبمنحى آخر هو منحى : التيار الاقتصادى بردة فعل شاملة عميقة حققتها ثورة « الغزالى » ضد هذين التيارين معا(١) •

وهكذا اشتملت المنظمة الاسلامية الكبرى على ممكنات ثقافية غنية من الناحيتين •

١ — الدينية الروحية •
٢ — الفكرية الفلسفية •

وعلى ضوء التوتر الدائر بين الملكات الأصلية والنزعات المكتسبة اتخـذت العقلية مواقف متباينة تحت كل منها يندرج اتجاهات :

الاسلاميون الهيلينيون ونظريات تقـديس الفلسفة :

وهـد تناول هـؤلاء الفلسفة بمنهج تنسيقى وحاولوا فى ضوئه التوفيق بين مختلف المذاهب اليونانية واصطنعوا فى هـذا كل وسيلة ممكنة •

(أ) ومنهم الشراح الاسلاميون المشاؤون الذين قبلوا « الأرجانون » الأرسطى كوحـدة فكرية كاملة واعتبروه قانون العقل الذى لا يرد بل قبلوا والحق يقال ـ جميع آثار « الاستاجيرى » تقريبا وكما حاولوا الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون الالهى وأرسطو الطبيعى حاولوا التوفيق بين الحكمة والشريعة أو بين صريح المعقول وصحيح المنقول •

(ب) ومفهم الشراح الاسلاميون الرواقيون الذين قبلوا الرواقية منطقـا وفلسفة ، ورفضوا الكثير من عناصر منطق « الاستاجيرى » وفلسفته • وهـؤلاء الشراح الاسلاميون مشاؤون كانوا أم رواقيون ليسوا فى حقيقة الواقـع الا امتدادا الهيلينية فى العالم الاسلامى ولا يسعنا الا أن نبرز دائرتهم بكليتها فهى لا تمثل الاسلام فى شىء »(٢) ، وهـذا القسم يمثل فلاسـفة اسـتطاعوا أن يهيئوا الأذهان لتلقى التراث الوافـد :

١ ـ الكنـدى •
٢ ـ الفـارابى •
٣ ـ ابن سـينا •
٤ ـ ابن رشـد ••• الخ •

هؤلاء الفلاسفة وأمثالهم يمثلون التيار الفلسفى الخالص من شوائب الفكر الاعتزالى ، فبعـد أن كانت التجربة الفلسفية ملتقى العقل النظرى « الاعتزالى بالعقل النظرى الفلسفى فى الاسلام أصبح بفضل هؤلاء نقطة تحول الفكر الى فكر فلسفى بالمعنى الدقيق » •

فاذا كان خلوص الفكر الفلسفى واستقلاله من مناقب هؤلاء القوم فيذكر من مثالبهم تحولهم بالفلسفة من ميدان محاولات البحث عن الحقيقة الى جعـل

الفلسفة غاية فى نفسها مقــدسة لا يعرف النقــد اليها سبيلا ومجمل القول : أنهم جميعا قــدسوا الفلسفة وجعلوها صنو الدين ولم يحاول أحــد منهم أن يحــدد موضوع الفلسفة من موضوع الدين ولعل ذلك كان عن عمد منهم حتى لا يقعوا فى سعير الثــورة عليهم فرأوا فى المؤاخاة بينهما اسلاما ثقافيا وامنــا اجتماعيــــا •

٢ ـ الكندى ومظاهر تقــديس الفلسفة :

(أ) تعريفها عند الكندى يرمى الى ذلك المظهر التقــديسى ، فهو يقول فى بعض هــذه التعاريف :

هى التشبه بأفعــال الله •

(ب) وفى ميدان المقــارنة بينها وبين العلوم يقول فى مطلع كتــابه الى المعتصم بالله :

« ان أعلى الصناعات الانسانية منزلة وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة التى حــدها علم الأشياء بحقائقها بقــدر طاقة الانسان لأن غرض الفيلسوف فى علمه اصابة الحق وفى عمله العمل بالحق » •

(جـ) ثم هــو يجعلها فى مرتبة الدين فيقول :

« قــول الصادق محمد وما أدى عن الله لموجود جميعا بالمقاييس العقلية التى لا يدفعها الا من حرم صورة العقل ، واتحــد بصورة الجهل »([٣]) •

وبالرغم من أن الكندى كان فى تفكيره متزنا معتدلا بيد أنه نظر الى الفلسفة نظرة تقــديسية حفزت من بعــده لأن يعمق هــذه الفكرة بشواهــد واضحة ـ نجــده ـ قــد أغرب فى فكره حتى جعلها صنو الدين باشارة خاطفة •

٢ ـ الفــــارابى :

وتحوله بالفلسفة الى غاية فى نفسها :

تابع الفارابى الكندى فى هــذه النظرة التقــديسية ثم راح يجــدد لهــا ثوبها القشيب ويعطيها صورة البحث الفلسفى الذى تعوده من التراث الاغريقى ،

فنظر في قضية الدين وقضية الفلسفة فوجد في الدين وحده وفي الفلسفة ولا سيما عند أشهر رجالها أفلاطون وأرسطو اختلافا بلغ حد التناقض ، فوحد بين الفيلسوفين أولا :

وعقد لذلك كتابا « الجمع بين رأي الحكيمين » • يقول في أوله :

« لما رأيت أكثر أهل زماننا قد تخاصموا وتنازعوا في حدوث العالم وقدمه وادعوا أن بين الحكيمين المقدمين المبرزين اختلافا في اثبات المبدع الأول وفي أمر النفس ••• الخ وفي كثير من الأمور الدينية والخلقية والمنطقية أردت من مقالتي هذه أن أشرع في الجمع بين رأيهما ، والابانة عما يدل فحوى قوليهما ليظهر الاتفاق بين ما كان يعتقد ، ويزول الشك والارتياب عن قلوب الناظرين في كتبهما •

وهذه المحاولة — التي تكلف لها هذا الكتاب — على اخفاقها في الواقع ليست عجيبة بمقدار ما هي معجبة ، فقد قامت على أساس واه هو : اعتقاده بوحدة الفلسفة نتيجة ايمانه بأن الفلسفة غاية في ذاتها •

ثم حاول ثانيا بعد ما خيل اليه أنه استطاع أن يصل الى وحدة الرأي في الفلسفة ويبدو أنه اقتنع بالنتيجة ، وتحمل تبعتها فراح يربط بينها وبين الدين بنظرية الفيض ، وتعسف في ذلك حين ألف نظرية العقول العشرة • وكذلك قام بالتوفيق بين النبي والفيلسوف ، لذلك قال بالنبوة كسبا ، أما الشريعة فان مردها الى الوحي والوحي يهبط من الله على النبي عن طريق « جبريل » • وأن نفس النبي تحقق الاتصال بالعقل الفعال عن طريق المخيلة والالهام فعلا عن طريق التأمل العقلي لأن النبي بشر منح مخيلة عظيمة تمكنه من الوقوف على الالهامات السماوية في مختلف الظروف والأوقات ، وعلى هذا النحو يلتقي الفيلسوف ، وتتفق الشريعة مع الفلسفة في جوهرها(٤٦) •

ونلاحظ أن الفارابي تأثر وقع خطى الكندي في مظاهر تقديس الفلسفة والافتتان بها ولا نرى امتيازا للفارابي على الكندي الا في التعبير الفلسفي وأسرافه في اصطناع نظريات تحمل معاني العسر والتكلف بما لا يرضى الفلسفة ويغضب الدين •

٣ ــ ابن سينا خطة منهج جديد :

بين ابن سينا فى مقدمة كتابه « منطق المشرقيين » تحكم أرسطو والمشائين من عقول المتفلسفة الاسلاميين ، وكشف عن فلسفته هو وموقفها .. فقال :

« وبعد أن نزعت الهمة بنا الى أن نجمع كلاما فيما اختلف أهل البحث فيه لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو الف ، ولا نبالى مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين ألفا عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا فى كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين الظانين أن الله لم يهد الا اياهم ولم ينل رحمته سواهم مع اعتراف منا بفضل سلفهم (يريد أرسطو) فى تنبيه لما نام عنه ذووه ، وأساتذته ، وفى تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفى ترتيبه العلوم خيرا مما رتبوه وفى ادراكه الحق فى تفطنه لاصول صحيحة سرية فى أكثر العلوم وفى اطلاعه الناس على ما بينها فيه السلف وأهل بلاده ، وهذا أقصى ما يقدر عليه الانسان يكون أول من مد يديه الى تمييز مخطوط وتهذيب مفسر ، ويحق على من بعده أن يلموا شعثه ويرموا ثلما يجدونه فيما بناه ويفرعوا اصولا اعطاها . فما قدر من بعده على ان يفرغ نفسه من عهدة ما ورثه منه فذهب عمره فى ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره ، فهو مشغول عمره بما سلف . ليس له مهلة يراجع فيها عقله ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر الى مزيد عليه ، واصلاح له أو تنقيح . وأما نحن فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ولا يبعد أن يكون قد وقع الينا من غير جهة اليونانيين علوم ــ وكان الزمان الذى اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة . ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التفطن لما أورثوه ثم قابلنا جميع ذلك بالنمط من العلوم الذى يسميه اليونانيون « المنطق » ــ ولا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره ــ حرفا حرفا . فوقفنا على ما تقابل وعلى ما عصى وطلبنا لكل شىء وجهه فحق ما حق وزاف ما زاف ، ولما كان المشتغلون بالعلم شديدى الاعتزاء الى المشائين من اليونانيين كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور فانحزنا اليهم وتعصبنا للمشائين . أولى فرقهم بالتعصب لهم ، وأكملنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا اربهم منه وأغضينا عما تخبطوا فيه وجعلنا له وجها ومخرجا ، ونحن بداخلته شاعرون وعلى ظله واقفون ، فان جاهرنا بمخالفتهم ففى الشىء الذى لم يمكن الصبر عليه وأما الكثير فقد غطيناه أغطية التغافل »[٥] .

قال الشيخ مصطفى عبد الرازق معلقا فى كتابه التمهيد (ص ٤٤) :

« وما يكون لنا أن نلتمس وراء ابن سينا مرجعا للحكم فى الفلسفة الاسلامية وجماع الحكم أن الفلسفة الاسلامية كانت فى غالب أمرها قائمة على العصبية لأرسطو وللمشائين لكن فلاسفة الاسلام على الحقيقة من أمثال ابن سينا كانوا يرفون لأرسطو فضله من غير غفلة عن قصوره أحيانا وخطئه »(٦) •

وما نلاحظه أن ابن سينا حجة فيما دعاه وهو يصور لنا عصره وما قبله • فان ابن سينا أوقفنا على ملاحظات كثيرة أبداها على متفلسفة عصره ومدى شغفهم وافتتانهم بها ، هـذا من جهة عصر ابن سينا وما يسوده ، أما من جهة ابن سينا فقـد لاحظنا أنه كان يسوده تياران :

١ ـ التيـار الأول :

هـو التظاهر بالرضا كما يقول : كرهنا عـدم شق العصا ومخالفة الجمهور والانحياز والتعصب للمشائية والاغضاء عما تخبطوا فيه وجعلنا له وجها ومخرجا ـ ونحن بداخلته شاعرون وعلى ظله واقفون •

٢ ـ التيـار الثانى :

وهـو عـدم رضا ابن سينا على التعصب الذى ساد المتفلسفة فى عصره تعصبا يضيع معه الحق • الشىء الذى جعل ابن سينا يقول :

« فان جاهرنا بمخالفتهم ففى الشىء الذى لم يكن يمكن الصبر عليه • وأما الكثير فقـد غطيناه بأغطية التغافل » •

٣ ـ التيـار الثالث :

محاولته الأخيرة لانشاء منطق المشرقيين تعطى محاولات ابن سينا الايجابية نحو فهم جـديد لتراث الشرق والاسلام •

ومن تسوده تلك النوازع بالطبع يكون له فلسفتان وهـذا ما كان عليـه فعلا ـ فقال : ولا نبالى مفارقة تظهر منا لمـا ألفه متعلمو كتب اليونانيين الفا عن

غفلة وقلة فهم . ولما سمع منا كتب كنا ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشعوفين بالمشائين : هذه الروح الثائرة سنجدها عند الغزالى بيد أن الغزالى لم يكن ذا نزعتين تجاه علوم الفلسفة .

وان ظهر له نزعتان تجاه الدين المعبر عنهما : بالشريعة والحقيقة . وعندما ألف كتاب التهافت لم يقصد منه الا نزعة واحدة وهو رأى الغزالى فى الفلسفة فالغزالى ليس أول من عرض بالفلسفة وان كان هو أول من هاجم الفلسفة وقابل الفلاسفة مقابلة الند للند .

ملاحظات معالية بعض المفكرين عن هذا الافتتان :

نقل ذلك ما سينيون فى كتابه « مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف فى بلاد الاسلام » عن رسائل ابن سبعين الأندلسى .

١ ــ قال فى ابن رشد :

« وهذا الرجل المفتون بأرسطو ومعظم له ويكاد أن يقلده فى الحس والمعقولات الأولى ولو سمع الحكيم يقول : ان القائم قاعد فى زمان واحد لقال هو به واعتقده وأكثر تأليفه فى كلام أرسطو : اما يلخصها واما يمشى معها » .

٢ ــ وقال فى الفارابى :

« وهذا الرجل أفهم فلاسفة الاسلام وأذكرهم للعلوم القديمة وهو الفيلسوف فيها لا غير هو مدرك محقق » وكان كل هم الفارابى أن يثبت اتفاق الفلسفة والاسلام لأن كلا منهما حق والحق لا يتعدد ، كما كان رأيه فى ذلك منصرفا الى اقناع المسلمين بهذا التوفيق .

٣ ــ أما ابن سينا عنده :

فمموه مسفسط كثير الطنطنة قليل الفائدة وما له من التآلف لا يصلح ويزعم أنه أدرك الفلسفة المشرقية ولو أدركها لتضوع ريحها عليه وهو فى العين

لحمئة وأكثركتبه مؤلفة مستنبطه من كتب أفلاطون ، وما فيها من عنده فشيء لا يصلح وكلامه لا يعول عليه(٧) .

« والواقع أن افتتان الجمهرة من متفلسفة الاسلام بأرســطو وبالمشائين وغيرهم من حكماء اليونان كان أمرا غير خفى . هــذا وان كان يرى فى كلام ابن سبعين شيئا من التحامل فتارة يسفه من يحتذى حــذاء المعلم الأول وتارة يخطا من يبتعــد عنــه »(٨) .

٤ ــ أبو حيان التوحيدى ونظراته فى مساواة الفلسفة بالاخلاق :

وبلغ من شأن الفلسفة أن أصبحت مدحا لمن ينتسب الى سقراط وأفلاطون وأرسطو ومذمة لمن هو عار من ذلك النسب ونلمس كذلك أنهم ربطــوا بين الفلسفة والأخلاق ربطا محكما فليس ينتسب اليها من لم يكن كريما معطاء ! ... ونرى ذلك فى كتاب أبى حيان التوحيدى المسمى مثالب الوزيرين (ص ١١٤) قال موجها الكلام لابن العميد :

« هل عندك أيها الرجل المدعى للعقل المفتخر بالمــال والمتعاطى للحكمــة الا الحسد والنذالة والا الجهالة والضلالة . تزعم أنك من شيعة أفلاطون .. وسقراط وأرسطوطاليس؟أو كان هؤلاء يضعون الدرهم على الدرهم والدينار على الدينار أو أشاروا فى كتبهم بالجمع والمنع ومطالبة الضعيف والأرملة بالعسف والظلم ؟ فيا مكين استحح .. فانك لا مع الشريعة ولا الفلسفة وقــد خسرت الدنيا والآخرة » .

وكما ترى أنهم أيضا جعلوا الفلسفة صنو الشريعة ، فهــذه نصوص نتبين منها شأن الفلسفة قبل عصر الغزالى ، وأنها أخــذت النفوس شأن كل جــديد ففتنوا بها وقدسوها .. ووجدت عــدة نتائج من جراء هــذا الافتتان :

* جهلوا غاية الفلسفة فخلطوا بينها وبين الدين وغايته .

* ونشأ من التحريف فى الترجمة والافتتان الاعتقاد بأن الفلاسفة الكبار منزهون عن الخلاف مما دعا أحــدهم وهــو الفارابى الى تأليف كتاب للجمع بين نظريات أفلاطون وأرسطو ثم بينهما وبين الدين .

وربما كان الذى جعله ينهج هــذا المنهج ما رآه عند أهل السنة من الجمع بين الحــديث والقرآن ــ وربما كان هــذا مع أسباب أخرى هــو الذى جعله يحرر نظرية العقول العشرة للتوفيق بين مبادىء فلسفة قابلة للنقــد والرد وبين مبادىء الدين ــ وغاب عن الفارابى أنها بحث عقلى منظم يخــدم فترة ليقوم على أساسه بعــد تمحيصه بحث عقلى آخر ــ فهــذه الاتجاهات وما أدت اليه من نتائج يجعلنا نعتقد أن الفلسفة لما ترجمت الى الاسلام لم تكن غايتها واضحة لديهم فخالوها والدين سواء ، واحتالوا لعقد أواصر الحب والصداقة بينهما ، فأفلاطون وأرسطو ينبغى فى عرفهم الجمع بينهما كما يجمع بين الحديث والقرآن • اذ مصدرهما الوحى المعصوم •

قال « كلرادوفو » فى كتابه الغزالى ترجمة عادل زعيتر (ص ٥٩) قال :

ولكن تظهر هنا ملاحظة على شىء من الفائدة وهى أن الغزالى خلافا لهذين الفيلسوفين المخلصين يتخلص من كل مبتسر أفلاطونى جــديد فيدرك بلا جهد ما بين أرسطو وأفلاطون من فرق وذلك أن هذين المؤلفين ليسا نبيين عنده يعبران عن وحى واحــد بألفــاظ مختلفة ، وانمــا هما مجادلان يعــارض أحــدهما الآخــر (٩) •

ثانيا : العقليـون والافتتان بالعقـل

النظر العقلى والدين :

هـذا التيار الذى افتتن بالفلسفة وقـدسها ، وجعلها هى والدين سواء لم تذهب جهوده الفكرية سدى ، بل أثر تأثيرا واضحا على بعض المفكرين ممـا جعلهم يعيدون النظر ليقرروا أن العقل هـو الأحق بالتقديس ، وأنه هـو الميزان الذى يزن الفلسفة والدين .

« فنشأ الى جانب تيـار الفلسفة أو الفلسفة بالمعنى الدقيق نشأ فى الفكر العربى والاسلامى تيار نظر انتقادى تعقدت عوامله وتنوعت أغراضه وتباينت أهـدافه وصباغه . وهـذا التيار لا يتخـذ الوحـدة الفلسفية مبدأ رئيسيا يسعى الى اقراره بغية جمع كلمة الفلاسفة والتأليف بين آرائهم للتوفيق آخر الأمر بينها وبين النظريات الدينية والمذاهب الاسـلامية بل أن تيـار الفلسفة الانتقادية يعتمد العقل الانسانى من حيث هـو ــ ويتخـذه رائدا وهـدفا »(٦٩) .

غير أن هـذه النظرة العقلية النقـدية هى أقـل تقـديسا للدين وقواعده من النظرة الفلسفية الى الدين . « والواقع أن هـذا التيار أقرب الى أن يكون سلسلة من محاولات الابتكار المتمرد الذى ينطق منزع العقل الانسانى المحض . ليعرض على محكمة نتاج الانسان فى تجربته بالوجود كل الوجود .. وبالحياة على اختلاف مناحيها وتفاوت مستوياتها وتعـدد أغراضها وأهـدافها ومكاسبها » .

فالنظرة الفلسفية حفلت بالفلسفة كما رأينا وبالدين معا . والنظرة العقلية لم تنظر الى الدين نظرة الخشوع والتواضع حتى يقترب من الدين . بل جعلت الدين تراثا بشريا يخضع لتعـديل العقل تقويما ونقـدا . فهـذه النظرة تعتبر رد فعل ، فاذا كانت النظرة الفلسفية الى الدين قـد أنزلت الفلسفة منزل الدين فسادها التقـديس ، فان النظرة العقلية قـد أخضعت الفلسفة للنظر العقلى والدين فساده افساد النظر العقلى المتمرد ، ويمثل هـذا الجانب :

١ ــ ابن المقفع .
٢ ــ النظـام .
٣ ــ الجاحظ .
٤ ــ المعـرى .
٥ ــ اخـوان الصفا .

ابن المقفع المولود سنة ١٠٦ هـ والافتتان بالعقل :

يمثل الجانب العقلى الذى جمع من الثقافة فأوعى وعن طريق الأدب تناول بالنقد والتجريح الآراء التقليدية وبين فى ثنايا تأليفه ما يركن اليه من قواعد الفكر بأسلوب عربى رصين •

١ ـ سئل مرة : من أدبك ؟

فقال : نفسى • كنت اذا رأيت حسنا أتيته واذا رأيت قبحا أبيته •

٢ ـ ثم يعرض فى نص آخر قيمة العقل فيقول :

« وجدت آراء الناس مختلفة ، وأهواءهم متباينة ، وكل على كل راد وله عدو ومغتاب ، ولقوله مخالف ، فلما رأيت ذلك لم أجد الى متابعة أحد منهم سبيلا ، وعرفت أنى ان صدقت أحدا منهم لا علم لى بحاله كنت فى ذلك كالصديق المخدوع » •

٣ ـ بنظرة عقلية الى الأديان يقول :

« لما ذهبت ألتمس العذر لنفسى فى لزوم دين الآباء والأجداد لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث فى الأديان والمسألة عنها والنظر فيها فهمس فى قلبى ، وخطر على بالى أن أقتصر على عمل تشهد له النفس أنه يوافق كل الأديان ، فكففت يدى عن القتل والضرب وطرحت نفسى على المكروه والغصب والسرقة والخيانة والكذب والبهتان والغيبة ، وأضمرت فى نفسى ألا أبغى على أحد ، ولا أكذب بالبعث ولا القيامة ولا الثواب ولا العقاب » مدخل حسن نحو محاولة قد تنجح فى استقلال العقل عن الدين ثم محاولته الفصل بين الدين والأخلاق مع عدم اعترافه بالفضل فضل الدين فيما اعتقد فيه من الجانب الأخلاقى ، واليوم الآخر هذا فضلا عن سريان النظرة الشكية الى الدين » •

٤ ـ وفى نص آخر يشير الى أن العقل هو كل ما فى الوجود فيقول :

« غاية الناس وحاجتهم صلاح المعاش والمعاد والسبيل الى ادراكها العقل الصحيح وأمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر ، وتنفيذ البصر بالعزم ،

وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب وبالأدب تنمى العقول وتزكو » • لا نحب أن نسترسل بقدر ما نحب أن نشير اشارات تعين على المطلوب وهو أن الافتتان بالعقل كان له أثره فى تأكيد القول لدى المعتزلة بنظرية « التحسين والتقبيح العقليين » •

٢ ــ النظام :

اشتهر النظام بعلم الكلام وباعتزازه بالعقل ، وحبه للمنهج الشكى وليته وقف عند هذا الحد بل جاوزه فأطلق العنان لهذا العقل فى نقد السنن والأحاديث وأعمال الصحابة وآراء الفقهاء والمفسرين فنراه يقول :

« لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين ، وان نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا فى كل مسألة فان كثيرا منهم يقول بغير رواية ، وعلى غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب اليهم ، ولكن (عندكم عكرمة) (السرى) و «الضحاك» « ومقاتل بن سليمان » « وأبو بكر الأصم » فى سبيل واحدة : ، فكيف أثق بتفسير وأسكن الى صوابهم • هذه الروح الانتقادية هى التى حتمت عليه أن يقول : نازعت الشكاك والملحدين فوجدت الشكاك أبصر بجواهر الكلام من أصحاب الجمود ان الشاك أقرب اليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل أحد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك •

كذلك ــ استخدم النظام التجربة كما يستخدمها العالم الطبيعى أو الكيماوى اتصل بالأمير العباسى محمد بن على بن سليمان وشاركه فى تجاربه الطريفة •

٣ ــ الجاحظ :

معلم العقل والأدب من العباقرة القليلين الذين امتازوا بعقل راجح ونظر صائب وفكر ناقد كانت له مواقف منها :

١ ــ عزز التجربة •
٢ ــ فاصل بين الحس والعقل •
٣ ــ لا اجماع فيما تكذبه التجربة والعقل •

فى التجربة يقول تنازع (بالبصرة أناس ومنهم رجل طبيب وأطبقوا على أن الجمل اذا نحر ومات فالتمست خصيته وشقشقته أنهما لا توجـدان فقال ذلك الطبيب فلعل مرارة الجمل أيضا كذلك) • ولكن الجاحظ لم يقنع باجماعهم ولا بسلطة الطبيب وعلمه ، ولذا سأل شيخ الجزارين وبعث اليه رسولا يقول : « ليس يغنينى الا المعاينة » فأرسل اليه شيخ الجزارين بشقشقة وخصية فكذبت التجربة الخبر • ثم يقـول : فلا تذهب الى ما تريك العين واذهب الى ما يريك العقل وللأمور حكمان :

- حكم ظاهر للحـواس :
- وحكم باطن للعقول :

والعقل هـو الحجة ، واذا كان العقل هـو الحق فلا غرو أن ينقـد أرسطو وكثيرا من الفقهاء والحشويين والمحـدثين •

٤ ـ المعـرى :

نمط جـديد فى جـو المجتمع الاسلامى لأنه ركز سخطه على الأديان وهو فى سخطه ينتهج أسلوب التهكم والسخرية ثم هـو يؤكد بأسلوبه الأدبى البارع موجة التيار الانتقالى العقلى كذلك نراه يدعم بشواهد واضحة قيمة العقـل ، فيقـول :

جاءت أحاديث ان صحت فان لهـا — شأنا ولكن فيها ضعف اسـناد
فشاور العقل واترك غيره هدرا — فالعقل خير مشير ضمه النـادى
اذا تفكرت فكرا لا يمازجـه — فساد عقل صحيح هان ما صعبا
كذب الظن لا امام سـوى — العقل مشيرا فى صبحه والمساء
فاذا ما أطعتـه جلب الر — حمـة عنـد المسير والارسـاء
سأتبع من يدعو الى الخير جاهـدا — وأرحل عنها ما أمامى سـوى عقلى

يقول بلغـة العقل عن الدين :

يتلون أسفارهم والحق يخبرنى — بأن آخرها مين وأولهـا
هفت الحنيفية والنصارى ما اهتدت — ويهود حارت والمجوس مضـللة
اثنان أهـل الأرض : ذو عقـل بلا — دين ، وآخر دين لا عقـل له

العقــل يعجـب للشروع : تمجس ونحنف وتهــــود وتنصر
فاحــذر ولا تدع الأمور مضــاعة وانظر بقلب مفــــكر متبصر

هــذه نماذج من الشخصيات اللامعة التى ظهرت فى سماء المجتمع الاسلامى تبين فى وضوح سخطها نحو الدين والدعوة الى التحلل من الف الجماعة وطرفها . كما هجت رواد الأمة الذين صنعوا هــذا التاريخ ، ولا نرى لها سندا الا ايمانها بالعقل والتجربة هذا التيار الانتقادى نراه حط من شأن كل تراث بشرى واستخف بالدين ثم هــو فى نفس الوقت لعب دورا هاما عندما رد للعقل اعتباره فى أحقيته للنقــد وفهم الوجود واصطنع فى سبيل ذلك لونا جــديدا هــو التجربة وآمن بالشك مقــدمة من مقــدمات اليقين ثم تعــدت لعبة العقل نطاقها عندما فسرت الدين بالعقل وكأنهم أيقنوا أن السابقين لم يكونوا عقلاء أو غاب عنهم أن رجل الدين عاقل قبل كل شىء وبعــده ، وكان أحكم منهم اذ فرق بين العقل والوحى . فكان على العقليين كما عرفوا للعقل قيمته أن يعرفوا قيمة الوحى أيضا ليظل الفرق بينهما قائما ويتم التعاون على هــذا الأساس . وبذلك يقل التصارع الاجتماعى والفكرى الذى قــد يظهر من جانب كل منهما على الآخر .

نتائج هــذه المرحلة :

ومجمل ما سبق عن أثر الدور الذى قــدر للفلسفة أن تقوم به فى حياة المجتمع الاسلامى ، والاحتمالات الممكنة كبيرة منها :

- انتشار الشك فى المجتمع الاسلامى .
- الانتقال الى الحياة العقلية البحتة دون نظر الى ما سواها .
- الاقتصار على تدعيم النظريات الدينية بالفلسفة .
- الثورة ضــد الفلسفة وتهجينها .
- الوحــدة الدينية غــدت محل شك وارتياب .
- الاحتفاء بالعقل وأن المعرفة الحقة هى ما كانت نابعة منه .

تقييم الجهد الفكرى لعقد الاتصال بين الدين والفلسفة

— ١ —

ان مشكلة التوفيق بين الدين والفلسفة مشكلة متكلفة ملفقة ، تكلفها الفلاسفة ، والذى دفع الفلاسفة لهذا التآلف اما دافع دينى ، أو عقلى ، أو سياسى ، فالفيلسوف متدين ، عاقل مقيم فى دولة ، ولا نحب أن نفترض حبه لدينه ، و كرهه له • ولو أردنا أن نقيم من ذلك قضية علمية لأعوزنا الدليل ، وضربنا فى متاهات نحن فى غناء عنها لعلمنا أن الباطن ليس مسألة علمية •

وقديما أجاب الرسول اجابة تبينا منها صعوبة الدليل هى : « هلا شققت عن قلبه ؟؟ » •• ولو شققنا عن قلبه فماذا نرى ؟ ومع ذلك نقول : اما أن يكون هذا الفيلسوف قد أغرم بدينه وبقواعده ورأى من شيوع الفلسفة ما حمل رهطا من الناس ينشغلون بها عنه ، وأراد حمل هؤلاء الأغرار الذين فتنوا بالفلسفة على الاعتقاد بالدين فصاغه صياغة فلسفية • أو حاكما جاهلا خلط الفلسفة بالدين فسار بعض الفلاسفة على ذلك • واما أن بعض هؤلاء الفلاسفة قد راعتهم المبادىء الفلسفية ولا سبيل الى الأخذ بها الا اذا ألبسوها ثوب الدين •

فهذه اقتراحات ثلاثة ، نرى أنها لا تعرف عن فكر خالص سوى أنها قضية زمنية يحدد وجودها الداعى اليها • تبين أن أرباب الفكر لا يعجزهم شىء ولن تكون وسائل الارهاب للمتمردين وسائل ارهاب للعقل ما دام للعقل وسائله من التلون الفكرى •

لذلك نرى أن هذه القضية من صنع العقل، عقل الفلاسفة وحسب ، فاذا رهب الفلاسفة جانب الحاكم المعتدى على الفلسفة والعلوم العقلية — وبالطبع فى هذه الحال يتعاون رجل الدين معه وبطبيعة الحال أيضا يميل الشعب معه ضد هؤلاء الفلاسفة — فلا يسع هؤلاء الفلاسفة فى هذه الحال ، الا أن يعقدوا صلحا ، وليس الصلح الا لعبة فكرية يقدمها المفكرون تخلصا من عسف الحاكم المسيطر على الحكم وارضاء لجهل الثائرين معه عليهم ، وليست اللعبة سوى

ـضية التوفيق بين الدين والفلسفة فيشغلون بها الرأى العام عنهم ويدرأون بها ما يمكن أن يقع عليهم من اضطهاد •

بيد أن تلك القضية تاريخية لهـا فى تاريخ الفكر مدارس فلو طالعنـا تاريخها فى نشأتها لألفينا أنها نشأت نتيجة للاضطهاد الفكرى بعـد استعمار اليونان ، فبالطبع وكما هى سنة الاستعمار محاولة تبديد تراث ذلك البلد المغلوب على أمره حتى لا يكون ثمة مددا ليقظته ولابد أن يسود الرومان بحضارتهم ودينهم • ووجـدت فى الدولة عقولا تميزت حضاراتها بالنزعة العقلية ، وعقولا تميزت بالمعارف الدينية ، والدولة دينية ، فنشأت تلك القضية وعرفها التاريخ الفكرى ثم أصبحت بعـد ذلك قضية تقليدية ، وليست كمـا توهمها الدارس للفلسفة أنها أصل من أصول الفلسفة ، أو كونها بابا من أبوابها لا يتم عليه نعمة الفلسفة الا بها ، أو الخوض فيها ولا ينبغى له الاعتقاد فى الدين ولا الاعجاب بمبادئه الا اذا عقـد لذلك كتابا بين فيه علاقات الحكمة بالشريعة • ثم يصنع لنفسه أرستقراطية دينية أساسها العقل ليختلف عن غيره بانكار بعض مبادىء أو أشياء تتناسب وسلوكه العقلى كما تصنع المتصوف فى الطرف الآخر ارستقراطية دينية أساسها القلب بزيادة بعض أشياء تتناسب وترويض النفس •

وبالرغم من أنها قضية تقليدية فى تجـديدها وكان على العقل أو يدعهـا ، ظهرت فى عصر الاسلاميين نتيجة غرامهم بالفلسفة ، كذلك هـؤلاء الفلاسـفة نشأوا فى دولة اسلامية ترى من غايتها المحافظة على هـذا الدين ونشره ، ولا تحب من الأفكار ما يزعزع من شأنه ، ومن المبادىء المقررة أن المواطـن الصالح من يدين بمبادىء الدولة ويعمل بها ولهـا • ومع ذلك فان الاسلام وخلفاء دولته ما اضطهدوا الفكر فى غالب الأحوال بل هؤلاء الفلاسفة لم يكونوا من أصل واحـد انما يرتدون الى أنمـاط بشرية متباينة العقائد والمنزع ثم أصبحوا فى ظل هـذه الدولة ـــ كما هـو شأن الامبراطوريات ـــ التى حرصت على نشر العلم والبحث عنه فى أنحاء الأرض ربما كانت هـذه الخاصية للدولة الاسلامية من العوامل المشجعة للفلاسفة على أن يكيفوا تراثهم بالدين وممن أصابته هذه الدولة من العلم فلسفة اليونان • ومن جهـة أخرى كانت هـذه الفلسفة نسقا فريدا من التفكير فاغرم بها رجال من الدولة حملوا اسمها لقبا عليهم ، وقلـدوا السابقين فى كل شىء ، فأطلقو لفظ فلسفة على كل شىء وجاروهم فى ذلك حتى

قضية التوفيق كانت تقليدا وافتتانا على اى حال هــذه القضية ليست بدعا منهم فهى موروثة عرفوها من التراث الفكرى القـــديم وساعد على ظهورها خواص الدين الاسلامى من قابليته للتأويل ودعوته الى العلم والتفتح اليقظ وربما كان ذلك وغيره من عوامل تجـــديدها •

وأيا ما كان فهى ليست فى نشأتها قضية أوجـــدتها الدراسات المقارنة بغية الوصول الى حقيقة الحق بل دعا اليها الاضطهاد الفكرى فى نشأتها وحافظ عليها الخلط بين غاية الدين والفلسفة • فاذا صح ذلك فلا يكون الغزالى عندما ثار عليها الا محقا فيما ثار عليه وكان فى نظره انه لن يزعزع وطيد البنيان الا الثورة العاصفة •

فاذا ثار الغزالى فقد ثار على الاضطهاد الفكرى لا على البحث العقلى والفلسفة حتى لا يصاب الدين بتغير الفلسفات ولا تصاب الفلسفات بثبات الدين ، ثم نضحك أخيرا من هــذا السؤال • أين الدين ؟ وأين الفلسفة ؟ •

ثم ان العصر السياسى للغزالى عصر انقراض للخلافة الاسلامية ، وبدت بوادر الاستقلال القومى ، ورجع كل شعب يسأل عن نفسه ، فهــذا العصر فى تلك الصورة قـــد يكون له دخل لتحـــديد الفلسفة من الدين •• لأن الخـــلافة العامة التى كانت تتمثل فى وحـــدة العالم الاسلامى كانت تؤمن بالوحـــدة الفكرية والسياسية ولا سيما أنها داعية لدين واحـــد فلا مجال لمنازعته بغيره من ألوان الفـــكر •

وكان التوحيد الفكرى يعنى :

● ايجاد تجانس فكرى وسياسى بين البلاد المختلفة بمـــا فيها من أديان سماوية ووضعية وفكر فلسفى ، والتوحيد السياسى ممثل فى شكل خلافة عامة تحكم مجموعة من البلدان المختلفة الأجناس ، واللغات والحضارات ، فرأينـــا التوحيد السياسى اتخـــذ خطوات هى :

● الحكم : خـــلافة عامة •
● العـــلاقة : الدين •
● الأفكار : تخضع للدين •

● معروف شكل الطاعة السياسية ، وغير معروف بل وصعب تصور طاعة الأفكار للدين فصيغت قضية الفلسفة والدين لتطويعها للدين ولكى تكون فلسفة موجهة اذا ما كانت موجهة أصبحت علم كلام أى فلا فلسفة مع الدين وليست ثمـــة مشكلة بينهما •

— ٢ —

هـــذا من ناحية دوافع القضية وعواملها التاريخية ، أما من ناحية منهجها العقلى فيقول بربيه فى كتاب « تاريخ الفلسفة » :

« فمثلا فى مشكلة العقل والنقل نجـــد أن الشىء الواحـــد كان يعـــد فى عصر من العصور تابعا لميدان الايمان ــ النقل • بينما يعـــد هـــذا الشىء نفسه فى عصر آخر تابعا لميدان العقل ، فنرى مثلا فكرة لا مادية الروح هى فكرة عقلية فى نظر « ديكارت » ، بينما نجـــدها من بعـــد فى نظر « لوك » عقيدة دينية • ولا يمكن أن تكون عقيدة عقلية ، والحياة السعيدة أو حياة النعيم هى فى نظر رجال الدين فكرة دينية من أصلها ، ولكنها أصبحت فيما بعـــد على يد رجـــل فيلسوف هـــو « أسبينوزا » فكرة عقلية بل رياضية برهن عليها « أسبينوزا » بطريقته الرياضية فى اثبات الحقائق[١٠] •

فقضية التوفيق اعتبارية غير خاضعة لقاعـــدة منهجية ، وليس هنـــاك مبررات لوجـــودها •

● فالدين له جانب وعلى المتدين أن يقبله على أنه دين •
● والفلسفة لهـــا جانب الطراقة العقلية والترف الفكرى •
● والتوفيق بينهما شىء خارج عن طبيعة العقل الموفق •

لأن العقل الدينى الذى يبحث فيهما لابد أنه آمن بالقضيتين من جهـــة المنهج والموضوع ، ومسائل كل منهما •
فلماذا لا يؤمن بالدين بعـــد فهمه له واقتناعه به ؟ •

وفى غالب الأحوال نجـــد أن الانسان لا يلجأ الى الفلسفة الا حينما يجـــد نفسه غير مقتنع بمسائل الدين ، فيبدأ يتفلسف ويمعن سالكا طريق الشك تارة ،

وناهجا طريق الالحاد تارة أخرى ، الى أن يقف اما الى بعض مبادىء عقلية هى فى عرفه ومزاجه مبادىء صحيحة وقـد تكون كذلك فى الواقع وقـد لا تكون .اما أن يقف أو يدخل الدين من باب التأويل الذى يتصوره •

فاذا اعتبرنا أن هـذا التأويل هو التوفيق بين الفلسفة والدين كان ذلك جـدالا حول قضية اعتبارية غير واضحة المفاهيم أو مقارنة لا بداية لهـا • لأن الدين له مبادىء عامة فلا تقابل بمبادىء خاصة قـد تكون ضربا من التأويل يخضع لتقويم المنهج الدينى •

وأنه بهـذا المنحى ورجوعه الى حظيرة الدين لدليل واضح على عجز فلسفته وقيمة الدين كما أنه بتوفيقه خالف منهجه العقلى الذى أقبل على البحث وهـو لا يؤمن بشىء ثم رجع مكفكفا من غروره خاضعا لمبادىء الدين من خلال أسلوب التوفيـق •

هـذا كما نلاحظ أن الفلسفة آراء فردية زمنية متغيرة أبدا تغيرا ظاهرا واضحا ، وليس فى هـذا جـدال أو منقصة بل هى تفخر بأنها لا تحب الثبات . والدين على خلاف ذلك : اذ هـو وضع الهى ••• فعندما نوفق أخطأنا المنهج الفلسفى • حيث افترضنا ثبات المبادىء الفلسفية • وافترضنا أن الفلسفة وضعت كثيرا من الحلول مع أنها أثارت من المشاكل أكثر من حلها • ساوينا بين الفلسفة والدين مع أنها نقـدت الدين •

● وكأن الفلسفة اتفقت على وجود الوحى مصدرا للدين وهـذا ما لم يقل به أحـد •

أى كأننا ساوينا بين الوحى والعقل ، فان اعترفت الفلسفة بذلك فالدين لا يعترف بذلك لأن هناك فرقا بين الفيلسوف والنبى •

● أو كأنهم وافقوا الدين على أن العقل عاجز عن معرفة المغيبات ، لأن طريق الدين الوحي الذى يشهد الاعتراف به أنه مرحلة أخرى غير المعرفة العقلية • وأرقى منها هـذا ما يشير اليه التوفيق صراحة وضمنا ، وهـذا ما يثير الشك فى قيمة العقل الموفق الذى يؤمن بتلك المتناقضات لأن العقل اما أن يؤمن بمصدر

الدين وعلى ذلك يثبت عجزه فى مجال الدين وليس عليه الا الايمان ولا توفيق او يومن بمعارفه . وهذا واجب عليه فى الحالين ولكن نطالبه بتحديد معرفه وجود معرفة اشراقية امن بها العقل الموفق .

فى هذه الحال يجب عليه الطاعة وليس عليه الا اثبات اختصاصه ، وهذا ما حاوله الغزالى ، وفى هذه الحال يبقى للدين مجاله ، وللفلسفة مجالها ، وللعلم مجاله . وهذا التقسيم مبنى على تقسيم المعرفة ، فقضية التوفيق تثبت تناقض العقل لأنه سيؤمن بمتناقضات ، وهذا اذا رضيه انسان فذلك وضع فى الطبيعة له نظائر عند سذاجة الفكر وبلاهة المنطق ؛ أما أن يكون محل تسليم واتفاق ، فهذا ما نأسف له ونبرأ منه ، لأن السذاجة غدت غاية للفكر والبلاهة تعريفا للمنطق ، والحال هذه من المحال .

لذلك كان الغزالى ناقما على التوفيق مؤمنا بالاختصاص ، فكتب عن الفلسفة ومقاصدها وتفاهتها ، وكتب عن الدين ومعارج قدسه واحيائه ، وهذا يدلك على قيمة عقل الغزالى ومدى اطلاعه والمامه الماما كاملا بجوهر الموضوع وحواشيه .

أما غيره من فلاسفة الاسلام السابقين فقد فهموا أن الفلسفة غاية فى نفسها فقدسوها وتأولوا لها مثلها كمثل الدين من حيث انه غاية فى نفسه ، أما شيوعها فى العصر الحديث فهو شيوع تقليدى لأن التوفيق لا يخرج عما قرره السابقون .

قال « كلرادوفو » : ولكن تظهر هنا ملاحظة على شىء من الفائدة وهى أن الغزالى خلافا لهذين الفيلسوفين المسلمين (الفارابى — ابن سينا) يتخلص من كل مبتسر أفلاطونى جديد فيبصر بلا جهد ما بين أرسطو وأفلاطون من فرق وذلك أن هذين المؤلفين ليسانيين عنده يعبران عن وحى واحد بألفاظ مختلفة وانما هما مجادلان يعارض أحدهما الآخر(١٠) .

فالدين مسائله توفيقية وأنه لا مجال للعقل فيها ... كذلك الدين وحى معصوم وكلمة وحى معصوم وحدها لا يؤمن بها العقل .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود :

« ثم ان هذا الاتجاه خطر على الدين نفسه : انه انصراف عن النص الالهى الى العقل ، ومن جانب آخر اقامة مصدر لمعرفة الغيب غير النبوة ، وفى ذلك لا شك صرف للناس عن التأمل فى النص المقــدس كمصدر لمعرفة الالهيات ، وفيه كذلك تقليل من شأن النبوة »[١٢] •

وتلخيص ما سبق أن الفلسفة يوم أن كانت غاية فى نفسها ، كانت مقــدسة لا يعرف النقــد اليها سبيلا ، وفى اعتقادى أنه ربما كان هــذا السبب فى جعل سير الحضارة سيرا وئيدا • كما انى ألاحظ أن كل فيلسوف تعرض لقضــية التوفيق كان يفهم فى الفلسفة هذه الغائية • ولعل أهم فرق بينها وبين الدين أن الدين غاية فى نفسه والفلسفة ليست لهــا هــذه الخاصية •• اذ الدين ايمان وعبادة ولا ترسى قواعــده بالنقــد والتغيير ، وانما ترسى أصوله بالوحى المتلقى على عبد مصطفى •

الدين يقسم العالم الى قسمين : عالم طبيعى ••• وعالم غــير طبيعى • ويترتب على ذلك عــدة نتائج : منها أن للنفس وجــــودا منفصلا عن الجسد بحيث تصبح منزهة عن كل ما يصيب الجسد من التقلبات •

أما الفلسفة فليست متفقة على هــذا التقسيم ومن ذهب من الفلاسفة الى هــذا التقسيم فانه يرى أنه ليس هناك علاقة بين العالمين أو ثمــة علاقة على وجــه محــدد •

الدين لا يعنى بالعقل الا من حيث انه أصل التكاليف ، الايمان بالدين واجب سواء عللت قضاياه أم لم تعلل ، وكيف تعلل وصدق الرسول قائم على المعجزة المهاجمــة للعقــل ، والفلسفة تعنى أبدا العقــل ومقــوية حركة التمرد الانســــانى •

الباب الثالث

رسم وخطوط فكرية

مواقف النقد قبل الغزالى

- الاسلاميون الأصوليون .
- الاسلاميون الصوفيون .
- نماذج وشواهد .
- نتائج .
- قضية العقل والنقل .

صورة عامة عن الثورة النقــدية

لقــد عرضنا فيما عرضنا دخول الفلسفة الحقل الاسلامى والطوائف التى تأثرت بها ، والجهد الفكرى الذى بذل لتصوير الفلسفة تصويرا دينيا حتى يأنس الرأى العام الاسلامى بها وتستأنس به ، وبالرغم من هــذه الجهود التى تكشفت عن عسر المحاولات التى تميزت بالطرافة العقلية ، فقــد باءت هـــذه المحاولات وتلك الجهود بعــدم الانسجام ، فأدى عــدم الانسجام هــذا الى قلق فكرى نحــو القضايا التى كانت مثار بحث ومحل الاهتمام ، لذلك رأينا أن النظرة العقلية الانتقادية — التى هى احــدى نتائج الأثر الفلسفى والتراث الاغريقى — الذى تميز بالحركة العقليــة هــذه النظرة العقلية التى جعــلت العقل الحاكم الأول فى مبادىء الفكر والدين فالتراث الفلسفى أصبح لا يحترم — وان كان من أفلاطـــون وشـــيعته — والــدين لا يقـــدس وان كان من وحى السماء فسار المجتمع الاسلامى بهاتين النظرتين : الافراط والتفريط :

١ — العقــل التوفيقى •

٢ — العقــل الانتقادى •

وذلك أدى بدوره الى قيام الثورة الفكرية التى حمل لواءها « نفر من مفكرى المسلمين ضد الفلسفة وتعاليمها وذهبوا فى ثورتهم هــذه الى الأعماق ، وهى ثورة جــديرة بالنظر من نواح متعــددة • فانها ليست وليدة التعصب الأعمى للدين • وكيف وزعماؤها وكبار قادتها لم يقوموا بثورتهم هــذه الا بعــد أن أقبــلوا على دراسة الفلسفة بروح مخلصة للعلم ، محبة للحقيقة ، وأمعنوا فى دراستهم هــذه أعواما طويلة تمكنوا فى أثنائها من التعمق فيها ، والتوغل فى جميع شعابها ، ووزن حججها ودلائلها بميزان المنطق السليم ، وبروح التفكير الحر ، وعماد المنطق ومقياسه الذى تقاس به الصــحة ويكتشف الفساد هــو مبدأ الذاتية ومبدأ استحالة التناقض ، وقد قاس هؤلاء الثائرون — وفى مقدمتهم الغزالى — التراث اليونانى بهذا المقياس ، فاذا به غاص بضروب المتناقضات التى ينقض بعضها بعضا فى غير رفق أو هــوادة ، ومن ثم انهار ايمانهم بالفلسفة ، بل ذهب الأمر بهم الى أبعــد من هــذا ، فالفلسفة تمثل جهود العقل البشرى وبسعيه وراء الأمر بهم ، وهاهى ذى حافلة بالمتناقضات مليئة بالمتضاربات التى

لا سبيل الى التوفيق بينها • وهنا أخـذ الصراع صورة جـديدة ، والصراع بين الفلسفة والدين يمكن أن يأخـذ صورا متعـددة ، فقـد يقف الأمر عند حـد التضارب بين العقائد الدينية ونتائج البحوث الفلسفية ، وقـد يذهب الى الأعماق البعيدة فينقلب صراعا بين مبدأين أساسيين •

ويدور حول نظرية المعرفة نفسها لا حول نتائج البحث الفلسفى وقواعـد الدين وفى هـذا الضرب من الصراع يذهب فريق الى أن العقـل هـو أداة العلم ووسيلة البشر الى المعرفة وبهـذا الرأى يأخـذ الفلاسفة والعلماء ، وفى ضوء هـذا المبدأ وظل الطمأنينة التى يبثها فى نفوسهم يأخـذون فى بحوثهم معتمدين على الثقـة بأداتهم •

أما المذهب الثانى فينادى برأى مخالف ويذهب الى عجز العقل عن المعرفة أو عن معرفة الحقائق العليـا على الأقـل ، ويبرهن على ذلك بمـا يجـده من تناقض صارخ بين نتائج البحـوث الفلسفية والعجز التام عن الفصل بين هـذه المتناقضات ، وعنده أن الادراك المباشر لحقائق الكون العليا هـو السبيل الوحيد الى المعرفة وأن هـذا قـد تم للأنبياء والرسل ويتم لمن يسير على دربهم من اتباعهم ، ويرى الصوفية أنهم هم الذين سلكوا سبيل الأنبياء وحاولوا الوصول الى العلم لا من طريق النظر ـ طريق الفلاسفة والعلماء ـ ولكن من طريق الأنبياء ، طريق العبادة التى تفضى فى النهاية الى قـوة البصيرة ويخترق الحجب المسدولة والوصول الى عالم الحقيقة •

هـذا اذن صراع فى جو أعلى وحول مبادىء أسمى فهو صراع بين نظريتين من نظريات المعرفة والنظريات العقلية التى تثق بالعقل ، والنظرية الدينية التى لا ترى دون الادراك المباشر مقنعا • وقـد ظهر هـذا الصراع فى تاريخ التفكير الاسلامى فى صورة ثورة على الفلسفة وانتقاض على مبادئها الأساسية ونظرية المعرفة التى تقوم عليها وزعيم هـذه الثورة فى العالم الاسلامى هـو الغزالى فقـد هاجم الفلسفة فى كتابه تهافت الفلاسفة ، ثم انتهى به الأمر الى أن العلم المباشر هو المعرفة الحقة وأن سبيله هـو التصوف ولم يتردد فى سلوك الطريق •

واجمال القول أن الفلسفة قـد أحـدثت ثورة فكرية ظهرت آثارها فى صورة ثقافية مختلفة وذلك أن ظهور الفلسفة فى مجتمع ذى دين اعـداد لموقف

صراع ثقافى ، والنزاع بين الدين والفلسفة قــد ينتهى عند بعض الناس بالشك ، وقــد يحمل آخرين على الاستمساك بالعقائد وتجـديدها ، وربما دفع قوما الى مهاجمة الفلسفة وقتالها فى معقلها ومحاولة اجتثاثها من أصولها ، وفى كل من الحالتين الأخيرتين تضعف قــوة الفلسفة كمنافس للدين ، أو تزول هيبتها ويتفرق أنصارها ، وتتوارى من الموقف ولو الى حين ، وقــد ينحل الصراع على نحــو آخر فيؤمن قوم بالعقل ، ويستمسكون بالتفكير ، ويندفعون فى شعاب البحث العلمى والفلسفى دون خــوف ولا وجل ، واذ ذاك ينتقل الناس أو طائفــة منهم من حال الى حال ، فبدلا من الاستسلام التام للدين ، واطراح التفكير الا فى حــدود ضيقة ينقلب الحال ، فيصير التفكير أسلوب المعرفة للعلم ، واذ ذلك يعلو نجم الفلسفة والعلم ويستتب لهما الأمر .

ولكن هــذه النهضة الفكرية لم تنحرف بالأمة عن حياتها الدينية ، فكانت جمهرة الشعب تخضع فى حياتها لثقافة مطابقة لدينها ، فكان علم التوحيد يقدم لهــا العقائد الدينية وهو علم قــد يكون فلسفيا فى صورته ولكنه اسلامى بحت فى مادته . وكان الفقه الاسلامى يقدم للفرد أصول الحياة الدينية والعلمية ويقدم للمجتمع القانون الذى يفصل بين الناس فى منازعاتهم وخصوماتهم على اختلاف أنواعها . والى جانب ذلك كله يقوم على الأخلاق فى صورته الجــديدة ، فيقدم للطبقة المثقفة صورة أخلاقية واضحة للسلوك الاسلامى الصحيح . كان المجتمع اذن على رغم ظهور الفلسفة والثقافة اليونانية ذا طابع اسلامى سليم ، وكانت التربية العامة اسلامية فى صيغتها أيضا ، فقــد كانت تتكون من علوم اللغة العربية وعلم التوحيد والفقه والعلوم الرياضية .

والنتيجة الأخيرة أن دخول الثقافة اليونانية لم يمس صبغة المجتمع الدينية ، فقد كان المجتمع بوجه عام يعتقد ما يقرره الدين ، ويقضى فى محاكمه بما يقضى به الدين ، كما كان الناشئون فى دور العلم المختلفة يؤخــذون بتعلم علم الكلام والفقه واللغة ويأخــذون فى كثير من الأحوال بنصيب من العلوم الرياضــية والطبيعية والفلكية »(٦١) .

ومن الممكن بعــد هــذه الكلمة الجامعة أن نوضح أشكال هــذه الثورة والمواقف المختلفة للمعارضين للتراث الاغريقى . وفى نفس الوقت نحب أن نضيف تعقيبا يسيرا نحو هــذه الثورة الفكرية فهــذه الثورة منها ما هــو وليد

انتعصب الأعمى ، ومنها ما هـو وليد البحث النظرى المتع ، وهـذه الثورة بما نحمل من معانى التعصب والبحث النظرى يمثلها رجال لهم فى تاريخ الفـكر الاسلامى أصالة لا تقل عن أصالة أفلاطون وأرسطو فى تاريخها الفكرى ، فمنهم :

١ ــ الاسلاميون الأصوليون •

٢ ــ الاسلاميون الصوفيون •

الاسلاميون الأصوليون :

وهؤلاء رفضوا التراث اليونانى برمته ولم يقفوا عند حـد الرفض له بل الثورة عليه كمناهج منطقية ونتائج ميثافيزيقية ، وحاولوا اقامة منهج اسـلامى خالص ، وكما تجلى فى موقفهم شخصية الاسلام الحق ، تجلى فى تفكيرهم العقل الاسلامى المبدع[٢] •

(أ) ومنهم علماء أصول الفقه الذين حاولوا توضيح علاقة العقل بالشريعة •

(ب) ومنهم علماء أصول الدين الذين حاولوا توضيح علاقة العقل بالعقيدة •

يقول الشيخ الجليل مصطفى عبد الرازق :

« وعندى أنه اذا كان لعلم الـكلام ولعلم التصوف من الصـلة بالفلسفة ما يسوغ جعل اللفظ شاملا لهما فان علم « أصول الفقه » المسمى أيضـا « علم أصول الأحكام » ليس ضعيف الصلة بالفلسفة ، ومباحث أصول الفقه تـكاد تكون فى جملتها من جنس المباحث التى يتناولها علم أصول العقائد الذى هـو الـكلام •

بل انك لترى فى كتب أصول الفقه أبحاثا يسمونها « مبادىء كلامية » هى من مباحث علم الكلام • وأظن أن التوسع فى دراسة تاريخ الفلسفة الاسلامية سينتهى الى ضم هـذا العلم الى شعبها »[٣] •

أراد الشيخ مصطفى عبد الرازق أن يبرز أصالة فكرية عربية تنتمى فى نشأتها الى عقل عربى هو الامام الشافعى سميت بأصول الفقه •

فهـذا الفن أحكمه عقل عربى فريد يمكن اطلاق لفظ الفلسفة عليه ترمى من وراء ذلك الى أن الجـو الاسلامى نشأت فيه فلسفة عربية خالصة لخدمة غاية

اسلامية خالصة وذلك في نفس الوقت عمل يمكن أن يقـدم نموذجا لكل من يجادل في وجود فلسفة عربية خالصة ، ولكل من يجادل في وجود فلسفة اسلامية خالصة ، ويمثل اتجاها اسلاميا عربيا لتيار يمثل وجهة نظر رسمية اسلامية ، وهو يختلف عن التيار الهيليني من حيث المبدأ والغاية فمبدأ التيار الأصولي : اسلامي بحت ، والتيار الفلسفي : تيار هيليني ،

هـذا العلم يخـدم الغايات الاجتماعية والعقائدية ، ويحفظ على العقل رشـده عن أن تستهويه نظرة خاصة أو فكرة شخصية ، وبالرغم من أن هـذا العلم كونه العقل وتكون على أساس عقلي فانه يحـدد نطاق العقل ويحـدد مجال اجتهاده ،

ويفترق عن منطق أرسطو من حيث أنه يخـدم غـاية دينية ويعين على مصلحة اجتماعية فبمقتضى هـذا العلم يستطيع الانسان أن يحترم الاتجاه الاجتماعي للدين والاتجاه العقائدي ،

فالاتجاه الاجتماعي نراه يظهر في استنباط الأحكام التي تتفق ومصلحة المجتمع من خلال ما يطرأ علـيه من مشكلات فاذا ما جـدت مشكلات اجتماعية يستطيع الانسان أن يقدم لها اجابات مناسبة بمقتضى هـذا العلم ،

والاتجاه الاعتقادي نراه يظهر أيضا في صورة احترام الانسان للنص الالهي وتطويعه عن طريق هـذا العلم أيضا ،

فالنص الالهي في النهاية هـو المحور وهـو الأساس الذي عليه الترك والأخـذ ،

الاسلاميون الصوفيون :

« وهؤلاء رفضوا كتابات « الأستاجيري » منها كما رفضوا الكثير من معارف يونان وكانوا الى حـد كبير ضمن القطب الموجب للعقل الاسلامي في كفاحه من أجـل تأمين تراث الاسلام » ،

هؤلاء الاسلاميون الذين تجمعهم آصرة أهل السنة وتفرق بينهم مناهج البحث والنظر يهدفون الى غاية واحـدة هي مهاجمة الفلسفة وكان الطـابع

الغالب عليهم في مهاجمتهم اياها عدم التقيد بمنهج علمي واضح • وكان الظاهر عليهم أيضا أن ايمانهم بحقيقة الدين وشعورهم بأصالة ثقافتهم جعلهم ينظرون بعين الظافر عدم جدوى هذا اللون الفكري فراحوا يؤلبون الرأى العام والخاص وتجاوزوا بالثورة حد الغضب على الفلسفة ، فأصبح لديهم أن كل ما هو غريب عن الثقافة الرسمية يدخل تحت عنوان (تراث الأوائل)(٤) •

وتراث الأوائل يشمل (الاغريقى) ، و (الشرقى) فلسفة أو غيرها • كل ذلك شملته الثورة الفكرية الاسلامية • وكأن الفلسفة كما تتمثل لنا في هذا الجانب من المهملات البشرية أو من الزوائد الطبيعية التى يجب على الانسان أن يتطهر منها • فالفلسفة عندهم كما تدعى :

١ ــ من العلوم المهجورة •

٢ ــ أو حكمة مشوبة بكفر •

٣ ــ وكتابها الكتاب المتهم •

وكان على النساخ المحترفين ببغداد سنة ٢٧٧ أن يقسموا بأنهم لا يشتغلون بانتساخ أى كتاب في الفلسفة ، ووسمها ابن صلاح بأنها أس السفه ، وتلاعب بها الفقيه أبو عمران الميرتلى في أبيات هجاء فيها :

لا خير فيما الفل أو   له وآخره السفه

وتمييزا لها عن العلم الفاضل أو العلم النافع أو علوم الدين ، قالوا • (علوم الأوائل) ، قال أحدهم :

فارقت علم الشافعى ومالك   وشرعت في الاسلام رأى دقلس

وكان الطابع الغالب على هذه الجماعة التى تعقبت الفلسفة والفلاسفة جماعة أهل السنة كما بينا •

وكما نلاحظ أن أسباب هذا التعصب • وتلك الحرب أنهم كانوا يرون أنها تؤدى في النهاية الى الكفر أعنى الى التعطيل أى تجريد ذات الله من كل وصف ايجابى ومحاربة قواعد الدين • « فكأن الاشتغال بهذه العلوم يسير جنبا الى

جنب مع الاستخفاف بقواعد الدين ودراسته »[1] . وكانت لهم شواهد على ذلك فضلا عن المواقف السابقة التى رأيناها فى دعاة المنشئين والنقــديين .

نمـــاذج وشـــواهد :

١ ـــ الشاهد الأول : عبد الله ابن ناقيا المتوفى ببغـــداد ٤٨٥ .

شاعر وصاحب مقامات أدبية مشهورة ، وقـــد أفضت به تلك العلوم الى التعطيل ومحاربة قواعـــد الدين .

٢ ـــ أحمد البهرجورى : فى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس .
اللغوى الشاعر الموصوف بالقبح والقزازة ، فقـــد كان واسع الاطلاع على علوم الأوائل وملحدا لم يستر معتقداته الالحادية قال ياقوت جـ ٢ ص ١٢٠ :

« كان سىء المذهب متظاهرا بالالحاد غير مكاتم له وكان قـــوى الطبقة فى الفلسفة وعلوم الأوائل » .

٣ ـــ ابن ثابت بن سابور : من بادرايا توفى سنة ٦٩٦ ﻫ

أقام ببغـــداد وانتفع الناس بعلمه الغزير المتنوع واستطاع الوصول الى الخليفة الناصر وأصبح وثيق الصلة به من بعـــد ، وقـــد عنى هـــذا الخليفـــة كسائر الخلفاء العباسيين المتقـــدمين عليه منهم والمتأخرين عناية شـــديدة بأن تكون له مشاركة فى العلوم الشرعية وأن يكون له فى الحـــديث مثلا رواية تروى عنه الأحاديث وهـــو الذى أجاز أبا الفضل الأردبيلى المتوفى سنة ٦٥٦ فى أن يروى من تلقاه عنه من الأحاديث . وتلا دروسا فى شرح مسند أحمد بن حنبل وأجاز ابنه وأربعة علماء حنابلة سمح لهم بالاختلاف الى هـــذه الدروس وأذن لهم برواية مسند ابن حنبل منه بالاجازة .

ونعود الى ابن ثابت فنقول :

انه اشرك الخليفة الطلعة الشغوف بالعلم فى علوم الأوائل وعن هذا الطريق جره الى الاستخفاف بالعلوم الشرعية التى عنى بها الخليفة من قبـــل وكان حاذقا بارعا وهون عليه علم الشرائع .

٤ ـــ ولعله لم يكن صدفة واتفاقا أن يهدى شهاب الدين عمر السهروردى

المتصوف كتابه الذى حمل فيه على الفلسفة اليونانية حملة شعواء ونعنى به كتاب كشف القبائح اليونانية ورشف النصائح الايمانية الى الخليفة الناصر • ذكره بروكلمن ج ١ ص ٤٤ •

وان لهـذا المتصوف كتابا آخر هاجم فيـه الفلسفة عنوانه « أدلة العيان على البرهان فى الرد على الفلاسـفة بالقرآن » ذكره أبو الاخلاص الغنيمى فى كتابه « رسالة فى بيان ألويته صلى الله عليه وسلم لاندنبرج — جامعة بيـل ورقمـه ١٠ ب » •

فكل انحراف عن طريق الدين كان القوم يعزون السبب فيه الى علوم الأوائل اذا كان صاحب هـذا الانحراف قـد اتصل بها عن قرب أو بعـد •

فتاج الدين السبكى يرى أن السبب الذى جر الخليفة المـأمون الى القول بخلق القرآن • هو هـذا المقـدار الضئيل الذى عرفه فى علوم الأوائل ، ونرى الذهبى يعقب على المدح الكثير الذى سخا به على علم القاسم بن أحمد اللورقى ابن أحمد بن موفق اللورقى المتوفى سنة ٦٦١ بقوله :

« ياليته ترك الاشتغال بعلوم الأوائل ، فما هى الا مرض فى الدين وهلاك فقل من نجا منهم — أى من المشتغلين بها » •

وحمل عبد القادر الجيلانى المتصوف الكبير فى درس عام ألقاه على أحـد القضاة لا لشىء الا أنه سمح بأن تكون فى مكتبته مؤلفات الفلاسفة العرب ويروى عن عالم كفيف البصر وهو حسن بن أحمد بن نجاء الاربلى المتوفى سنة ٦٦٠ الذى عاصر ابن خلكان وحـدثت بينه وبينه مقابلة لم تكن طيبة •

وكان حسن هـذا فيلسوفا رافضيا وفى داره بدمشق كان يجتمع خلق كثيرون من المسلمين وأهل الكتاب وأتباع الفلسفة كي يأخـذوا عنه ويتعلموا منه فيروون أن آخر كلمة قالها ساعة الموت :

« صـدق الله العظيم وكذب ابن سينا » ، فلعـل هـذه الأمثلة التى جعلت الامام الشاطبى يقول :

« وهو شاهد فى التجربة العادية • فان عامة المشتغلين بالعلوم التى لا تتعلق

بها ثمرة تكليفية تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم » •

نتـــائج :

لقـــد أحصى التاريخ الشواهد الكثيرة من نماذج هؤلاء القوم الذى تنكب بهم الطريق أو التوى عليهم القصـــد ففسر ذلك « بسبب علوم الأوائل » فربمـــا كان هـــذا حقا وربما كان خطأ وسنرى رأى الغزالى بعد • غير أن جماعة أهل السنة تناولوا هـــذه الظاهرة بمختلف فن القول ومنطق البيان فقالوا عنها انها تضر بالدين فتناولها الوعاظ وأهل الفتوى بالتحريم والتحريض ودعوة عـــدم الاطـــلاع عليها •

* نادوا بحرق كتبها وعـــدم انساخها •
* عـــدم دراستها والرد عليها اذ وجـــدوا فى الرد نقـــدا للشبهة ولا يأمن من يطالع الشبهة أن يعلق ذلك بفهمه •

« وكان طبيعيا أن تتجه كراهية أهل السنة أولا وبالذات الى انهيات أرسطو لأن مقـــدماتها ونتائجها كانت تعتبر متعارضة أشد التعارض مع مقتضيات عقائد الاسلام على الرغم مما بذله الفلاسفة الاسلاميون من عـــدة محاولات للتوفيق بين كلتيهمـــا •

ولم يقف الأمر عندها بل تعـــداها الى ما هـــو تمهيد لها ومقـــدمة فكان بدوره موضع الكراهية (كالمنطق) من نفوس أهل السنة اذ لم يكن فى وسعهم الا أن يخافوا أن تكون هـــذه العلوم التى لا تتعرض للدين فى جوهرها قادرة على الاغراء بالتقـــدم فى طريق الفلسفة »(٧أ) •

من ذلك كان المنهج النقدى هـــو تأليب الرأى العام وحسب ، وتشويش على الثقافة بوجه عام ، فلذلك جاء النقـــد قاصرا دون المستوى مما أساء الى العقلية الاسلامية وجعلها فى ميدان الفكر حابية لأن النقـــد لم يكن هادفا ولم يرتفـــع الى المستوى اللائق به •

وبالرغم من أن سهام الغيظ لم تصب فؤاد الفلسفة ، فانها عكرت عليهـــا صفوها فحبستها عن أماكن العامة وحلقات الدارسين • وأصبح الدارسون للفلسفة

يغـدون كهوف الخاصة وقـد سترهم الليل ومع ذلك فلقد سرت دعوة انتقـاد الفلسفة وتهجينها فى جميع الأوساط العلمية فاستجاب لها من استجاب وأعرض عنها من أعرض .

بيد أن الذى استجاب لدعوة انتقاد الفلسفة وتحريمها جعلته ينأى بفكره عن كل ما صاحب الفلسفة من ترجمات الأوائل . بل ذهبت به الدعوة الى أبعـد الحـدود فجعلته ينكر كل كتاب أو رسالة تضمنت بعض هـذه الآراء الفلسفية أو مجرد اسم له بحث فى ميدان الفلسفة .

فهـذه النظرية الضيقة جعلت الانغلاق فى الفكر شرفا ينتسب اليه . فشاع بسبب تلك الضحالة الفكرية والضآلة فى الثقافة عـدة نتائج منها :

١ ــ رفض الفلسفة رفضا كاملا دون نظر الى ما فيها من لمعان الصواب .

٢ ــ رفض المنطق مع أنه بعيد عن ميدان الثورة .

٣ ــ عـدم الاهتمام بالفلسفة أو العلم الطبيعى .

٤ ــ استنفد العلماء طاقات الجـدل فى الدين وأصول الدين .

٥ ــ ظهر الدين بمظهر الضعيف الذى لا يقوى على مواجهة الحياة .

٦ ــ انتحلت مسائل الفلسفة للدين وتأولوا لاثباتها ظواهر الكتاب والسنة .

قضـــية العقـــل والنقـــل

● من أوضح القضايا التى أثرت عن أسلافنا قضية العقل والنقل ومشكلة العقل والنقل تختلف قليلا عن قضية الفلسفة والدين من حيث المشكلات التى تتناولها وقـــد لا يعنى الفلسفة أن تقف أمامها طويلا بينما هى من مهام العقـــل الاسلامى مثل :

● قضـــية الاجتهـــاد •

● قضـــية التـــأويل •

هذه مشكلات قد لا تحرص عليها الفلسفة — من حيث مدلولها الاصطلاحى — وفى المقابل نجـــد الفلسفة تحرص على اثارة قضايا لا يأبه لهـــا العقل الاسلامى مثـــل :

● قضـــية العقـــول العشرة •

● قضـــية المحرك الأول للعالم •

والقول الفصل أن القرآن تكفل بشرح وتوضح قضية وجود الله وتوحيده فلا حاجـــة للمسلم الى الفلسفة لاستجدائها حتى يتخبط معهـــا فى قضايا قـــد حسمها القرآن •

اذن هناك مشكلات قـــد تخص عقل المسلم دون أن يطلق عليه فيلسوف كقضية الاجتهاد والتأويل • ولقـــد تميزت جماعة من المسلمين بالرأى والاجتهاد والجرأة فى طرح المشاكل وكانوا أبعـــد ما يكونون عن نطاق الفلسفة — بمعناها الاصطلاحى — وهناك الغزالى الذى قيل فيه أنه دخل بطن الفلسفة ولم يخرج منها — رضى لنفسه ألقـــابا كثيرة ليس منها لقب فيلسوف قـــد يقال انه تحاشاه لعـــدم أصالته الاسلامية والعربية •

وأصل هـــذه المشاكل التى تخص العقل الاسلامى دون غيره تبدأ من حيث :

قــد قرر انقطاع نزول الوحى بعــد انتقال الرسول مع بقاء الحياة الدينية مرتبطة بالقرآن •

أن الاسلام قــد قرر انقطاع الوحى وليس معنى انقطاع الوحى انقطاع الحياة الدينية لان الحياة الدينية باقية ببقاء القرآن الصورة النموذجية للوحى الالهــــى •

فالظاهرة الدينية مرتبطة بظاهرة القرآن فالمسلم مطالب اذن بالوقوف على القرآن لفهمه فهل يمكن فهم المعنى الحقيقى من النص الالهى ؟

وهل المعنى الحقيقى يحتاج بيانه الى العقل ؟ أو الى امام معصوم ؟

من هنا بدأت قضية العقل والنقل بتياراتها المختلفة لتقرر فى سبيل الاجابة على تلك المشاكل علمين :

- علم أصول الدين : لتوضيح علاقة العقل بالعقيدة •
- علم أصول الفقه : لتوضيح علاقة العقل بالشريعة •

وأسلافنا عندما بذلوا جهدهم للتوفيق بين العقل والنقل كانوا لا يبغون من وراء ذلك معنى عقيما أو جدلا نظريا سقيما وانما رموا من وراء ذلك الى تهــذيب العقل بأدب النقل حتى لا يجد الانسان حرجا فى عقيدته أمام عقله ، أو لا يشعر أن عقله شىء زائد يجب التخلص منه أمام عقيدته •

فحتى لا تتنازعه تلك المــآخذ أخــذ يخفف من هواتف العقيدة وصرخات العقل •• بالتزام الطريق الرشد •• والطريق الرشد هــذا لا يظن فيه أنه طريق الوسط • وسط غير محــدد الملامح • انما تكيف شعورى فكما أن الجسم يتكيف مع الحرارة بإفراز (العرق) ويتكيف مع البرودة بالانكماش استجابة لظروف البيئة •• وليس لذلك مقياس معين سوى عوائد البيئة فكذلك تكون عملية التوفيق بينهما هى عملية تكيف علامة على الاستجابة الصحيحة لطمأنينة الايمان •

كان سلفنا الصالح اتخــذوا « الوحى » أصلا ومقيدا •• به تقاس الأمور وتتهــذب النفــوس • لمــا اتصف به من الدوام والثبات •• فى شئون العقيدة

والأخـــلاق فكل ما يخص هـــذا الجانب ، جانب العقيدة والأخلاق قارنه سلفنا الصالح بمقياس الوحى • فان توافق مع النقل أخـــذوا به •• وان أنكره النقل نحوه جانبا •• وعـــدوه من شطط العقل ، يخضع لتهـــذيب النقل •• هـــذا اذا كان فى مجال الايمان • لان حمل النفس على الطاعة ومحاربة جنون الشهوة من أثر تطويع النقل للعقل وفى هـــذا ازدهار للايمان وتطبيق للأخلاق وتجديد لمجال العقل • وفى هـــذا ما يضفى على الجـــو الاجتماعى والثقافى وئاما وأمنا لاننا نلاحظ أن أهم ما يقـــوض الحياة الاجتماعية تصارع العقائد أى محاربة العقل للعقيدة أو محاربة العقيدة للعقل •• والتاريخ الفكرى خير شاهد لـــمـــا نذهب اليه ففى التاريخ الاسلامى نشاهد « محنة أحمد بن حنبل » من صراع الفلسفة وعلم الكلام ••

أما فى التاريخ الأوربى فقـــد بلغ التناحر أوجه •• فلقـــد عادت الكنيسة بعض الأعمال المدنية التى لم يكن من شأنها رفضها أو تاييدها فلقـــد أقامت حجرا على العلماء ، وضربت أطناب الغضب حول حرية العلم ، فأدى ذلك الى تبادل نظرات القلق — قلق الكنيسة من زوال سلطانها ، وقلق العلماء من ذلك التناحر المستمر — حتى شعشع فجر نهضة جـــديد أدى الى انفصام فى شخصية الحضارة • وما زالت تعانى من جراء ذلك تخبطا وجنونا لا يعلم متى الوصول الى خط التوازن العاقل غير الله •• ولو أخـــذ السابقون بمبدأ تحـــديد مجال الاختصاص بين « النقل والعقل » لـــمـــا انسلخت حضارتنا هكذا •• فتحـــديد مجال الاختصاص بين العقل والنقـــل من أهم المبادىء لدى العقل ولدى النقـــل ومن أهم المرتكزات الثقافية • أما موقف عـــدم الاختصاص فقـــد أدى الى عـــداوة ورد فعل مماثل له فى نفس الاتجاه •

فالحياة الاجتماعية تحتاج الى توازن دقيق فيما تحمله من أفكار وما تزخر به من قيم •• فمن التوفيق تحـــديد قضايا النقل من قضايا العقل •

فالتوفيق كان لا يعنى المهاجمة أو المهادنة فى الجو الاسلامى ولكنه اتخـــذ منهجا لتصحيح وضع كل منهما فيما يهـــدف اليه •

وأساس الاختلاف فى تلك القضية وغيرها من قضايا الفكر انما هـــو ناشىء طبيعة الأفراد أنفسهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض فما كان للدين أن يعـــادى

العلم وما كان للعلم أن يعادى الدين فما يود الدين أن يكون علما ولا يود العلم أن يكون دينا فلم الاختلاف !

ذلك منهج القـدامى أما فى العصر الحـديث فيرجع الاختلاف حولها إلى قضية التعقيل والتحرير أى الى العقل والحرية •

ومن هنا تبدو مشكلة العصر ••

فمشكلة العصر كما تبدو هى :

١ ــ الغاء التوفيق كمنهج لأنه لا يحل القضية ــ فى نظرهم ــ انما كل ما يعطيه مبدأ التوفيق مواقف عقلية تبريرية لسيطرة الدين على العقل •

٢ ــ الاستغناء عن الدين •

٣ ــ ظهور استقلال النزعة العقلية علامة عصر جـديد •

أما الغاء التوفيق كمنهج : فانه ظهر بطريقة مغرية •

فمرة يظهر بعنوان « الدين والفلسفة » •

فيحاول الفلاسفة بشتى أدوات المنطق ، ومغالطات الجدل ، وسفسطة الحجج أن يهدوا من كيان الدين • ويتحولوا بالقضية الى تفريعات غير جـديد كمحاولة ابراز أن الكلام فى الدين عبء ثقيل وغير مجـد فخير لنا أن نطهر الفلسفة منه كما يزعمـون •

ثم تظهر لوحة جـديدة باسم « الدين والعلم » •

ثم يظهر باسم « الدين والفن » •

هكذا دواليك مما يشحن الذهن ويتخم العقل ••

لست أشكك فى عقـد تلك المقارنات • ولكن أشكك فى نتائجها فتلك دراسات خاضعة للتكلف المحض فضلا عن أنها دراسات عقيمة ••

كذلك كانت هـذه المقارنات مدخلا طبيعيا للعقل لان يعبث بالدين ، ويجمع كل ألوان الثقافة كما لو كانت نقابة عامة لمحاولة سحب الثقة من الدين ونجحت اللعبة وتعثرت بها الحضارة •

فهـذه المقارنات الكثيرة رفعت عن الدين صـفة التقديس أخص خصائص الدين وجعلته عرضة لكل مجادل لدود ليس له من صفة المجادلة سوى الجهل بحقيقة نفسه ..

فهـذا النقاش الدائر حـول الدين انتهى بنا الى أهم سؤال يعتبر نتيجة المقارنات العـديدة بين الدين وشتى مجالات الفكر هـذا السؤال هو :

هل الدين حياة ضرورية أو مرحلة حضارية ؟

الجزء الثـــانى

الامام الغزالى

وعـــلاقة العقـــــل باليقـــين

- الباب الأول : مستوى كفـــاية العقل فى الشك
- الباب الثانى : سلطة العقل فى دائرة اختصاصه
- الباب الثالث : مدى علاقة العقل باليقين

الباب الأول

مستوى كفاية العقل فى الشك

- هل الغزالى فيلسوف ؟
- فلسفة شكه ومسوغاته العقلية .
- عالمية الحقيقة وأصولها الدينية .

هــل الغزالى فيلسوف ؟؟

جرى عرف الخاصة على اطلاق لقب فيلسوف على كل من اشتغل بمسائل الفلسفة فكتب وألف وحاور ، وأحاط بتراث الاغريق ، وكان له فى ميدان الفكر نظريات على مستوى رفيع ، أو كل من جاء بمذهب فلسفى يدعو الى التحلل من الف الجماعة وقيمها • وتواتر التفسير التاريخى على أن صاحب هــذا اللقب هو محب للحكمة • أى دعوة الى الاتزان العقلى ولو أخــذنا بعض هذه المقاييس ورحنا نطبقها على أبى حامد الغزالى لظهر لنا : أنه قرأ الفلسفة والمنطق ، ولخص وشرح وقوم ، ونقــد وألف الرسائل والكتب • ثم هــو ان لم يكن حكيما فهو بحق محب لهــا ، وسلك اليها طريق التصوف ، اذن هــو فيلسوف •

ولكن نلاحظ أن الغزالى لم يحفل بهــذا اللقب مطلقا فلم يرد أنه هاجم مثل هــذا اللقب أو أشاد به ، كذلك لم نر معاصرا له أطلق عليه هــذا اللقب لا على جهة المدح والثناء ، ولا على جهة الذم والهجاء ، فى حين أن الغزالى من الشخصيات التى تعــددت حولها الألقاب وربما هــذا يعنى أمرين فى نظرنا :

الأمر الأول : أنه يدعو الى أصالة التراث الاسلامى •

الأمر الثانى : أنه كان لا يحب انتحال الثقافة والتقليد فيها •

يقول د• فروخ : لو أردنا أن نشير الى الغزالى بلقب ، فماذا نقول ؟ أنسميه فقيها أم متكلما أم صوفيا أم فيلسوفا ؟ ان كل تسمية من هــذه التسميات تلقى اعتراضا شديدا ، انه ليس فقيها كالشافعى وأحمد بن حنبل ، ولا متكلما كالنظام والعلاف ، ولا صوفيا كعمر بن الفارض ومحيى الدين بن عربى ، ولا فيلسوفا كأرسطو وابن رشد • ان تسمية من هذه التسميات يمكن أن تسىء الى الغزالى اذا أطلقت عليه أو تنقصه بعض حقه عندنا على الأقل • ولقــد كان من التوفيق الى حــد بعيد من العلم وفى الحق أن يسمى الغزالى منذ زمن طويل حجة الاسلام •

ذلك لأن هــذا المفكر العبقرى لمــا تعرض للفكر والكلام وللتصوف وللفلسفة لم يكن فى خياله ولا فى منهاجه الا الدفاع عن الدين عامة ، وعن الاسلام خاصة ، من أجل ذلك كانت تسميته حجة الاسلام تسمية موفقة صحيحة ، ودالة ودقيقة فى وقت واحــد والى حــد بعيد •

ولا ريب فى أن هـــذه التسمية ترضيه أكثر من تسميته فقيها ، أو متكلما ، أو فيلسوفا وهى ترضيه أكثر من كلمة صوفى ، ما دامت هـــذه الكلمة تجمعه مع أشخاص لا معدى عن تسميتهم متصوفين مثل الحلاج والسهرودى وعمر بن الفارض ومحيى الدين بن عربى أيضا[1] أ•هـ •

فهو وان كن لا يرضى لنفسه بلقب فيلسوف فهو فى الوقت نفسه لم يستطع أن يتخلص من النزعة الفلسفية ، ولا الروح الفلسفية فقد تمتع بروح نقـــدية عالية رفيعة تتمثل هـــذه الروح النقـــدية فى تجربته للشك ، فاستطاع كفيلسوف أن يرسم علامات إستفهام واضحة جريئة ، وهو كفيلسوف قـــدم نقـــدا كثيرا لأشياء كثيرة وأظهر المسوغات الكافية لشـــكه • بيد أن الغزالى فى شـــكه كان فيلسوفا عقليا وفى خروجه من الشك كان صوفيا دينيا ، وسنرى •

مستوى كفـــاية العقل

فى الشك من تجربة الغزالى

١ ـــ الشك ومنهج الباحثين

نلاحظ أن كثيرا من الباحثين يحاولون دائما ربط كل نزعة شكية بتاريخ الشكاك ثم يقولون : وما تلك النزعـــة الا أثر من آثار تلك المدارس الشكية ، والمنهجية البحث ، ومساندة تلك النتيجة نراهم يحصون الكثير من المصطلحات لعقد وجوه الشبه ووجوه التأثر بين تلك النزعة وتاريخ المدارس الشكية ، ونحن لا ننكر كل تلك البحوث لذاتها ، وانما نلاحظ أنهم يبغون من وراء ذلك أن صاحب النزعة الشكية مدين لتراث الشكاك ، وغاب عن الباحثين أولا : أن الشك حال كل انسان غير أن أحوال الشك تختلف بأن هـــذا شك طارىء تكفية الأدلة الخطابية ، أو شك طرأ على انسان ثم يسكت عن البحث ايمانا بأنه لا جـــدوى • ثانيا : أن الشك ثورة على التقاليد التى أصبحت غير مقـــدسة لديه ولا يستطيع ذلك الا من أوتى عقلا ناقـــدا ، فالشك ثورة نقـــدية ومن كان هـــذا شأنه لا يكون بالطبع مقلـــدا للشكاك وغيرهم •

ونحب أن نقول للباحثين من أثر فيمن تشكك فى الأول !

تلك حالة نفسية نراها مع الأنبياء مثل سيدنا ابراهيم نبى الله فى قـــوله تعالى : ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ـــ قال بلى ـــ ولكن ليطمئن قلبى** ﴾(٢) • فهل كان ابراهيم متأثرا بتراث الشكاك الحق أنه أعرب عن سبب شكه ـــ رغم أنه صاحب عقيدة دعا اليها ـــ ولكن ليطمئن قلبي ـــ وهل عندما خطب عمر القوم اثر موت الرسول قائلا ﴿ ان رجالا من المنافقين زعموا أن رسول الله توفى وان رسول الله ما مات ﴾(٣) •

هل أخذ عمر بتراث الأول لينكر به بشرية الرسول وما يجوز عليه من أحوال الحياة ! الحق أن الشك نزعة نفسية تتفاوت بتفاوت الغايات ، فالشك مثلما وقع للامام كان أبعـــد الغايات لان مطلوبه كما يحـــدد الامام « العلم بحقائق الأمور » فلابد من طلب حقيقة العلم ما هى ! وأخـــذ يبحث وراء ذلك وكانت تلك مشكلته الحقيقية •

٢ ــ أسباب عــامة

أولا ــ الامام الجــوينى :

ووفاء لحق البحث نقول : هل معنى ذلك أن الغزالى غير مدين لأحــد فى ثورته العلمية بله فى شكه ! اننا لا نقول ذلك ولكننا أردنا تبيان أن الشك سورة نفسية ولا تأخــذ مثل هــذا الشكل الا عند القلائل ، بالرغم من كثرة المطلعين على شتى التراث العلمى • وممكن جــدا أن يوجــد الشك بصورته تلك وان لم توجد مدارس الشكاك ، هــذا وبالنسبة للامام واقعيا فهو مدين الى طبيعته الفطرية ونزعة امام الحرمين •

فامام الحرمين هــو الذى كون الغزالى علميا ، كما كون الجم الغفير من الطلبة كما رأينا بيد أن الغزالى كان شغوفا بالعلم والاطلاع كما يقول :

« وقــد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى »(٤) انه عقل ناقد فربما كانت نفسه ظمأى الى العلم فيشفى غليلها كتابان أو أكثر من ذلك أو أدنى لترتوى النفس من محيطات العلوم وتلك حال أكثر الناس يحبون أن يحفظوا الكتب كما لو كانوا نسخة من الكتاب ، ولا يلقون بالا الى النقد بل ولا يحبون التعرض للنقد ، اذن فمن أين للغزالى تلك القريحة الناقــدة ؟ لا شك أنها فطرية عند الامام الغزالى نماها الجوينى لاننا كما عرفنا أنه كان ذا ميل طبيعى الى النقــد والبحث وساعد على نضجها استحسان الغزالى لتلك الطريقة الناقــدة •

وهناك نص أورده السبكى كدليل حسى على أن الغزالى مدين للجوينى فى حرية البحث لأن النص يصور الجوينى ومدى حريته فى البحث عن الحقيقة والتى أصبحت فيما بعــد مشكلة تلميذه الثابتة فى سبيلها نزعة شكية بصــورة أعمـــق •

« لقــد قرأت خمسين ألفا فى خمسين ألفا ثم خليت أهل الاسلام باسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم وغصت فى الذى نهى أهل الاسلام عنه كل ذلك فى طلب الحق وكنت أهرب فى سالف الذكر من التقليد •

« الآن قــد رجعت عن الكل الى كلمة الحق : عليكم بدين العجائز فان لم يدركنى الحق بلطف بره فأموت على دين العجائز وتختم عاقبة أمرى عند الرحيل

على مذهب أهل الحق وكلمة الاخلاص لا اله الا الله ، فالويل لابن الجـويني (يريد نفسه) »(٥) فهـذا سبب ملتمس من أسباب الشك عند الغزالي لمسه من الجـويني أستاذه وفي نفس الوقت أوضح آثار الجويني في حيـاة الغزالي العلميـــة .

ثانيا ــ طابع العصر العلمي :

كذلك طابع العصر العلمي للامام الغزالي لم يكن موحيا بالثقة لأن ما كان سائدا في عصره الطابع التقليدي الجاف الذي لا ينبيء الا عن عقم أصيب به العلماء وشغلهم عن هـذا الداء تلك المهاترات الجـــدلية التي تعلن في صراخها الدائب عن نهايتها .

فنجـد مثلا أن المدارس الكلامية قـد عنيت بالجـدل حتى تاهت الحقيقة بين الفرق الكلامية لدرجة تؤدي الى الشك .

كذلك فلسفة عصره أدت بدورها هي الأخرى الى نوع من الشك اذ المشاكل التي أثارتها هذه الفلسفات لم تجـد حلا كافيا لدى تفكير المفكرين أو المعنيين بمسائل الفلسفة ، وليس ذلك وحسب ، بل تركت كثيرا من المشاكل معلقـة تدعو الى الحيرة والقلق فكان أهم ما يشغل بالهم هو التوفيق بين الدين والفلسفة مما جعلهم ينساقون وراء خرافات لا طاقة للعقل ولا للدين ولا للفلسفة بهـا ، وكلما أمعنوا في هـذه المشكلة كلما نأوا بأنفسهم وبفكرهم عن واقع الحياة وهدى الفكر . ولو انهم بحثوا المسألة بوعي عقلي ، وشيء من الاتزان الفكري ، لحددوا مسار الفكر وارتبطوا بالمجتمع ونظمه ، وامكنهم أن يربطـــوا الفكر بالتنظيم الاجتماعي وكان عليهم بدلا من العبث العقلي في ما وراء الطبيعة أن يعتمدوا على الدين فيما قـدمه .

كذلك الفقهاء لم يكونوا بأحسن حالا من هؤلاء ، فقد أخذ الفقهاء يمزجون أمور الدين بالمجادلات الفقهية ، وهـذا النوع من الدراسات التي خلع عليها أصحابها المتفيقهون ثوب القـداسة وجلالة التدريس ، وليس هناك ما هو أبعـد منها عن الدين وأكثر التصاقا بشئون الدنيا .

كل ذلك أدى الى تدرج الأفكار الشكية في الدين لأن مسائل الدين ومبادئه

ارتبطت بفنون الجـدل • ولقـد أدى ذلك كله الى خـلافات مذهبيـة زادها التعصب حنقا — فشغلت به عن الوحـدة الفكرية علميا ونظريا ، فالتفاسير المتباينة التى عبثت بآيات الذكر ، والشروح والتعليقات أبعـدت الناس وأضلتهم عن مبادئه وغاياته •

ولا أقول غير حـق فيما أقول ان تلك التفاسير تقتل الدين بكثرة ما تفصله وتشرحه ، كان الاعرابى يتعلم الدين فى جلسة واحـدة ثم يقول له الرسول مباركا له : « أفلح ان صدق » كل ذلك بدوره أدى الى التباس مفهوم الخطأ بالخطيئة مما كثر بسببه مقالات المكفرين لمن سواهم من الباحثين •

فالذى أثار الغزالى ما رآه من موقف المفكرين لكل باحث فى الدين ، فبعض الناس يحسبون الدين بالمذاهب وأنها هى ركنه وقوامه بينما البعض الآخر لايذهب هـذا المذهب بل يعـد هـذه المذاهب مصاعب ومعاثر فى سبيل الدين •

ثالثا — الجـو السياسى :

لقـد قامت حركات سياسية تبغى فى صميمها أن توجه الضربات المتواليه فى صميم دولة الاسلام مما يؤذن باستياء عـام لان مثل تلك الضربات وجهت والخلافة تعانى مرضا يهـددها بالانقراض لأن أمر الخلافة غـدا رمزا تقليديا وليس لها من اسم الا فوق المنابر كالسيف الخشبى الذى بيد الخطيب وليس له من صفة السيوف الا الرسم •

وتداعت الوحـدة الاسلامية للاختلاف بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، ومن يملك حـق تقرير الخلفاء ؟ ليس الخلفاء أنفسهم إنما هم رعاع البربر وهمجيو الأمس من الترك والبويهيين ، وما تجمع فى سماء الاسلام من سحب كثيفة كما يلوح كانت ضـد الاسلام (ففى سنة ٤٨٣ استولت دولـة الملاحـدة التى أسسها الحسن بن الصباح على قلعة (الموت) فى الديلم وقـد دامت هـذه الدولة حتى غارة المغـول)(٦) • وهـذه الدولة كما يظهر من بدء دعوتها أنها اسلامية تدعو بالملك للعلويين فأصبحت انفصالية لا من حيث الدعوة الى الخلافة ، بل من حيث الانحراف أو الفسوق عن المبدأ الاسلامى ، وأصبحت هـذه الدولة أكبر حركة هـدامة للقضاء على حياة أعظم رجال المسلمين شأوا ، وعلى رأس من ناله غـدرهم نظـام الملك ٤٨٥ هـ • وكانت تتخـذ لقتلهم السم

والسيف والخناجر وتلك فاجعة كبرى على الاسلام وأهله ؛ وفى سنة ٤٩٢ استولى الفرنج علي القـدس وكان الفرنج يدعون تلك الحروب بالغزو الصليبى أو الغزو المقـدس وكانت تلك الحروب فى صميم الصميم تريد أن تضرب الاسلام ضربة مسددة يفنى بها الاسلام ودولته وما ضرت تلك الضربات بالاسلام وأهله ، بل كانت أكثر ضررا عليهم • هـذه الضربات التى توالت على العالم الاسلامى كفيلة بأن توقظ الساسة والعلماء فضلا عن أنها مقوية للنزعة الدينية ، بالرغم من كل ذلك داوم العلماء على مجادلاتهم •

٣ ـ أسباب خاصة

الغزالى وشكه يعتبر نتيجة طبيعية لظروف عصره القاسية وهو فى نفس الوقت ثورة على المجالات الملتوية المعقدة الجافة ، وكانت تلك الحال باعثة على التساؤل والحيرة •

فما هى الحقيقة التى ينشدها هؤلاء الهراطقة ؟ لماذا تلك الضربات التى تكال للاسلام أليس الاسلام صحيحا ؟ واذا لم يكن الاسلام صحيحا فأى الدين حق ؟ ، وما هى الفطرة الأصلية ؟ •

ذلك ما كان من الغزالى واليك وهـو يصف حنايا نفسه وانطباعات ذلك عليه فهو قلق من حيث المعرفة ، حيران ، لا يرى فى التدريس أطمئنانا فهو كثير الترحال قلق البال ، لا يطمئن فى بلد ، لا يهنأ بشراب ، ولا يسيغ الطعام وتلك الحال تجعلنا نعتقد أن الغزالى شخصية عصره التى تأثرت بالأحـداث فأحدثت تغييرا شاملا فى الصيغة العلمية •

أولا ـ اختلاف الناس حـول الأديان :

لاحظ الغزالى اختلاف الخلق فى الأديان والملل ، ثم اختلاف الأمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه الا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى و (كل حزب بما لديهم فرحون)[٧] (ص ١٢٤) •

فالذى أثار الغزالى انما هو اختلاف الناس حول الأمور المغيبة ، وضعف

الايمان رغم تعـــدد الفرق ، ثم أخـــذ يذكر قلقه (اذ رايت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام ، وسمعت الحـــديث المروى عن رسول الله حيث يقول : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه) فتحرك باطنى الى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليـــد الوالدين والأستاذين والتمييز بين هـــذه التقليدات وأوائلها تلقينات الوالدين والأستاذين والتمييز بين هـــذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفى تمييز الحق منها عن الباطل ((٨)) (اختلافات) تلك لحال نفس غير قريرة للعقائد الموروثة ، نفس ظمأى الى كوثر المعرفة لا تحب التقليد ثم هى فى حـــذر من اصـــدار الحـــكم لخوض الاكثرين فيه دون أن تكتب لهم النجاة ولكن ما مطلوب الغزالى وما هـــــدفه ؟ •

ثانيا ــ تحـــديده لمفهوم اليقين :

مطلوبه العلم بحقائق الأمور فلابد من طلب حقيقه العلم ما هى ، فظهر لى (أن العلم اليقينى هـــو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب لا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقـــدير ذلك ، الامان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحـــدى باظهار بطلانه ــ مثلا ــ من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وانكارا فانى اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل لا بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه لم أشك ــ بسببه فى معرفتى ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قـــدرته عليه ((٩)) •

أراد الغزالى اذن أن تكون المعرفة من حيث المعرفة فى يقينيه الأوليـــــات الرياضــــية •

ثالثا ــ الحقيقة بين المطلق والنسبى :

الغزالى حـــدد غاية مقصده بأن (مراده العلم اليقينى وحـــدود العلم اليقينى بأنه هـــو : انكشاف المعلوم انكشافا تاما لا يبقى معه ريب ولا يقـــارنه أمكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقـــدير ذلك) •

فالحقيقة التى يطلبها الغزالى ليست حقيقة نسبية بالنسبة لعصر الغزالى أو

بالنسبة للحقائق الكائنة فى عصره ، انما يطلب حقيقة فوق الزمان والمكان حتى خيل الى أنه يطلب الله لأن الحقيقة التى ينشدها الغزالى هى ما يود الجميع طلبها وهى فى نفس الوقت ما يعجز الجميع عنها •

فالغزالى وضع علامة الاستفهام بحيث لا يبقى عند أى انسان ريبة فى أن علامة الاستفهام تلك مشكلة ، ولا يتسع القلب لتقدير غير ذلك فبدلا من أن يكون الوضوح خصائص للاجابة انعكس ذلك على خصائص السؤال وربما كان هذا هو ما يجعل للشك قيمة فى حياة المفكرين •

رابعا — مؤهلات الغزالى العلمية :

ولكن أليس البحث عن مثل تلك الحقيقة يستدعى نشاطا خاصا وسعة فى الثقافة ؟؟ • لقد أجاب الغزالى على ذلك السؤال : « لم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، واتفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتبع ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا وأجتهد فى الاطلاع على غايةكلامه ومجادلته ، ولا صوفيا ، الا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته • وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة(١٠) من الله •

« ولا شك أن المفكر الذى يقوم بمثل هذا العمل ويعبر عن قيامه بهذه اللهجة لمفكر جرىء الى آخر حدود الجرأة ، غير أن هناك دليلا حسيا على ذلك النشاط هو العدد الكبير من المؤلفات التى وضعها الغزالى ، فقد كتب بالرغم من المشاكل الكثيرة التى اعترضته فى حياته كالمجادلات فى بلاط نظام الملك والتعليم فى المدرسة النظامية والاسفار والتنقلات والرياضة والمجاهدة والاهتمام بالأهل والأولاد أكثر من ثمانين مؤلفا (العقل فى الاسلام ص ٤٤) •

فمثل هــذه الشخصية التى مارست التفكير على مستوى رفيع وتعمقت المشاكل فى حرية فكرية لا يشوبها ما يشوب عقول المتحرجين ، لا جرم أن تسأل نفسها عن ماهية العلم المطلوب ثم تحــدد معنى العلم المراد ثم تعود لتسأل نفسها هل لديها شىء ؟ فطفق الغزالى يقول : ما هو الطريق الى اليقين ؟

(أ) هــل هــو الحس ؟

« ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات فقلت : الآن بعد حصول اليأس لا مطمع فى اقتباس المشكلات الا من الجليات وهى الحسيات والضروريات فلابد من احكامها أولا فانتهى بى طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضا ، وأخــذ يتسع هــذا الشك فيها ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات ؟ واقواها حاسة البصر وهى تنظر الى الظل ، فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة ـــ بعــد ساعة ـــ تعرف انه متحرك وانه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف • وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقــدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقــدار » •

(ب) هــل هــو العقــل :

« هــذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته • فقلت : قد بطلت المحسوسات أيضا ، فلعله لا ثقة الا بالعقليات التى هى من الأوليات كقــولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحــد ، والشىء الواحــد لا يكون حادثا موجودا معــدوما واجبا محالا • فقالت المحسوسات : بم تأمن أن تكون الثقة بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ؟ وقــد كنت واثقــا بى ، فجاء حاكم العقل فكذبنى ولولا العقل لكنت تستمر على تصديقى » •

(ج) افتراض طريق آخر اليه :

« فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر ، اذا تجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعــدم تجلى الادراك لا يدل على

استحالته فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا ، وأيدت اشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعقد فى اليوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع مخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن أن تكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق ؟ بالاضافة الى حالتك التى أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها ، فاذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم ، اذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم اذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات ، ولعل تلك الحالة هى الموت اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الناس نيام اذا ماتوا انتبهوا) ، فلما خطرت لى هذه الخواطر وانقدحت فى النفس حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر ، اذ لم يمكن دفعه الا بالدليل ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل فاعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين ، أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » .

(د) حقيقة اليقين :

« حتى شفانى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة » .

فالغزالى أن قلنا أنه شك فى الحسيات والعقليات واضح بالطبع ، اذا ما شك فى ذلك فهو متشكك فى كل شىء ناتج عنها .

٤ ــ ملاحظــــات

أولا ــ هل الغزالى شك فى الله ؟ :

اثارة مثل هذا السؤال قد لا يرضى عنها الغزالى ولا يحب أن يثار مثل

هـــذا السؤال لاننا نراه كان عموما متحرجا فى شكه ، وحسبنا قـــوله : (بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال) واذا تحرج الغزالى فلا نتبجح لنستعلن ما اسر به الى نفسه •

فما صرح أنه شك فى الله لاننا نجـــده يقول حين ظلام المحنة واستحكامها حتى شفانى الله من ذلك المرض بنور قذفه الله فاننا نراه يعتصم بالله • ويقول الأصول الثلاثة يعنى الله والنبوة واليوم الآخر فى الايمان كانت قـــد رسخت فى نفسى لا بدليل معين محرر بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها فتلك مقالات الغزالى فهو يصرح بأنه ما شـــك فى الأصـــول الثلاثة فى الايمـــان •

وكان الغزالى فى تلك الرحلة يرينا أن معرفة الله ليس من وسائلها ما تتشكك فيه وكانه ينتهج هـــذا المنهج متى غبت عن الوجود حتى يستدل عليك فالله فى عرف الغزالى لا يصح التشكك فيه لان معرفة الله ليست ككل المعارف لها وسائل ومقـــدمات لابد منها للوصول الى النتيجة انها ليست من قبيل ذلك بل معرفة الله هى بالاحساس والشعور الوجدان ، وهى لدى كل مفتقـــد الاحساس والشعور والوجدان • اذن معرفة الله والشك فيـــه لم تكن داخلة فى تجربة الغزالى ، واعتراف الغزالى بالله مع عدم الشك فيه تفادى به ما يمكن أن يناقضه ويطيل عليه محنة الشك لتضرب أطنابها عليه فيتوه ثم لامنجاة • وكون الغزالى ارتفع بالله عن مستوى الشك لم يكن بدعا فى ذلك انما هـــو أثر من آثار الصوفية •

قال رجل للنورى : ما الدليل على الله ؟ قال : الله • قال : فما العقل ؟ قال . العقل عاجز والعاجز لا يدل الا على عاجز مثله ـــ وهـــذا محل اجماع • ولو أن الغزالى عرف الله بالعقل لعرف الدليل ولم يعرف الله • وهـــذا ما حبب اليه أن يخوض التجربة الصوفية على ما سنرى وكيف خرج الغزالى من محنة الشك •

لم يكن العقل سبيلا للخروج ومنطلقـــا لليقـــين لانه (لم يكن بنظم دليـــل وترتيب كلام (ص ١٣٠) بل بنور قـــذفه الله فى الصدر ، وذلك النور هـــو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقـــد ضيق رحمة الله الواسعة) (ص ١٣٠) •

ثم أكد هـــذا الاتجاه فى مشكاة الأنوار وهـــو يحاول أن يرسم الطريق الى الله فقال :

« فاعلم أن أرباب البصائر ما رأوا شيئا الا رأوا الله معه وربما زاد على هذا بعضهم فقال : ما رأيت شيئا الا رأيت الله قبله لان منهم من يرى الأشياء به .

والى الأول الاشارة بقوله تعالى : **(أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)** والى الثانى الاشارة بقوله : **(سنريهم آياتنا فى الآفاق)** .

فالأول صاحب مشاهدة .

والثانى صاحب الاستدلال عليه .

الأول درجـــة الصـــديقين .

والثانى درجـــة العلماء الراسخين .

وليس بعـــدهما الا درجـــة الغافلين المحجوبين .

كيف تغيب معرفة الله عن الغافلين المحجوبين .

أجاب الغزالى عن ذلك فقال :

« واذ قـــد عرفت هـــذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر فقـــد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله فهو مع كل شيء لا يفارقه ثم يظهر به كل شيء كما أن النور مع كل شيء وبه يظهر .. » .

ولكن بقى هاهنا تفاوت : وهـــو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ويحجب حتى يظهر الظل .

وأما النور الالهى الذى به يظهر كل شيء لا يتصور غيبته ، بل يستحيل تغيره فيبقى مع الأشياء دائما فقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ، ولو تصور غيبته لا نهدت السموات والأرض ، ولادرك به من التفرقة ما يضطر معه الى المعرفة بما به ظهرت الأشياء .

ولكن لمـــا تساوت الأشياء كلها على نمط واحـــد فى الشهادة على وحدانية خالقها ارتفع التفريق . وخفى الطريق .

اذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالاضداد فما لا ضد له وتغير له تتشابه

الأحوال فى الشهادة نه فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشده جلائه والغفلة عنه لاشراق ضيائه . فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنه لاشراق نوره .

وربما لم يفهم أيضا كنه هـذا الكلام بعض القاصرين فيفهم من قولنا « ان الله مع كل شيء كالنور مع الأشياء » .

انه فى كل مكان تعالى وتقـدس عن النسبة الى المكان بل لعل الابعـد عن اثارة هـذا الخيال أن نقول انه قبل كل شيء وانه فوق كل شيء وانه مظهر كل شيء ..

والمظهر لا يفارق المظهر فى معرفة صاحب البصيرة فهو الذى نعنى بقولنا انه مع كل شيء ثم لا يخفى عليك أيضا أن المظهر قبل المظهر وفوقه مع أنه معه بوجه : لكنه معه بوجه وقبله بوجه — فلا تظنن أنه متناقض واعتبر بالمحسوسات التى هى درجتك فى العرفان . وانظر كيف تكون حركة اليد مـع حركة ظل اليد وقبلها أيضا . ومن لم يتسع صدره لمعرفة هـذا فليهجر هـذا النمط من العلم .

فلكل علم رجال وكل ميسر لمـا خلق له .

ثانيا — هل أوجـد الغزالى حلا منطقيا لمحنة الشك يصح أن يكون حـلا نموذجيا للتفـكير ؟

الجـواب : لا .

عجز الغزالى عن ايجاد حل لمحنته كما عجز منطقه ، وأما ما ذكره من حـل فهو حل شخصى يصح أن يكون له ولا يتأتى لغيره . خرج بنور قـذفه الله ؟ ، فاذا لم يقـذفه الله .... فما الحل ؟ فكأن الغزالى أوتى اليقين عندما عجز العقل عن الوصول الى ما يهدف اليه وهل بقى فى شك من المحسوسات والعقليات ؟

ذلك النور كان شافيا لسورته الشكية الى أن « أصبحت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها فى أمن ويقين » (ص ١٣٠) ، فهو قد رضى عن العقل — وان ثبت عجزه ورضى به عن طريق الحاكم الآخر الذى بشرنا به — ولم يتخل عنـه بل خاض به فى علوم القوم بعـد ما تبين له أن الحق لا يعـدو هـذه الأصناف الأربعـة :

١ ـ علم الكلام .
٢ ـ الفلسفة .
٣ ـ الباطنية .
٤ ـ الصوفية .

أثبت عجز تلك العلوم عن معرفة الحقيقة اذ الحقيقة ليست نمطا من الجدل أو كسيرة فى بيت التقليد والغزالى وان أعطى اليقين من النور الالهى فاننا لا نشك فى أن الغزالى دخل مع المذاهب بعقله ليناقش قدرة العقل على البحث ومدى قدرته على اليقين ... الخ .

وأما الحسيات فسكت عنها وربما سكت عنها لاشارته السابقة أنه لابد للتأكد منها اعتماد التجربة والملاحظة لاحكامها .

ثالثاً ـ ما الجديد الذى وصل اليه ؟

بقيت ملاحظة وهى أن الغزالى جاهد الفلاسفة ، وسفه آراءهم ، وقلل من قيمة علم الكلام ، ثم فى النهاية كما يدل عليه الواقع أن مارغب فيه هو ما نشأ عليه وحرر لذلك الأدلة على طريقة ما ثار عليه ، فلم تلك الثورة ؟ .

١ ـ الحق أن هذا منطق جميع الفلاسفة بلا استثناء فليس الغزالى بدعا فى ذلك فلا يصح أن نأخذ ذلك عيبا عليه (١٤) ومثل ذلك نجده أيضا يوجه الى ديكارت . وأما تلك الثورة الشكية فكانت تحسسا لآكد الطرق توصلا الى اليقين .. على أننا فى الواقع لا نصطفى من الحقائق الا ما يعزز رغبتنا .

فالغزالى وديكارت يرفضان بشكيهما فى الثابت المقرر (التقليد) فى هذا الثبوت والتقرير ، أما بعد امتحان ذلك كله بالعقل والوضوح عند ديكارت وبالبصيرة الكاشفة عند الغزالى فان الأمر يصبح غير ما كان عليه .

٢ ـ أنه أراد أن يعرف لماذا هو مؤمن رضاء نفسه الباحثة فى شىء من جهد وهل معنى ذلك أنه شك حبا فى الشك ؟ لا نستطيع أن نجزم بذلك ولكننا نقول انها فترة انتقال أو تقرير مصير تلم بالافراد كما تلم بالأمم .

والفرق بين المتشكك وغيره من العلماء أن المتشكك يقـدم ما يثبت لديه فى حيوية وفى قـوة نابضة بالايمان •

رابعا ـ بين ديكارت والغزالى :

انتهى ديكارت فى فلسفته الشكية بقوله : انا أفكر اذن أنا موجود ••• أراد ديكارت أن يقيم صرح فلسفته بعبارة بسيطة تكاد تبلغ السذاجة هى :

أنا افـكر اذن أنا موجـود

ذلك أن ديكارت كان يريد أن يبدأ فلسفته بأقل ما يمكن من الافتراضات فامتحن بالشك المنهجي جميع اعتقادات النـاس بل وبديهاتهم وحاول أن يبنى مذهبا متماسكا للمعرفة من هـذه المقدمة الوحيدة (أنا أفكر اذن انا موجود) وقـد كان من الخطر العظيم أن يجعل الوجود معتمدا هـذا الاعتماد على الفكر وأجمعت العقول على أن هـذا الأساس يجعل الوجود امتيازا ارستقراطيا • ديكارت تشكك فى وجوده ثم وثق من وجوده بأنه يفكر بالرغم من غموض العبارة ومع ذلك اقتنع تماما بوجوده ، فنحن نعلم أن النائم قـد ترد عليه مثل تلك العبارة وقـد توحى اليه أيضا بأنه موجود ، لكن أى وجود أراده ديكارت وجود النائم أو اليقظان ، ثم أى وجود أثبته ديكارت وجـود الفكر ، أو وجـود المـادة ، أو وجـودهما معا •

الغزالى تفادى هـذه النقطة لانه كان واثقا تماما من وجوده والذى جعله يتشكك شعوره بأنه انسان يفكر فى معارف عصره المتناقضة •

كل من الغزالى وديكارت يلتقيان حـول نقطة هى : أن الذى وهب الغزالى الثقة والايمان : الله بالنور الذى قـذفه ، والذى وهب ديكارت الثقة بالعقل ـ الله الكامل لانه لا يمكن أن يهب عقلا مضللا ـ بيد أن الغزالى لم يكن فيلسوفا محترفا ، أما هـذه الصفة فلازمت ديكارت •

ديكارت استطاع أن يأخـذ من البرهنة الرياضية دليلا على قـدرة العقل للوصول الى الميتافيزيقا • فالميتافيزيقا فى نظره فكرة عقلية يمكن البرهنة عليهـا بالعقل ولكن الغزالى ذهب الى نقيض تلك النتيجة وهى أن ما وراء الطبيعة هـو من اختصاص الدين يؤتى عن المعرفة الالهية •

خامسا — اضطراب الغزالى :

قضية الاضطراب هـذه قـد أخـذها عليه كثير من العلماء وهـذه القضية اعترف بها الغزالى نفسه وألف لها سفرا تناول فيه حياته النفسية والعلمية والعقلية ، وفترات الاضطراب وأسبابها وكتاب المنقـذ هـذا هـو ذا السفر الذى أرخ فيه لحياته النفسية والعقلية ومدى اضطرابها ، فاذا كان واقع الكتاب يشير الى هـذا فانه لا شك فى أن الغزالى كانت له آراء مبثوثة فى كتبه ، مضطربة تارة متناقضة أخرى به وسقيمة لا تبلغ الذروة التى اعتدنا أن نراه متربعا عليها ؛ فمثل هـذه الآراء لا يصح أن نقول عنها انها مدخولة عليه بل نقول انها أثر من آثار الاضطراب النفسى بل وجودها مما يؤكد مدى أثر هـذه السورات النفسية عليه فى فترة ما ، فالاضطراب ليس عيبا على الغزالى ما دام أنه أخـذه على نفسه وخلص من اضطرابه وغـدا له طابعا خاصا محمودا لا يشوبه قلق النفس ومجـادلة العقـل •

فلقـد اصطفى الدين كوثرا يعب منه حياء للاحياء ، فأخـذ الاضطراب عنيه ليس عيبا على الغزالى ، وليس بالشىء الخفى فى حياته ، وانما العيب فى القضية اهتمامنا بفترة ما فى حياة الغزالى نجعلها ميزانا لآراء الغزالى لنخلص بأن آراءه لبس لها ثقل لاضطرابها ، فلا يصح أن نجعل فترة ما ميزانا ، واذا انتـاب الاضطراب الامام الغزالى فى بعض مراحل حياته الفكرية والنفسية فـلا نراه عاما فى جميع مناحى الفكر ، بل كان الاضطراب فى جانب من جوانب المعرفـة العقلية والفلسفية •

أما فى الجانب الدينى ، فكنا نراه أبدا سديد الرأى تجاه الدين ، ومرد ذلك أن مرحلة الاضطراب التى غشيته ألزمته الصمت تجاه الدين قـد يكون ذلك ورعا أو تحرجا أو غير ذلك من المعاذير ، المهم أن الغزالى لم يعهد منه اضطراب فى الأصول الدينية كذلك لم يؤثر عنه • والحق أن الغزالى كان معتدلا فلم يعهد منه مع سعة ثقافته التأويل التعسفى للقرآن والسنة • كذلك لم نر فى تصوفه واهتمامه للوصول الى مرتبة الاشراق مزاحمة للنبوة أو اتجاها ينم عن دعوة مخالفة لتعاليم الإسلام فى ظاهرها أو باطنها ، أو استعمال مصطلح من مصطلحات المتصـوفة

التى يأخذها عليه الاغرار من العلماء ، فلم ينشدق بوحدة الوجود أو الشهود ، أو اختار تفسيرا رمزيا يتقاعـد دونه الباحث ولا وجـدناه يشيد حقيقة مقدسة هى فى ظاهرها أو باطنها غير حقيقة الاسلام •

كيف ينشد حقيقة مقـدسة غير الاسلام وهو الذى وقر فى قلبه أن الحقيقة المقـدسة هى احياء الدين وعلومه وقرت به عيناه •

عالمية الحقيقة وأصولها الدينية

١ ــ المنهج الاسلامى :

هناك أشياء اعترف الاسلام بها وحملنا على الاعتراف بها أيضا وشـدد حـذره على من ينكرها •

● اعترف الاسلام بالمسيحية ــ كدين سابق ــ جاء لفترة من الزمن ثم نسخها الاسلام باشتماله على مبادىء منها قررها الوحى •

● اعترف الاسلام باليهودية ــ كدين الهى ساد جماعة حينا من الزمن ــ ثم نسخها الاسلام باشتماله على مبادىء منها قررها الوحى •

● كما اعترف الاسلام بكل الأديان السماوية التى سبقته من حيث المبدأ •

● واعترف الاسلام أيضا بالمبادىء الصالحة التى جاء وأهلها عاكفـون عليها متى أقرها الرسول •

● كذلك اعترف الاسلام ببعض الطبائع الانسانية الصالحة عليها وأشار الى أهميتها مثل الأحاديث الدالة على الحياء والطبائع التى تبعث على السلوك الفاضل • هـذه الاعترافات قـد ترمى الى حقيقة واضحة وهى صلة الاسلام بالحياة الواقعة ، وان ما تقـدمه يعتبر حركات تمهيدية أو ارهاصات تدل على فطرة الاسلام وأن الانسانية ترتبط بمبادى الهية صالحة •

فاذا كان ذلك أسلوب الاسلام مع الشرائع السابقة فليس لنا أن ننظر بعين

التعصب . فان نظرنا بعين التعصب الذميم فقد دل الاسلام بنظرته واعترافاته على سماحة لا تشوبها الا نظرة خسيسة من الانسان .

فالأديان السماوية فى جميع مراحلها على مر العصور قد جاءت لهدف واحد .. وفاضت من منبع واحد .
فان تواتر الينا التاريخ حاملا تناقضا فى الأفكار ، واختلافا فى المذاهب الانسانية ، وأن الفكرة اللاحقة بنيت على أطلال فكرة سابقة وهكذا فان الانسان سبب هذا التناقض .

وان حدثنا التاريخ فى تواتره أن الأديان وحدة لا تتجزأ فان التعصب حدثنا عن الانسان .

أشار الى تلك الوحدة انجيل متى فى الاصحاح الخامس فقال :

« لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل . فان الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل »(١٧) .

كذلك أشار القرآن الى ذلك فقال : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب** »(١٨) .

ليت للانسان تعلم هذه النظرة فلو تعلمها لاستطاع أن يؤمن بالدين ككل .

فالاسلام دين صالح يجتذب اليه كل صالح من الشرائع السابقة وليس فى ذلك من معابة كما ليس فى ذلك دليل على بشريته أى أنه من وضع البشر . وانى لا أرهقك على تتبع الدليل سوى أن تتصفح القرآن لتعلم أنه وضع الهى .

فالاسلام جاء نظاما يستهدف الكمال البشرى وينظم السلوك الانسانى لذلك جعل من مبادئه الاعتراف بكل جهود خدمت الانسان ورافقته فى جميع أطواره .

فليس الاسلام الذى نزل على الرسول هو الدين الأول انما هو الحلقة

خيرة الباقية وختم مرحلة لازمت الانسان فلا جرم أن تكون شرائعه :

* اما مؤكدة لبقايا صالحة من شرائع خلت وأقرها الوحى .

* واما مؤسسة لشريعة احتاج اليها الانسان .

اذا كان هـذا هـو المنهج الاسلامى . فيمكن لنا أن نستخلص :

أن الاسلام دين بارك للانسانية رشدها فاصطفاها بالوحى الخالد وارتقى بها فحباها بالاجتهاد .

٢ — منهج الغزالى :

قال الرسـول :

١ — الحكمة ضالة المؤمن أنى وجـدها أخـذها .

٢ — وقالوا فى تعريف حـديث الرسول : كل ما أثر عن الرسول قولا أو تقريرا ، فجعلوا تقرير الرسول لمن قبله عملا حسنا ، فالتقرير : رضا من الرسول لبعض الحقائق التى كانت قبل نزول الوحى عليه .

٣ — وقول الرسول عن شعر أمية بن أبى الصلت الشاعر الجاهلى : « لقد قرب ، آمن لسانه وكفر قلبه » . فلقـد قرر الرسول عالمية الحقيقة والهيتها ، أما كون هـذه الحقيقة عملا فلسفيا عقليا أو اشراقات صوفية — أخـذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم — فلا يعنينا تحقيق هـذا .

٤ — الغزالى يرجح أنها وحى الهى واشراقات صوفية فيقول : « وانمـا أخـذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم المـأثورة عن سـلف الأنبياء » ويقول فى نص آخر : « وانما أخـذوها من الصوفية ، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق الى الله بالاعراض عن ملاذ الدنيـا ، وقـد انكشفت لهم من مجاهدتهم أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها وصوابها .

فأخـذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلا بالتجمل الى ترويج باطلهم

ثم يقول فى مكان آخر كعلم الطب والنجوم ، فان من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا تدرك الا بالهام الهى وتوفيق من جهة الله ولا سبيل اليها بالتجربة .

هــذا أصل الحقيقة فى نظر الغزالى ، وهو ليس على صواب مطلقا ، وعلى كل فوجهة الصواب معقولة وأيا ما كان ، فالحقيقة أو الحكمة عمل دينى ، عشقها العقل وأخــذ بها ، ومال اليها ، فأخــذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم فهل تترك لاستيلاء الفلاسفة عليها ، فاذا شوهها الفلاسفة فلماذا لا نأخــذها لنعيد اليها رواءها من جــديد ؟ .

مثل هــذه الأسئلة أثارها الغزالى حينما رأى موقف أهل السنة القــدماء من اعراضهم عن كتب الفلاسفة ومهاجمتها كل المهاجمة ، وتحريمها تحريما لا هوادة فيه فأخــذ الغزالى يحلل هــذه المواقف فوجــدها أبعــد ما تكون عن الصواب وهو فى تحليلة وجــد الباعث عليها أمرين :

الأمر الأول : الكسل العقلى .

الأمر الثانى : توهم الكفر وراءها .

فمن ناحية الكسل العقلى : فان المبتعد يكون قــد ترك بعض الحقائق الالهية المبثوثة فى مثل تلك الكتب ترويجا لباطلهم فيجب العــلم بهــا حتى يستطيع مناقشتهم وتزييف باطلهم وتخليص الحكمة منه . أما ما شاع من أنها طريق الى الكفر ان لم تكن هى الكفر فيقول الغزالى :

ونظرت الى أسباب فتور الخلق وضعف ايمانهم ، فاذا هى أربعة :

١ ـــ سبب من الخائضين فى علم الفلسفة .

٢ ـــ سبب من الخائضين فى طريق التصوف .

٣ ـــ سبب من المنتمين الى دعوى التعليم .

٤ ـــ سبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

فليست الفلسفة وحــدها هى التى تورث الكفر ، لذلك رسم منهجا فى الكشف عن الحقيقة والباطل منها فيقول :

فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان :

١ ــ آفــة فى حــق القابل •

٢ ــ آفــة فى حــق الراد •

١ ــ أما الآفة التى فى حــق الراد فعظيمة ، اذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام اذا كان مدونا فى كتبهم ، وممزوجا بباطلهم ينبغى أن يهجر ولا يذكر ، بل ينكر على كل من يذكره اذا لم يسمعوه أولا الا منهم فسبق الى عقــــولهم الضعيفة أنه باطل ، لان قائله مبطل كالذى يسمع النصرانى يقول : « لا اله الا الله عيسى رسول » فينكره ويقول : هــذا كلام نصرانى ، ولا يتوقف ريثمــا أن النصرانى كافر باعتبار هــذا القول ، أو باعتبار انكاره نبوة محمد ــ عليــه السلام ــ فان لم يكن كافرا الا باعتبار انكاره فلا ينبغى أن يخالف فى غير ما هو به كافر مما هــو حق فى نفسه وان كان أيضا حقا عنده ، هــذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق •

والعاقل يهتدى بقول أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » رضى الله عنــه حيث قال : « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق تعرف أهله » •

والعاقل يعرف الحق ثم ينظر فى نفس القول ، فان كان حقا قبله سواء أكان قائله مبطلا أو محقا ، بل ربما كان قائله حريصا على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال عالمــا بأن معــدن الذهب الرغام ، ولا بأس على الصراف اذا أدخل يده فى كيس القلاب وانتزع الابريز الخالص من الزيف البهرج مهما كان واثقــا ببصيرته ، وانما يزجر عن معاملة القلاب القروى دون الصيرفى البصير ويمتنع من ساحل البحر الأخرق دون السباح الحاذق ويصد عن مس الحية الصبى دون المعزم البـــارع •

ولعمرى لمــا غلب أكثر الخلق ظنهم بأنفسهم الحــذاقة والبراعة وكمال العقل فى تمييز الحق عن الباطل والهــدى عن الضلالة وجب حسم الباب فى زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن ، إذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التى سنذكرها وان سلموا عن الآفــة التى ذكرناها •

ولقــد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة فى تصانيفنا فى أسرار العــلوم

الدين طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سرائرهم ، ولم تتفتح الى اقصى غايات المذاهب بصائرهم ، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام « الأوائل »(١٨) مع أن بعضها من مولدات الخواطر ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر ، وبعضها يوجـد فى الكتب الشرعية ، وأكثرها موجود معناه فى كتب الصوفية • وهب أنها لم توجد الا فى كتبهم ، فاذا كان ذلك الكلام معقولا فى نفسه مؤيدا بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلم ينبغى أن يهجر أو ينكر •

فلو فتحنا هـذا الباب وتطرقنا الى أن نهجر كل حق سبق اليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية ، لان صاحب كتاب « اخوان الصفا » أوردها فى كتابه مستشهدا بها ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها الى باطله ويتداعى ذلك الى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا ، بايداعهم اياه فى كتبهم • وأقل درجات العالم أن يتميز عن العامى النمر فـلا يعاف العسل وان وجـد فى محجمة الحجام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل فان نفرة الطبع منه مبنية على جهل عامى منشؤه أن المحجمة انما صنعت للدم المستقذر فيظن أن الدم مستقذر لكونه فى المحجمة ، ويدرى أنه مستقذر فى ذاته ، فاذا عدمت هـذه الصفة فى العسل فكونه فى ظرفه لا يكسبه تلك الصفة فلا ينبغى أن يوجب له الاستقذار وهـذا وهم باطـل ، وهـو غالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبت الكلام وأسندته الى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وان كان باطلا وأن أسندته الى من ساء فيه اعتقادهم ردوه ، وان كان حقا فأبدا يعرفون الحـق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحـق ، وهـو غاية الضلالة •••• هـذه آفـه الرد •

٢ ــ آفة القبول : فان من نظر فى كتبهم « كاخوان الصفا » وغيرهم ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، وما استحسنها وقبلها وحسن اعتقاده فيها فيسارع الى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه وذلك نوع استدراج الى الباطل ، ولأجـل هـذه الآفـة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لمـا فيها من الغـدر والخطر ، وكما يجب صـون من لا يحسن السباحة عن مزاق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب •

وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات يجب صون الاسماع عن مختلط تلك الكلمات ، وكما يجب على المعزوم الا يمس الحية بين يدى ولده الطفل ، اذا

ـنم أنه سيقتدى به . ويظن انه مثله بل يجب عليه أن يحـــذر هو نفسه ولا يمسه بين يديه » فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله » •

وكما أن المعزوم الحاذق اذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسم ، فاستخرج منها الترياق وأبطل السم ، فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج اليه ، وكذلك الصراف الناقد البصير اذا أدخـل يده في كيس القـلاب وأخرج منه الابريز الخالص ، واطرح الزيف والبهرج ، فليس له أن يشح بالجيد المرضى على من يحتاج اليه ، كذلك العالم •

وكما أن المحتاج الي الترياق اذا اشمأزت نفسه منه ، حيث علم أنه مستخرج من الحية التى هى مركز السم ، وجب تعريفه •

والفقير المضطر الى المـال اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب وجب تنبيهه على أن نفرته جهل محض ، وهو سبب حرمانه من الفائدة التى هى مطلبه ، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زائفـا ، كما لا يجعل الزيف جيدا ، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الحق باطلا كما لا يجعل الباطل حقا •

بعـد هـذه الملاحظات التى أثبتها الغزالى يتأكد لنا :

١ ـ أن الغزالى كان واسع الثقافة يحب الاستفادة والمزيد من الثقافات •

٢ ـ وكان لا يحب تزمت أهـل السنة القـدماء فى موقفهم من تراث الأوائـل •

٣ ـ الحقيقة ارث شرعى لكل باحث عنها •

٤ ـ يعتبر الغزالى أنه رد على كل تهمة وجهت اليه قـديما ، وحـديثا ، حـول تأثره بالثقافات القـديمة وأحـدث هـذه التهم ما أثاره الدكتـور عبد الرحمن بدوى فى مقـدمة رسائل ابن سبعين : هل الغزالى تأثر باخـوان الصـفا ؟ •

٥ ـ فالاستفادة من التراث ليست منقصة اذن ـ بل الثقافة طريق طبيعى لكل تطور انسانى وكان أهم ما يلفت النظر فى منهجه هـو ابرازه الآفات التى تصاحب الباحث عن الحقيقة • رده ، قبوله منهجه الواضح •

الباب الثانى

سلطة العقل فى دائرة اختصاصه

- الغزالى والتراث البشرى .
- الغزالى وعلم الكلام .
- الغزالى والفلسفة .

الغزالى والتراث البشرى

مما سبق رأينا أن العقلية الاسلامية تميزت بالحيوية والنشاط الفكرى فرأينا ألوانا شتى فى الاتجاهات •

● فهناك اتجاه تحمل عبء النقل وشرحه ، وتهيئة الأذهان للتراث الوافد رغبة منه فى توسيع دائرة الثقافة الفكرية الاسلامية مثل الكندي والفارابى بغض النظر عن مواقف ابداعية •

● وهناك الاتجاه الرافض على يد التيار الصوفى (اللاعقلى) الذين يرون كما يقول الغزالى :

« ان معرفة الأشياء على ما هى عليه ، وادراك الأسرار التى يترجمها ظاهر ألفاظ هـذه العقيدة ، فلا مفتح له الا المجاهـدة والاقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافى عن شوائب المجادلات » •

لهـذا راى ذلك الاتجاه رفض وسائل العقل •

● وهناك الفقهاء وعلماء الكلام (العقلى النقلى) •

فعلماء أصول الدين وضحوا علاقة العقل بالعقيدة ؛ وعلماء أصول الفقـه وضحوا علاقة العقل بالشريعة هـذه الاتجاهات على تباينها تعطى صورة عن الحركة الثقافية فى الحقل الاسلامى ، وعن الآثار التى اصطبغ بها العقـل الاسـلامى •

فمن أثر ظهر باسم التوفيق بين الفلسفة والدين ، ومن أثر ظهر فى محاولاته بث الفلسفة فى علم الكلام ، ومن أثر محاولات انتحال اصطلاحات دينية لعلوم الأوائل مثل : الصراط المستقيم ، أو معيار العلم أو محك النظر بدل المنطق من خلال تلك المواقف سوف نرى موقف الغزالى من التراث البشرى :

بحث الغزالى عن اليقين فى الحواس ومدى قـدرتها على اليقين والعقـل ومدى قـدرته على اليقين .

واذا كان العقل فى حـد ذاته مسألة لا تستطيع مناقشته الا من خـلال ما أنتج وما أثمر من مناهج العلوم العقلية . لذا رأى أن يبحث عن اليقين فى التراث البشرى وقـدم محاولاته الجبارة هـذه المحاولات تعتبر الدور التطبيقى فى اختباراته لهـذه المناهج فى مدى قـدرتها على معالجة المشكلة التى برزت أمامه وهى : اليقين وصلته بالعقل ، وتلك رحلة سنرافقه فيها .

لاحظ الغزالى أن التراث الاسلامى وغير الاسلامى يحتاج الى نظرة انصاف وعـدالة فى النقـد ، ورحابة فى قبوله بناء على أن الحقيقة فى نظره عالميـة ، وأنها بهـذا تعتبر ارثا مشروعا يهبها الله لمن يشاء ، أى سواء أكان من وضـع المفكرين الاسلاميين ـــ فان هذا لا يعفيه من النقد والتقويم والرفض فى بعض الأحيان ـــ أم كان من وضع غير الاسلاميين فان هـذا لا يكون مسوغا لرفض الغزالى له ، ويمنعه من النظر اليه بل كونه من غير الاسلاميين كان من أكبر الدواعى لشد همة الغزالى اليه بحثا ودرسا . من هنا بدأ الغزالى يحـدد قيمة التراث فى مدى وصوله الى الحقيقة ، فأقبل على تراث الأوائل وقسمه أقساما معقولة سنقف عليها بعـد ، فمن هـذه الأقسام الفلسفة ـــ لاحظ أن الفلسفة ليست علما برأسها ـــ وفى أقسام الفلسفة الالهية التى أطال النظر فيها سنرى أن الغزالى عندما يرفض الفلسفة لا يرفضها لكونها ثمرة غير اسلامية وانما رفضها لأنهـا لا تؤدى الى اليقين .

كذلك رآها مجموعة آراء بنيت على غير قاعدة وتاريخها مبنى على ذلك فكل فيلسوف معنى بنقـد سابقه كذلك لا يقصد الغزالى العقل من وراء ذلك ، فعندما يقول مثلا « تهافت الفلاسفة » فى « مقاصـد الفلاسفة » كان لا يعنى العقـل الانسانى بكل تأكيد مطلقا انما كان يعنى من التهافت جانبا معينا يمثل ناحية من نواحى العقل . يقول السيد صلاح الدين السلجوقى مشيرا الى أنه لا يعنى هدم الفلسفة أيضا ولكنه أراد أن يحـدد موضوعها ، اذ أننا فى عرفنا الخاص (لا فى علم الحقيقة) سمينا بالفلاسفة الذين اتبعوا مكتب المشائين فى اليونان فى العالم الاسلامى حـواريين ومقلدين لهـذا المكتب ، فكل رد أو نقـد متوجه الى هـذا المكتب يحسب ردا أو نقـدا للفلسفة والفلاسفة .

مع أن الغزالى لم يحارب الفلاسفة حربا حامية الا فى ثلاث مسائل :

الأولى : قـــدم العالم وقـــدم الجواهر •

الثانية : فى أن الله لا يحيط علما بالجزئيات •

الثالثة : أفكارهم فى « البعث والحشر » •

بالطبع اذا ما شك فى العقل والحواس فلابد أن يتشكك فى التراث الانسانى لأنه ليس الا أثرا من آثار العقل والحواس ، وصورة جهاد الانسانية عن الحقيقه فى تاريخها الطويل ، وكذلك ومما يزيد الأمر قـــوة وجـــدية فى نفس الوقت ان اليقين عند الغزالى لم يكن وحيا من هـــذا التراث بل كان الهاما باطنيا •

اذن ما قيمة هـــذا التراث ؟ الحق أن الغزالى أثار مشكلة طريفة ممتعة ، كثيرا ما كان يشير اليها فى عمق وثقة فى قانون السببية والتخلف هى : هل يلزم من النار الاحراق ؟ هل يلزم من الشرب الرى ! هل يلزم من السكين القطع ! هل يلزم من البحث اليقين ! • فقـــدرة العقل على البحث العلمى شىء واليقين شىء آخر • قـــد يكون ثمة بحث ولا يقين ، وقـــد يكون ثمة يقين من غير بحث ، وقـــد يكون الاثنان معا لكن فى هـــذه الحالة هل احـــداهما علة للأخرى ؟ ذلك ما ينكره الغزالى كما سبق فى تجربته •

واتخذ الغزالى من تجربته مثلا على ذلك حيث أسند اليقين الى نور الهى دون البحث والنظر كما سبق فى الشك ، فالتراث يدل على قـــدرة العقل على البحث ، وفى نفس الوقت يؤكد أن هـــذا التراث هـــو محاولات الانسان الى طريق اليقين ، فراح يجرب تلك القـــدرة على محك النظر مع علم الكلام مـــع الفلاسفة الصوفية وسنرى نجاح التجربة •

من التراث الاســلامى علم الكلام علاقته باليقين

الغزالى خرج من شكه بنور قذفه الله ولكن قبل أن يقذف الله بنوره كان الغزالى عارضا رمحه فى ميدان البحث العلمى بعــد ما ظهر له أن الحق لا يعــدو الأصناف الأربعة :

١ ــ علم الكلام .

٢ ــ الباطنيــة .

٣ ــ الفلســفة .

٤ ــ التصــوف .

فابتدأ بعلم الكلام قراءة وتدريسا ثم انتهى الى أنه علم لا يهدى الى الحق المجرد ولكن قبل أن ندون رأى الامام الغزالى نذكر رأى من قبله .

أولا ــ الفــارابى :

فى تحــديده لقيمة علم الكلام قال :

« صناعة الكلام يقتدر بها الانسان على نصرة الآراء والأفعال المحــدودة التى صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل ، وأما الوجوه والآراء التى ينبغى أن تنصر الملل : فان قوما من المتكلمين يرون أن ينصروا الملل بأن يقولوا : ان آراء الملل وكل ما فيها من الأوضاع ليس سبيلها أن يمتحن بالآراء والروية والعقول الانسية لانها أرفع رتبة منها اذ كانت مأخوذة عن وحى الهى لأن فيها أسرارا الهية تضعف عن ادراكها العقول الانسية ولا تبلغها » .

« وأيضا فالانسان انما سبيله أن تفيده الملل بالوحى ما شأنه ألا يدركه بعقله وما يخور عقله عنه ، والا فلا معنى للوحى ولا فائدة اذا كان انما يفيد الانسان ما كان يعلمــه ما يمكن اذا تأمله أن يدركه بعقله ، ولو كان كذلك أوكل النــاس الى عقولهم ولمــا كانت بهم حاجة الى نبوة ولا الى وحى ، لكن لم يفعل بهم ذلك فلذلك ينبغى أن يكون ما تفيده الملل من العلوم ما ليس فى طاقة عقولنا ادراكه ثم ليس هذا فقط بل وما تستنكره عقولنا أيضا فانه ليس كل ما كان أشد استنكارا عندنا كان أبلغ فى أن يكون أكثر فوائد ، وذلك أن التى يأتى بها الملك مما تستنكره

العقول وتستبشعه الأوهام ليست هي بالحقيقة منكرة ولا محالة بل هي صحيحة فى العقول الالهية فان الانسان وان بلغ نهاية الكمال فى الانسانية فان عند ذوى العقول الالهيـــة منزلة الصبى والحـــدث والغمر عنـــد الانسان الكامل ، وكما ان كثيرا من الصبيان والأغمار يستنكرون بعقولهم أشياء كثيرة مما ليست فى الحقيقة منكرة ولا غير ممكنة ويقـــع لهؤلاء أنها غير ممكنة فكذلك منزلة من هـــو فى نهاية كمال العقل الانسى عند العقول الالهية •

وكما أن الانسان من قبل أن يتأدب ويتحنك يستنكر أشياء كثيرة ويستبشعها ويخيل اليه فيها أنها محـــالة ، فاذا تأدب بالعلوم واحتنك بالتجارب زالت عنـــه تلك الظنون فيها وانجلت الأشياء التى كانت عنده محالة فصارت هى الواجهة ، وصار عنده ما كان يتعجب منه قـــديما فى حـــد ما يتعجب من ضـــده ، كذلك الانسان الكامل الانسانية لا يمتنع من أن يكون يستنكر أشياء ويخيل اليه أنها غير ممكنة من غير أن تكون فى الحقيقة كذلك •

أولا — فلهـــذه الأشياء رأى هؤلاء أن يحيل تصحيح الملل فان الذى أتانا بالوحى من عند الله جل ذكره صادق ، ولا يجوز أن يكون قـــد كذب • ويصـــح أنه كذلك من أحـــد وجهين :

١ — اما بالمعجزات التى يفعلها أو تظهر على يده •

٢ — واما بشهادات من قبله من الصادقين المقبولى الأقاويل على صـــدق هـــذا ومكانه من الله عز وجل أو بهما جميعا •

فاذا صححنا صدقه بهـــذه الوجوه ، وأنه لا يجوز أن يكون قـــد كذب فليس ينبغى أن يتفق بعـــد ذلك فى الأشياء التى هو لهـــا مجال للعقول وتأمل ، ولا روية ، ولا نظر • فبهـــذه الأشياء وما شابهها رأى هؤلاء أن ينصروا الملل •

ثانيا — وقوم آخرون منهم يرون أن ينصروا أولا جميع ما صرح به واضع الملة بالألفاظ التى عبر عنها ثم يتتبعون المحسوسات والمشهورات والمعقولات ، فما وجـــدوا منها أو من اللوازم عنها وان بعـــد ، شاهدا لشىء مما فى الملة نصروا به ذلك الشىء ، وما وجـــدوا منها مناقضا لشىء مما فى الملة وأمكنهم ان يتأولوا اللفظ الذى به عبر عنه واضع الملة على وجه موافق لذلك المناقض — ولو تأويلا بعيدا —

تأولوه عليه • وان لم يمكنهم ذلك وأمكن أن يزيف ذلك المناقض أو أن يحملوه على وجه يوافق ما فى الملة فعلوه ؛ فان تضاد المشهورات والمحسوسات فى الشهادة مثل أن تكون المحسوسات أو اللوازم عنها توجب شيئا والمشهورات أو اللوازم عنها توجب ضد ذلك نظر الى أقواهما شهادة لما فى الملة فأخذوه واطرحوا الآخر وزيفوه •

فان لم يمكن أن تحمل لفظة الملة على ما يوافق أحد هذه ولا أن يحمل شيء من هذه على ما يوافق الملة ولم يمكن أن يطرح ولا أن يزيف شيء من المحسوسات ولا من المشهورات ولا من المعقولات التى تضاد شيئا منها ، رأوا حينئذ أن ينصروا ذلك الشيء بأن يقال انه حق لأنه أخبر به من لا يجوز أن يكون قد كذب ولا خلط ، ويقول هؤلاء فى هذا الجزء فى الملة بما قاله أولئك الأولون فى حقه جميعا •

فبهذا الوجه رأى هؤلاء أن ينصروا الملل •••

ثالثا — وقوم من هؤلاء رأوا أن ينصروا أمثال هذه الأشياء يعنى التى يخيل فيها أنها شنيعة بأن يتبعوا سائر الملل فيلتقطوا الأشياء الشنيعة التى فيها ، فاذا أراد الواحد من أهل تلك الملل تقبيح شيء مما فى ملة هؤلاء تلقاه هؤلاء بما فى ملة أولئك من الأشياء الشنيعة فدفعوه بذلك عن ملتهم •

رابعا — وآخرون منهم لما رأوا الأقاويل التى يأتون بها فى نصرة أمثال هذه أشياء ليست فيها كفاية فى أن تصح بها تلك الأشياء صحة تامة ، حتى يكون سكوت خصمهم لصحتها عنده لا لعجزه عن مقاومتهم فيها بالقول اضطروا عند ذلك الى أن يستعملوا معه الأشياء التى تلجئه الى أن يسكت عن مقولهم اما خجلا وحصرا ، أو خوفا من مكروه يناله •

خامسا — وآخرون لما كانت ملتهم عند أنفسهم صحيحة لا يشكون فى صحتها رأوا أن ينصروها عند غيرهم ، ويحسنوها ويزيلوا الشبهة منها ، ويدفعوا خصومهم عنها بأى شيء اتفق ، ولم يبالوا بأن يستعملوا الكذب والمغالطة والبهت والمكابرة لانهم رأوا أن من يخالف ملتهم أحد رجلين :

١ — اما عدو — والكذب والمغالطة جائز أن يستعمل فى دفعه وفى غلبته كما يكون ذلك فى الجهاد والحرب •

٢ — واما ليس بعــدو — ولكن جهل حظ نفسه من هــذه الملة لضعف عقله وتمييزه وجائز أن يحمل الانسان على حظ نفسه بالكذب والمغالطة كما يفعل ذلك النساء والصبيان(٢) — ذلك رأى الفارابى واجماله فى نقاط تأتى :

أولا — هو علم يدافع عن العقيدة والوحى ، الوحى ليس سبيله العقل •

وصــــدق الوحى يقوم على شيئين :

١ — يقوم على المعجزة التى تظهر على يد مدعى النبوة •

٢ — شــــهادات الصـــادقين •

ثانيا — ذلك يستدعى الايمان أولا بالبحث والنظر • ويتبع ا دفاع وجوها :

تتبع : المحسوسات — والمشهورات — والمعقولات • فما وافقهم نصروا به ملتهم وهو عندهم حجة ، ومن لم يوافقهم تأولوا له أوزيفوه وذلك عندهم شبهة وأن كانت أقوى من الحجة • أو اذا كان خصمهم عنيدا التجأوا الى القوة لدفعه لايمانه • وبالطبع اذا كانوا مؤمنين بالغوا فى الدفاع والمبالغة كذب والكذب جائز •

فهــذا اجمال لرأى الفارابى وهــو فى نفس الوقت يعبر عن غاية علم الكلام ، وهــذا الرأى نسمعه بوضوح عند الغزالى •

ثانيا — الغزالى فى تحــديده لقيمة علم الكلام :

قال : « وصنفت فيه ما أردت أن أصنفت فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودى وانما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة ، فقد القى الله تعالى الى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحــق فيها صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار • ثم ألقى الشيطان

ف وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها .

أنشأ الله طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله . فلقد قامت طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى اليه فأحسنوا الذب عن الوحى المتلقى بالقبول من النبوة والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة . ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم واضطروا الى تسليمها ، اما التقيد أو اجماع الأمة أو مجرد القبول فى القرآن والأخبار وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ، مؤاخذاتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع فى حق لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا .

فلم يكن علم الكلام فى حقى كافيا ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا . نعم لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة تشوق المتكلمون الى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا فى البحث عن الجواهر والاعراض وأحكامها لكن لما لم يكن ذلك مقصود عملهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات من اختلافات الخلق .

ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيرى ، بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولا مشوبا بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات . والغرض الآن حكاية لا الانكار على من استشفى به فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء وكم من دواء ينتفع به المريض ويستضر به آخر .

ثم قال فى كتاب الاحياء :

« وأما منفعته فقد يظن أن فائدته : كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه وهيهات وليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا اذا سمعته من محدث ، أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا » .

فاسمع هــذا ممن خبر الكلام ، ثم غلاه بعــد حقيقة الخبرة وبعــد التغلغل فيه الى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك الى التعمق فى علوم أخرى تناســب الــكلام •

وتحقق أن الطريق الى حقائق المعرفة من هــذا الوجه مسدود •

فهذا رأى الامام الغزالى ومجمله : أنه علم دفاع ونصرة من طائفة مصطفاة انشأها الله للدفاع عن ذلك ، ووجوه النصر هى :

* استخراج مناقضات الخصوم •
* مؤاخــذتهم بلوازم مسلماتهم •

ويقوم ايمانهم على أشياء : التقليد ، أو الاجماع ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار • فهو عند الفارابى كفيلسوف أنه علم لا يبحث عن الحق ، وانما هــو يدافع لمــا يعتقد أنه الحق ، كذلك هــو عند الغزالى علم لا يبحث عن الحق وانما يدافع عما يعتقد أنه الحق • بيد أن الغزالى يريد الحق فكيف يصل اليه — ان علم الكلام لا يساعد على ذلك • ثم قال قولته :

« فاسمع هــذا ممن خبر الكلام ثم غلاه بعــد حقيقة الخبرة وبعــد التغلغل فيه الى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك الى التعمق فى علوم أخرى تتناسب ونوع الكلام ، وتحقق أن الطريق الى حقائق المعرفة من هــذا الوجه مسدود » • فالغزالى لم يهمل علم الكلام عندما نقــده انما حــدد مقصوده فهو آمن بعلم الكلام من وجــه ما أو لهــدف ما •

ولقــد أتينا برأى الفارابى مع الغزالى لنحــدد أن الغزالى فى صيحته كان على حــق ولم يكن يستهدف من وراء ذلك العقل — اذ الفارابى كان فيلسوفا عقليا وان ما قــدمه لعلم الكلام من نقــد هــو فى مضمونه ما سار عليه الغزالى ، فاذا صح أن نقــد الغزالى لعلم الكلام نقــد للعقل كانت هــذه الدعوى ثابتة أيضا للفارابى والفلسفة والعقلية بل والنقــدية •• ولا قائل بذلك •

تعقيب :

بالرغم من ذلك النقـــد ـــ وهو حق ـــ فعلم الكلام أفاد امامنا الغزالى وتظهر هـــذه الافادة من غاية هـــذا العلم : اذ هـــو علم يرد على المبتدعة المشوشين على العقيدة الاسلامية ، فكأنه افترض أن الحق بجانبه ، فما هو هـــذا الحق ؟ وهل علم الكلام يهدى الى هـــذا الحق أولا ؟ ومن هم المبتدعة ؟ وما هو باطلهم ؟ أهم أهل السنة ؟ ، أهم المعتزلة ؟ أهم الكرامية ؟ أهم الباطنية ؟ أهم الفلاسفة أهم الصـــوفية ؟ ٠

كل هـــذه الاستفهامات العريضة شغلت بال الامام الغزالى وعاش فى سوائها وقتا فى فكر عميق ٠٠٠ تبين له أن هـــؤلاء المتكلمين عرفـــوا فن الجـــدل وغاب عنهم موضوعه ! وعرفوا أن هناك خصوما ، ولكن من هم ؟ وأين هم ؟ ٠

وهناك حق الا أنه أى علم الكلام لم يدل بدراساته على مكان الحقيقة سوى أننا رأيناه مدافعا ، وما هى مسائل الابتداع والكفر ٠ ولم يكن ذلك قبل بحثـــا أصيلا يقصد به الحق ولذات الحق سوى أننا رأينا مقالات المكفرين تلحق كل من يخالف فرقة من الفرق فالأشعرية تكفر من عـــداها ولا سيما المعتزلة ، والمعتزلة تكفر من عـــداها ودواليك ، واتخـــذ الحـــديث الذى قيل فيه أنه موضوع وهو « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة الناجية منها واحـــدة » ٠

فكل فرقة تظن أنها الواحدة وكثيرا ما يختلف وينشق طلاب الحقيقة رأيا ومزعما ولكن تلك الاختلافات والانشقاقات لا تولد عـــداوة وبغضا فى العلم ٠ وليس هـــذا الأمر وتلك المحمدة لعلماء المباحث فى الدين ، فاختلافهم وضع حواجز بينهم والدين وبينهم والناس فالاختلافات فى جانب العلم كانت صالحة للعلماء ، أما المباحث الدينية فكانت ضررا على الدين والناس ٠ فعلماء الكلام مثلا يعتبرون مخالفة رأيهم تعرضا للدين ٠ وعـــدم الاخـــذ به ظلما للنفس ، بل ويعدون الشك فى صحته كفرا ونكرانا ، وفى ذلك قسمة ضيزى ، فاذا أباحوا لأنفسهم البحث فى الدين ، واستندوا الى مستند شرعى ، فلم ينكرون على غيرهم ، مع أن المسألة تبدو من حيث المبدأ فى محاولة الاضافات التفسيرية والتحسينات التى تدخل

على الدين مقنعة تحت باب الاجتهاد • ثم أصبحت هـذه المحاولات عبثا وهراء بل انها جارحة مؤلمـة فى ذاتها ولا سيما بعـد أن اختلط مفهوم الخطأ بالخطيئة لدى علمـاء الكلام •

حقيقة ان هـذه المباحث الدينية هى ولا شك طريفة ولكنها بعيدة عن جوهر الدين وكوثره • اذن فالمباحث ليست هى الدين وانمـا تمرد عقلى أما الدين فعاطفة يحيا بها القلب • والقلب غير العقل ، وعلم الكلام غير الدين ، والخلط بين الاثنين خطأ عظيم طالمـا أدى الى نتائج وخيمه أهمها تكفير المخالف •

علم الكلام والفلسفة :

ومن خفيف الملاحظة نود أن نشير الى بعض الفروق بين الفلسفة وعلم الكلام فنقول :

- الفلسفة تبحث عن الحقيقة وسواء أصابها الفيلسوف حقيقة دينية أو غير دينية فهى بحث عن الحقيقة أى حقيقة •
- علم الكلام يدافع عن الحقيقة الدينية •
- فالفيلسوف يبحث أولا ليؤمن ثانيا أو يشك ثالثا •
- والمتكلم يؤمن أولا ثم يبحث ثانيا ويدافع ثالثا •
- أدلة الفيلسوف عقلية بحتة •
- والمتكلم أدلته نقلية ذات صبغة عقلية •
- يعتمد الفيلسوف على المنطق الجـدلى •
- والمتكلم على الاسفار المقـدسة •

- قضايا الفلسفة تسمى الجـــدل العقلى .
- وقضايا علم الكلام تسمى الجـــدل الدينى .

علم الكلام فى النهاية يعمل على تطويع العقل للايمان بالعقيدة الاسلامية وعلى هـــذا يعتبر علم الكلام فلسفة موجهة .

أولا ــ محاولة تحــديد موقفه من الفلسفة :

١ ــ منهجه فى دراسته للفلسفة :

لحاصيلها ــ ما يذم منها ــ وما لا يذم ــ وما يكفر قائله ، وما لا يكفر ــ وما يبدع فيه ، وما لا يبدع ــ وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم فى درج ذلك وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق ــ وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف والبهرج من جمــلة كلامهم •

ثم انى ابتدأت بعــد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته : فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة • واذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقــا •

ولم أر أحــدا من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته الى ذلك ، ولم يكن فى كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بعاقل علمى يدعى دقائق العلوم • فعلمت : أن الرد لمذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى فى عماية •

فشمرت عن ســاق الجــد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ، وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التصــــنيف والتدريس فى العـــــلوم الشرعية وأنا ممنو بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغــداد •

فاطلعنى الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة فى هــذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه ، بعــد فهمه قريبا من سنة ، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره حتى اطلعت على ما فيه من خــداع وتلبيس وتحقيق وتخييل ، اطلاعا لم أشك فيه •

فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم : فانى رأيتهم أصنافا ورأيت علومهم أقساما ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والالحاد وان كان بين القدماء منهم والأقدمين وبين الآواخر منهم والأوائل ؛ تفاوت عظيم فى البعد عن الحق والقرب منه •

٢ — منهجه فى تقسيمه للفلاسفة :

اعلم أنهم — على كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم — ينقسمون الى ثلاثة أقسام :

- الدهريون •
- والطبيعيون •
- والالهيون •

الصنف الأول — الدهريون :

وهم طائفة من الاقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر وزعموا : أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه ، وبلا صانع ولم يزل الحيوان من النطفة ، كذلك كان وكذلك يكون أبدا ، وهؤلاء هم الزنادقة •

الصنف الثانى — الطبيعيون :

وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع الا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الانسان •

الا أن هؤلاء — لكثرة بحثهم عن الطبيعة — ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوام الحيوان به ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان ثابتة لمزاجه أيضا وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ، ثم اذا انعدم فلا يعقل اعادة المعدوم كما

زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، فانحل عنهم اللجام وانهمكوا فى الشهوات انهماك الانعام .

وهؤلاء أيضا زنادقة لأن أصل الايمان هو الايمان بالله واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وان آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث ــ الالهيــون :

وهم المتأخرون مثل : « سقراط » وهو أستاذ « أفلاطون » وأفلاطون أستاذ « أرسطاطاليس » وأرسطاطاليس هو الذى رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم وحرر لهم ما لم يكن محررا من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجا من علومهم . وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أعفوا به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال بقتالهم .

ثم رد « أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط » ومن كان قبله من الالهيين ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم الا أنه استبقى أيضا من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين « كابن سينا والفــارابى » وأمثالهما على أنه لم يقم بنقــــل علم أرسطاطاليس أحــد من متفلسفة الاسلاميين كقيام هــذين الرجلين وما نقــله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم وما لا يفهم كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هــذين الرجلين ينحصر فى ثلاثة أقسام :

١ ــ قسم يجب التفكير فيه .
٢ ــ وقسم يجب التبديع فيه .
٣ ــ وقسم لا يجب انكاره أصلا ، فلنفصله .

٣ ــ منهجه فى تمييزه للعلوم عن الفلسفة :

كانت الفلسفة اسما جامعا لأنواع العلوم السائدة فى كل عصر ، والفيلسوف لقب يطلق على من تمتع بحظ وافر من أنواع تلك العلوم والمعارف . وأما ما نراه فى عصرنا الحــديث من ظاهرة التخصص والاستقلال للعلوم حتى أصــبح

لفظ فلسفة لا يشمل الا الوجود والأخلاق والقيم ، فلقد أعطى الغزالى بعد النظر ، ودقة الرأى فيما ذهب اليه قبل ثورة العصر الحديث العلمية والدينية ولا ينبئك على دلائل العبقرية غير ذلك من تقسيمه فقال :

(أ) يراجع فى ذلك كتاب احياء علوم الدين الجزء الأول ص ٢٠ •

(ب) والمنقد من الضلال ص ١٤٨ •

الا أننا سنعتمد على تقسيم الغزالى كما فى المنقد لانه أقرب الى الحصر من غيره فقال :

١ ـ وأما المنطقيات :

فلا يتعلق شىء منها بالدين نفيا واثباتا بل هو النظر فى طرق الأدلة والقياس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه ، وأن العلم اما تصور وسبيل معرفته الحد ، واما تصديق وسبيل معرفته البرهان ، وليس فى هذا ما ينبغى أن ينكر ، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر فى الأدلة ، وانما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات والتشعيبات •

٢ ـ وأما علم الطبيعيات :

فهو بحث عن عالم السموات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة كالماء والتراب والهواء والنار ومن الأجسام المركبة : كالحيوان والنبات والمعادن ، وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها ، وذلك يضاهى بحث الطب عن جسم الانسان وأعضائه الرئيسية والخادمة وأسباب استحالة مزاجه ، كما ليس من شرط الدين انكار علم الطب ، فليس من شرطه أيضا انكار ذلك الدين الا فى مسائل معينة ذكرناها فى كتاب تهافت الفلاسفة ، وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها • وأصل جملتها أن تتعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها بل هى مستعملة من جهة فاطرها والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشىء منها من ذاته •

٣ ـ وأما السياسات :

فمجموع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية

والايالة السلطانية ، وانما أخـــذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم المـــاثورة عن سلف الأنبياء •

٤ ـــ وأما الخلقية :

فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وكيفية معالجتها ومجابهتها •

هذه خطوة جديدة رسمها الغزالى لدراسة الفلسفة والفلاسفة لا يظهر عليها ما رافق الدارسين لها من التقـــديس والافتتان فى أول دخولها الحقل الاسلامى ـــ والغزالى بخطواته تلك لمنصف كل الانصاف لذلك التراث العلمى حيث قصد الى بيان ما يذم ما يكفر وما لا يكفر ، وهـــذا التقسيم يرضى عنه الباحثون •

اذن فقـــد كان الغزالى واضح المنهج ولذلك نراه نقـــدها نقـــدا علميا •

٤ ـــ منهجه فى الفلسفة الالهية :

أما الالهيات : ففيها أكثر أغاليطهم فما قـــدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها • ولقـــد قرب مذهب (أرسطاطاليس) فيها من مذاهب الاسلاميين على ما نقله الفارابى وابن سينا ، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلا يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها وتبديعهم فى سبعة عشر ، ولابطال مذهبهم فى هـــذه المسائل العشرين ، صنف كتاب (التهافت) ، أما المسائل الثلاث ، فقـــد خالفـــوا كافة المسلمين وذلك فى قـــولهم :

١ ـــ ان الأجساد لا تحشر وانما المثاب والمعاقب هى الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية • ولقـــد صدقوا فى اثبات الروحانية ، فانها كائنـــــة أيضا ولكن كـــذبوا فى انكار الجسمانية وكفروا بالشريعة فيما نطقـــوا به •

٢ ـــ ومن ذلك قولهم : (ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات) وهـــذا أيضا كفر صريح بل الحق أنه : (لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) •

٣ — ومن ذلك قولهم بقـــدم العالم وأزليته ، فلم يذهب أحـــد من المسلمين الى شيء من المسائل،وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات،وقولهم أنه عليم بالذات لا بعلم زائد على الذات وما جرى مجراه فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك • وقـــد ذكرنا فى كتاب (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) ما يتبين فيه فساد رأى من يتسارع الى التكفير فى كل ما يخالف مذهبـــه ، وقال أيضا ثم لم أزل أواظب على التفكير فيها بعـــد فهم قريبا من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره الى أن قال أطلاعا لم أشك فيك •

٥ — الغزالى مفكر منهجى :

أولا — استطاع الغزالى أن يقرأ الفلسفة قراءة استظهر فيها ما يمكن لعقل عبقرى أن يستظهر ويحيط بالموضوع الذى يقصده احاطـــة فيها عمـــق وبصر وشاهدنا على ذلك قوله :

(ا) على انه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الاسلاميين كقيام هـــذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط يتشوش فيه قلب المطالع ولعل فى هـــذا النص ما يدفع ما وجه اليه من تهمة علمية وهى أنه لم يتحر النصوص الفلسفية ، ولا نسبتها الى ذويها « فحسبه دفعا هـــذا النص الذى بلغ من ذوقه الفلسفى ودقته أن قال فى كتابه تهافت الفلاسفة : ثم المترجمون لكلام أرسطو لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل محوج الى تفسير وتأويل حتى أثار ذلك أيضا نزاعا بينهم وأقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة فى الاسلام الفارابى أبو نصر وابن سينا » • فتقويمه صحيح المراجع من سقيمها لآية على ذوقه الفلسفى ، ودقيق تحريه مسائل الفلسفة مراجعها ومن رجالها ، ثم رأى أعظم رجالها — العلم الثانى والشيخ الرئيس — علمـــــانى •

ثانيا — وضعه كتاب « مقاصد الفلاسفة » يعطينا أيضا أنه استظهر علوم القوم ووقف على منتهى علومهم ، وأنه كان واثقا من اطلاعه ، وكان واضح المنهج فى تأليفه لهـــذا الكتاب حيث كتب فيه مقاصدهم — دون التعرض لشىء فيه — كتابة محررة •

ثالثا — كما استطاع بعــد الاستظهار وحصر مقاصدهم أن يخوض معهم فيما خاضوا فيه ثم وقف ليفكر ويعاود النظر فيما قرأ وهــذا عمل الفلاسفة ذوى العقول الفــذة الفريدة • انه قرأ ثم هضم ليبين الحقيقة من النفايات التى يصبح أن يزيحها •

رابعا — خرج بعقله الفلسفى الذى لا شك فى أنه نادر لا يعرف مثله الا فى تاريخ عظماء الفكر :

(أ) كتاب تهافت الفلاسفة ، جاء على غير مثال فى كتابته ، واحاطته بمقاصد الفلاسفة كلهــا •

(ب) فأسلوبه فلسفى فنى يمثل العصر الذى آلف فيه وما قبله •

(جـ) احاطته تجعله عمدة فى تقرير المسائل ويعتمد عليه للوقوف على فلسفة عصره وما قبله •

(د) أول كتاب وقف أمام الفلسفة دون تقليد لها فى المسائل أو خضوع كما سبق فأكثر الفرق الاسلامية طأطأت الهامة وانساقت وراءها •

(هـ) فقسمته قبل كل شىء أفادت حرية الكلمة ، ومثلت صورة العقــل وأظهرت شخصية المسلم المعتز بأصالة ثقافته ، (قال خوجة زادة) انه ابتدع من بين علماء الكلام طريقة غراء واخترع رسالة عــذراء فى ابطال أقاويل الحكماء •

خامسا — كما أنه يصح لنا أن نقول بأنه لم ينقــد الفلسفة ولكنه جــدد موضوعها لاننا — لو لم نلاحظ ذلك — لــما كان لنقده معنى اذ نقــد الفلسفة بأسلوب الفلسفة •

فالغزالى أظهر ما استكن فى نفس ابن سينا ولم ير الغزالى فى ذلك مهادنة ولا أناة ولا اصطنع الى المشائية سبيلا من السبل التى يرتمى فى أحضانها أولو الغلبة فى البحث وكلال النظر •

ثانيا — توضيح سلطة العقل ودائرة اختصاصه :

ما الذى دفع الغزالى الى عملية الهدم هذه ؟ أهى رغبة فى اظهار العجز المطلق للعقل عن الخوض فى عالم ما وراء الطبيعة ؟ أم هى الرغبة فى مهاجمة الفلاسفة الذين لم يحسنوا استعمال العقل فى هـذا الحقل ؟

وزعماء الرأى الأول : المستشرق الفرنسى « كارادى فو » فى كتابه عن الغزالى ود. عبد الحليم محمود فى مقدمة المنقذ من الضلال وأبحاثه المستفيضة ، بينما يمثل الثانى المستشرق الأسبانى ميكمال آسين بالاسيوس يدافع فى كتـابه « المعتقدات والأدبيات والتصوف عند الغزالى » عن الرأى الثانى . يقول الدكتور كريم عز قول :

« أما اذا سألنا الغزالى نفسه عن سبب حملته على الفلاسفة كان أول جواب نقف عليه هو أن الفلاسفة ما قدروا (فى الالهيات) على الوفاء بالبراهين على ما اشترطوه فى المنطق » ، وأنهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين . ويستدلون على علومهم الالهية بظهور العلوم الحسابية والمنطقية ولو كانت علومهم الالهية متقنة البراهين نقية عن التخمين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا فى الحسابية . « وأن ما شرطوه فى صحة مادة القياس فى قسم البرهان المنطقى من المنطق ، وما شرطوه فى صورته فى كتاب القياس ، وما وضعوه من الأوضاع فى (ايساغوجى وقاطيغورس) التى هى أجزاء المنطق ومقدماته لم يتمكنوا من الوفاء بشىء منه فى علومهم الالهية » فهم يزعمون مثلا أن « صدور اثنين من واحد مكابرة للعقول أو اتصاف المبدىء بصفات قديمة أزلية مناقض للتوحيد » ولكن هاتين الدعويين واهيتان ولا برهان لهم عليهما . فانه ليس يعرف استحالة صدور الاثنين من واحد كما يعرف استحالة كون الشخص الواحد فى مكانين ، وعلى الجملة لا يعرف بالضرورة ولا بالنظر .

فيظهر من هذه الأقـوال أن رأى المستشرق الأسبانى هو المصيب وأن الفلاسفة لم يبلغوا الحقيقة فى علمهم هذا لا لأن العقل عاجز عن اقتناصها ، بل لأنهم أساءوا استعماله فى التفتيش عنها . غير أن هناك أمورا عديدة فى كتاب (التهافت) تعترض القارىء المدقق ، وتحمله على عدم الاكتفاء بتصريحات الغزالى هذه وتدفعه الى التعمق فى البحث حتى ينجلى موقف الغزالى من العقل فى هذا

الحقل انجلاء لا يعكره اعتراض ولا تشوبه شبهة ، وها نحن أولاء محاولون ا لقيام بهــذه المهمــة .

من الأمور التى تثير الشك فى ايمان الغزالى بمقدرة العقل على الحكم فى حقائق ما وراء الطبيعة هو واقع كتاب (التهافت) نفسه . فان الغزالى حاول فيه أن يبرهن على أن جميع تعاليم الفلاسفة فى هــذا الحقل وفيمــا يمت اليــه من الطبيعيات متناقضة فاسدة واهية ، فهــذا الاطلاق فى الرأى لمــا يوحى بالظن بأن الغزالى انما أراد من محاولته هــذه التدليل بشكل حسى على عجز العقل عن حل مسائل ما وراء الطبيعة اذ أن بين القول بعجز جميع الفلاسفة فى جميع قضاياهم عن ادراك الحقيقة ، وبين القول بعجز العقل عن ذلك ، لخطوة قصيرة ، ويكفيك لتكوين فكرة واضحة عن مدى تهجم الغزالى على الفلاسفة واتساع نطاق ذلك التهجم ، أن تلقى نظرة خاطفة على عناوين فصوله كما وردت فى الفهرس ، وها هى :

١ ــ ابطال مذهبهم فى أزلية العالم .

٢ ــ ابطال مذهبهم فى أبدية العالم .

٣ ــ بيان تلبيسهم فى قولهم ان الله صانع العالم وان العالم صنعه .

٤ ــ تعجيزهم عن اثبات الصانع .

٥ ــ تعجيزهم عن اقامة الدليل على استحالة الهين .

٦ ــ ابطال مذهبهم فى نفى الصفات .

٧ ــ ابطال قولهم ان ذات الأول لا ينقسم بالجنس والفصل .

٨ ــ ابطال قولهم ان الأول موجود بسيط بلا ماهية .

٩ ــ تعجيزهم عن بيان أن الأول ليس بجسم .

١٠ ــ بيان أن القول بالدهر ونفى الصانع لازم لهم .

١١ ــ تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم غيره .

١٢ ــ تعجيزهم عن القول بأنه يعلم ذاته .

١٣ ــ ابطال قولهم ان الأول لا يعلم الجزئيات .

١٤ ــ ابطال قولهم ان السماء حيوان متحرك بالارادة •

١٥ ــ ابطال ما ذكروه من الغرض المحرك للسماء •

١٦ ــ ابطال قولهم ان نفوس السماوات تعلم جميع الجزئيات •

١٧ ــ ابطال قولهم خرق العادات •

١٨ ــ تعجيزهم عن اقامة البرهان العقلى على أن نفس الانسان جوهر قائم ليس بجسم ولا عرض •

١٩ ــ ابطال قولهم باستحالة الفناء على النفوس البشرية •

٢٠ ــ ابطال انكارهم لبعث الأجساد مع التلذذ والتألم فى الجنة والنار باللذات والآلام الجسمانية •

وان كان هذا التعداد غير كاف لحملك على الشك فى موقف الغزالى من العقل فى حقل ما وراء الطبيعة ، فاعلم أيضا :

أولا : أن الفهرس لا يحوى الا أصول المسائل التى يناقش الغزالى الفلاسفة فيها ، أما ما يتفرع عنها من قضايا ، وما ترتكز اليه من مبادىء ، وهى أيضا خاطئة فى نظر الغزالى ، فهو كثير ولا تجده الا فى متن الكتاب •

ثانيا : أن الغزالى اقتصر فى مناقشته هذه على المسائل التى اقتنع بصحتها الفلاسفة العرب وتبنوها ، غير متعرض الى « ما هجروه واستكفوا من المتابعة فيه ، اذ هذا مما لا يمارى فى اختلاله ولا يفتقر الى نظر طويل فى ابطاله » •

ثالثا : أن الغزالى لم يهاجم الفلاسفة فى القضايا التى قصروا فيها عن الحقيقة فحسب بل أراد هدم صرحهم الفلسفى بكامله مع كل ما يحويه من أراء ومبادىء خاطئة كانت فى نظر الغزالى أم مصيبة •

ولا يخطر ببالك أن يكون ما دفعه الى تلك الحملة على الفلاسفة مخالفة آرائهم ومبادئهم لتعاليم الدين والوحى اذ أنه يضرب حتى على التعاليم التى يقوم عليها الدين ، كوجود الخالق ، وخلود النفس ، محاولا اظهار ركاكة القواعد العقلية المرتكزة اليها ووهن الأدلة الفلسفية التى يثبتها •

كل هــذا من شأنه ولا ريب أن يحملنا على الشك فى موقف الغزالى من العقل فى حقل ما وراء الطبيعة غير أنه لا يكفى ليبرر الجزم بأن الغزالى توخى تهــديم العقل من وراء تهــديم الفلسفة لان مجرد عجز الفلاسفة برمتهم عن ادراك الحقيقة فى حقل ما وراء الطبيعة لا يدل بالضرورة على عجز العقل اطلاقا عن ذلك ٠

وها هم معظم الفلاسفة قــد اعتقدوا ــ كل بدوره ــ بضلال المذاهب التى سبقتهم ، فلم يزعزع ذلك الاعتقاد ايمانهم بالعقل ، ولم يثنهم عن عزمهم فى بنيان مذاهب جــديدة مرتكزة اليه ، أفلا يكون الغزالى واحــدا من نوعه اذ ثابر على الايمان بالعقل رغم اعتقاده بتقصير الفلاسفة عن بلوغ الحقيقة، زد على ذلك أننا نعلم قطعا من الغزالى السبب فى تقصيرهم عن الحقيقة وهو كما رأينا سابقا عــدم مراعاتهم لقواعــد المنطق ، وهكذا يصبح محتملا أن يعتقد الغزالى بأن العقل يمكنه أن يدرك حقائق ما وراء الطبيعة اذا ما روعيت تلك القواعد وتجنبت الاخطاء التى ارتكبها الفلاسفة فى بحثهم عنها ٠

ولكن أليس من دليل قاطع لدينا يقلب هــذا الاحتمال تأكيدا ؟ بلى أن الغزالى يفهمنا فى أحــد فصول كتابه ، أنه لم يتوخ فى هــذا الكتاب سوى الهــدم أما البناء ، فقــد تركه الى تأليف آخر سيثبت فيه استنادا الى مبادىء يقينية وبعــد مراعاة شروط المنطق ما يعتقده الصحيح من العقائد والتعاليم ، فقد قال فى معرض مناقشته قضية قــدم العالم ، فلم نخرج لذلك عن مقصود الكتاب ولا نستقصى القول فى الأدلة الدالة على الحــدث ، اذ غرضنا ابطــال دعواهم معرفة القــدم ، وأما اثبات المذهب الحق فسنصنف فيه كتابا بعــد الفراغ من هــذا ان ساعد التوفيق ان شاء الله ونسميه « قواعــد العقائد » ونعتنى فيه بالاثبات كما اعتنينا فى هــذا الكتاب بالهــدم » ٠

فهذا الكلام يدل دلالة واضحة على اعتقاد الغزالى بمقدرة العقل على حل هذه المسائل التى عجز الفلاسفة عن حلها ، ولكن هناك أدلة أخرى مستوحاة من النقــد الداخلى للكتاب تقودنا الى النتيجة نفسها واليك أهمها :

أولا : من المنتظر ممن لا يعترف بسلطان العقل فى حقل ما وراء الطبيعة أن يحكم عندما تقود الأدلة العقلية فى مسألة من مسائل هــذا الحقل الى نتائج

متناقضة بتناقض فى العقل نفسه ؛ وأن يبرر هـذا التناقض بتعـدى العقـل الحـدود الطبيعية ، كما فعل الفيلسوف الألمـانى « كنت » أمام تناقض الأدلة العقلية المبرهنة فى الوقت ذاته على أن العالم حادث ومحـدود وعلى أنه أزلى وغير محـدود .

أما الغزالى فعوض عن الحكم بتناقض العقل ، وقـد اكتشف تناقضا بين النتائج التى قادت اليها الأدلة العقلية عند الفلاسفة فى مسألة روحانية النفس فاننا نراه يحاول حل هـذا التناقض وازالته مخطئا فيه الفلاسفة لا العقل .

فان الفلاسفة يستدلون ببساطة المعرفة البشرية على بساطة النفس فيقولون : « ان كان محل العلم جسما منقسما ، فالعلم الحال فيه أيضا منقسم ، لكن العلم الحال غير منقسم ، فالمحل ليس جسما » فيعترض الغزالى على هـذا الدليـل بقولهم بتركيب النفس الحيوانية ، رغم اعتقادهم أن المعرفة الحيوانية بسيطة فيردون عليه (فى محاورة وهمية) قائلين : « ان هـذه مناقضة فى المعقولات ، والمعقولات لا تنقض . فانكم مهما لم تقـدروا على الشك فى المقـدمتين وهـو أن العلم الواحـد لا ينقسم وأن ما لا ينقسم لا يقوم بجسم ، لم يمكنكم الشك فى النتيجة » . التهافت .

وهناك بدلا من أن يعترف الغزالى بالمناقضة فى المعقولات ، كما يفعل من لا يتهيب أمام سلطة العقل نراه بالعكس يقول : (هذه المناقضة تبين أنهم غفلوا عن موضع تلبيس فى القياس ، ولعل موضع الالتباس قولهم : ان العلم منطبع فى الجسم انطباع اللون فى المتلون ، وينقسم المتلون ، فينقسم العلم بانقسام محله ، والخلل فى لفظ الانطباع ، اذن يمكن أن تكون نسبة العلم الى محله كنسبة اللون الى المتلون ، حتى يقال أنه منبسط عنه ومنطبع فيه ومنتشر فى جوانبه فيتقسم بانقسامه، فلعل نسبة العلم الى محله على وجه آخر وذلك الوجـه لا يجوز فيه الانقسام عند انقسام المحل » التهافت .

فالتجاء الغزالى الى هـذا الامكان الضعيف فى حـد ذاته ، دليل على رغبته فى تبرير ساحة العقل من التناقض ، والقاء عبء التناقض على الفلاسـفة وحـدهم :

ثانيا : أن الغزالى يستند دائما فى مجادلاته مع الفلاسفة الى مبادىء العقل الأولى ، وأكبر حجة يستعملها ضـــدهم هى أن تعاليمهم تناقض تلك المبادىء أو أنها ليست مرتكزة اليها ارتكازا ضروريا ، وفى هـــذا شهادة منه على المجال الواسع الذى يتركه العقل فى حقل ما وراء الطبيعة ، وعلى الفرق العظيم الذى يفصله عن (كنت) فى هـــذا الشأن ، فبينما يجرد الفيلسوف الألمـــانى أحكام العقل فى ذلك الحقل من كل قيمة نجـــد الغزالى يقيس ادعاءات الفلاسفة بمقياس مبادىء العقل بأن العقل يمكنه على الأقـــل اطلاق أحكام الامكان والاستحالة فى قضايا ما وراء الطبيعة •

وهو يصرح أيضا بهـــذه الفكرة تصريحا ، اذ يقول فى معرض تحـــديد مواضع التأويل : « ان أدلة العقول دلت على استحالة المكان والجهة والصورة ويد الجارحة وامكان الانتقال والاستقرار على الله سبحانه ، فوجب التأويل بأدلة العقل وما وعـــدا به من أمور الآخرة ليس محالا فى قـــدرة الله ، فوجب الجرى على ظاهر الكلام بل على فحواه الذى هو صريح فيه » • التهافت •

ثالثا : أن الغزالى يثبت أحيانا بالعقل بعض الحقائق الغيبية ، فقـــد أظهر فى (التهافت) عجز الفلاسفة عن اقامة الدليل على وجود خالق للكون ولكن ما سبب عجزهم هـــذا ؟ هل لان العقل لا يقوى بطبيعته على ذلك ؟ كلا بل لانهم وضعوا أساسا لبحثهم قـــدم العالم ، لكنهم لو كانوا قـــد اعترفوا مع أهل الحق بأن العالم حادث (لعلموا ضرورة أن الحادث لا يوجـــد بنفسه ، فافتقر الى صـــــانع) •

من هـــذه الأدلة يتبين لنا بجلاء أن للعقل شأنا كبيرا فى حقل ما وراء الطبيعة ، ولكن علاوة على أنه لم يتضح لنا بعـــد بالضبط حـــدود ســـلطة العقل وسعة امتدادها ، فاننا نعثر فى طيات (التهافت) على تصريحات تكاد تهـــدم كل ما بيناه وتظهر أن الغزالى لا يقر للعقل بأى سلطة فى حقل ما وراء الطبيعة وأن علينا الاستناد الى الوحى وحـــده فى هـــذا الحقل) •

نعم انه من السهل عدم تعليق أهمية على هـــذه التصريحات ، والقول مع « ميكال آسين بالاسيوس » أن وطيس المناقشة وحـــدة الجـــدل هما ما دفعـــا بالغزالى فى هـــذا الكتاب الى تلك التصريحات التى تمس سلطات العقل والتى

ما كان يقرها فى حالة التفكير الهادىء • غير أننى لا أرى لمثل هـذا الشرح من قيمة • اذ يصعب على تصور مفكر دقيق ومالك لفكره وقلمه كالغزالى أن يرمى كلاما يضطر فيما بعـد الى الرجوع عنه والندم عليه •

اننى أعتقد ، بالعكس ، أن هـذه التصريحات تعتبر تعبيرا صادقا عن فكر الغزالى اللهم الا اذا نظرنا فيها على ضوء النتيجة التى قادنا البحث اليها حتى الآن ولم ننتزعها من مجرى تفكير الغزالى العام ، ونعزلها عن الموضوع الـذى جاءت بصدده ، اذ ذاك يتبين لنا منها أنها تحدد سلطة العقل وتقيدها ضمن حدود لا يجوز لها تعديلها غير أنها لا تقلل من قيمة العقـل فى النطاق المخصص له كما سيظهر لنا من معالجتنا هـذه التصريحات •

أولا : قـد يكون أشد هـذه التصريحات عـداوة للعقل فى الظاهر ما أدلى به الغزالى فى معرض حـديثه عن ادعاء الفلاسفة أن الله لا يعرف الا نفسه ، فبعـد أن أظهر النتائج السخيفة التى يقود اليها هـذا الادعاء ، والمناقضات التى يقع فيها الفلاسفة من جرائه قال : (وهكذا يفعل الله بالزائغين عن سبيله والناكبين لطريق الهـدى ، المنكرين لقوله : ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلقا نفسهم الظانين بالله ظن السوء ، المعتقدين أن الأمور الربوبية تستولى على كنهها القوى البشرية ، المغرورين بعقولهم زاعمين أن فيها مندوحة عن تقليد الرسل وأتباعهم فلا جرم ان اضطروا الى الاعتراف بأن لباب معقولاتهم رجعت الى ما لو حكى فى منام لتعجب منه) •

فقد يستنتج من هـذا المقطع أن العقل فى نظر الغزالى غير مؤهل للحكم فى الأمور الالهية التى هى موضوع علم الغيب ، وأن الطريق الوحيد لمعرفة هـذه الأمور انما هى الوحى ، وأن المسألة التى صرح الغزالى بصددها هـذا التصريح وهى معرفة ما اذا كان الله يعرف غير نفسه أم لا ، انما هى منوطـة بقول الرسول ولا حق للعقل أن يبت فيها غير أننا لو تمعنا فى هـذا المقطـع واستقصينا مقصد الغزالى منه لبان لنا فساد هـذا الاستنتاج ولتحققنا أن ما ينفيه الغزالى عن العقل هنا انما هـو امكانية ادراك جـوهر الأمور الالهية عن العقل من حقـل الالهيات • ودليلنا على صحة التأويل أن الغزالى كمـا يتضح من سياق الحـديث لا يشك قط فى أن العقل هـو الذى يحل هـذه المسألة ويحكم بضرورة معرفة الله لنفسه ولغيره ، اذ لو كان الله لا يعرف سوى نفسه لكان الكائن الذى يعرف الله ويعرف نفسه (أى الانسان) أكمل منه » • التهافت •

ولو رجعنا الى النص المذكور لرأينا أن الغزالى لم يغفل عن التصريح بجلاء عن قصده هـذا اذ قال • (المعتقدين ان الأمور الربوبية تستولى على كنهها القوى البشرية) ، كما أنه لم يكن من العبث ايراده الآية النبوية التى تظهر بوضوح أن الله لم يوقف الانسان على كيفيه خلقه للأشياء فما يعجز العقل عنه من الأمور الالهية هو حسب هـذا المقطع ، الجواب على (كيف) ولم يقع الفلاسفة فى مغالطتهم الغريبة الا لأنهم أرادوا الجواب على (كيف) ولو كانوا اكتفوا باتباع الرسل وأقلعوا عن هـذه المحاولات لنجوا من تلك المغالطات •

ثانيا: وهاك نص آخر من نوع النص السابق يسوقه الغزالى فى معرض رده على الفلاسفة الذين يعتقدون أنهم توصلوا عن طريق العقل الى معرفة الغرض من حركة الاجرام السماوية ، قال بعـد أن أظهر تقصير أدلتهم عن اثبات ذلك • (فدل أن هـذه خيالات لا حاصل لها وأن أسرار ملكوت السموات لا يطلع عليها بأمثال هـذه الخيالات وانما يطلع الله عليها أنبياءه وأولياءه على سبيل الالهام لا على سبيل الاستدلال ، ولذلك عجز الفلاسفة من عند آخرهم عن بيان السبب فى جهة الحركة واختيارها) •

ففى هـذا أيضا نرى الغزالى لا ينكر على العقل سوى ادعائه معرفة أسرار العالم السماوى أى اكتشاف الأسباب الأخيرة لعالم ما وراء الحس والجواب على (كيف) « لماذا » فيه •

ثالثا : واذا تابعنا التقليب فى صفحات « التهافت » اعترضنا نص جديد مشابه وذلك فى معرض المسألة التى يبحث فيها الغزالى عما اذا كان علم الله شيئا زائدا على ذاته أم لا ، فان الغزالى يقول هنا خلافا للفلاسفة انه ليس معقولا أن لا يزيد علم الله ، وبنوع علم جميع صفاته الأخرى شيئا جديدا على وجوده وهـو يدعى أن كل نوع من أنواع المعرفة التى ننسبها الى الله من شأنها طبقا لنظرية الفلاسفة فى العلم ، أن تنقض القول ببساطة الله ووحدانيته ، ولذا وقع الفلاسفة فى تناقض مع أنفسهم اذ أثبتوا من جهة بساطة الذات الالهية ووحـدانيتها ونسبوا العلم الى الله من جهة أخرى ، وان كانوا قصروه على العلم بذاته لا بغيره وبعـد أن ينتهى الغزالى من العراك مع الفلاسفة حول هذه المسألة ، يقول ، ونشوة الظفر تهز كلماته :

« واذ ظهر عجزكم ففى الناس من يذهب الى أن حقائق الأمور الالهيـة

لا تنال بنظر العقل بل ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها . ولذلك قال صاحب الشرع : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله ؛ فما انكاركم على هـذه الفرقة ، المعتقدة صدق الرسول بدليل المعجزة المقتصرة من قضية العقـل على اثبات ذات المرسل المتحرزة عن النظر فى الصفات بنظر العقل ؛ المتبعة صاحب الشرع فيما أتى به من صفات الله ؛ المقتفية آثره فى اطلاق العالم والمريد والقادر والحى ، المنتهية عن اطلاق ما لم يؤذن فيه المعترفة بالعجز عن دركه بالعقل » . التهافت .

أننى أعتقد أن هذا المقطع أيضا لا يمس اطلاقا صلاحية العقل فى الغيبيات بل ينحصر مقصوده فى القول بعجز العقل عن ادراك كنـه الأمور الالهيـة . فالعقل يعجز حسب هذا المقطع عن فهم كيف أن الله لا يفقد شيئا من بساطته ولا يتعدد مع قيام العلم والصفات الأخرى فيه ، وهى أمور زائدة على الذات أما مقـدرته على اثبات تلك الصفات لله ، فان الغزالى لا ينكرها فى هـذا المقطع كما يبدو لأول نظرة بل اعتقد أنه يعترف بها.

نعم ، ان الفرقة التى يحارب الغزالى الفلاسفة باسمها تحترس حسـب تعبيره عن النظر فى الصفات وتكتفى باتباع النبى فى ذلك ولكن ماذا يقصد الغزالى بالنظر فى الصفات ؟ هل هو البحث فى وجودها واثباتها لله ؟ أم محاولة تفهم كنهها وكيفية قيامها فى الذات ؟ لا شك أن المقصود هنا الأمر الثانى لا الأول .

والدليل هو : أولا كون مدار البحث هنا لم يكن مسألة اثبات الصفات لله بل كيفية قيام العلم فى ذات الله دون تعـدد الذات ، وهو بحث فى كنـه صفة العلم وماهيتها ، وثانيا وثالثا ، أن الغزالى نفسه يعترف بأن الفرقة المشار اليها اقتصرت من قضية العقـل على اثبات المرسل ، ومن الجلى أنه لا يمكن اثبات المرسل دون اثبات العلم والارادة ، والقدرة والحياة له ، اذ كيف يكون مرسلا من ليس عالمـا مريدا قادرا ، حيا ؟

ومهما يكن الأمر ، فانه لا شىء يثبت لنا هنا أن الغزالى يتبنى موقف هذه الفرقة المتبعة صاحب الشرع فيما أتى به من صفات الله ، والمنتهية من اطـلاق ما لم يؤذن به « اذ غرضه من الاستشهاد بها اقناع الفلاسفة بأن عليهم ، هم على الأقل اتخاذ هـذا الموقف بعـد أن قادهم نظرهم وأدلته الى مناقضات لا سبيل لهم الى الخروج منها .

رابعا : وأخيرا نرى أنفسنا أمام تصريح للغزالى يقيد بوضوح سلطة العقل ولكن يثبتها بالوقت ذاته على الشكل الذى رأيناه فى تأويلنا النصوص السابقة فهو يقول اعتراضا على محاولة الفلاسفة شرح كيفية خلق العالم وصدور كثرته عن الواحد الأول :

« وما المانع من أن يقال : المبدأ الأول عالم قادر مريد ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد يخلق المختلفات والمتجانسات كما يريد وعلى ما يريد ، فاستحالة هذا لا تعرف بضرورة ولا نظر ، وقد ورد به الأنبياء المؤيدون بالمعجزات فيجب قبوله ، وأما البحث عن كيفية صدور الفعل من الله بالارادة فنقول : طمع فى غير مطمع والذين طمعوا فى طلب المناسبة ومعرفتها رجع حاصل نظرهم الى أن المعلول الأول من حيث انه ممكن الوجود صدر منه فلك ، ومن حيث أنه يعقل نفسه صدر منه نفس الفلك ، وهذه حماقة لا اظهار مناسبة . فلنتقبل مبادىء هذه الأمور من الأنبياء وليصدقوا فيها اذ العقل لا يحيلها وليترك البحث عن الكيفية والكمية والماهية ، فليس ذلك مما تتسع له القوى البشرية ، ولذلك قال صاحب الشرع : « تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى ذات الله » .

فهذا المقطع يبين بالتفصيل والتصريح ما لمحت اليه اجمالا المقاطع السابقة وهو أن العقل لا يمكنه معرفة الكيف والكم والجوهر من الأمور الغيبية وأن معرفة مبادىء هذه الأمور يجب أن نتلقاها من النبى ونقبل بها ، ما دام لا يحكم باستحالتها ولا شك أنه لا يدخل بين هذه المبادىء معرفة الصفات التى يعددها الغزالى فى مطلع هذا المقطع لان البحث يدور فيه حولها ، بل حول مسألة صدور الكثير الموجودة فى العام عن المبدأ الواحد الذى هو طبعا علم قدير مريد وانما ذكرت هذه الصفات هنا عرضا ليسهل بها فهم ما سيلحق من البحث .

وهكذا يقودنا فحصنا لتلك التصريحات ونقدنا السابق لمجموع « كتاب التهافت » وتحليلنا لغرضه ومحتوياته الى النتائج الآتية :

١ — أن العقل هو المعيار الوحيد لجميع حقائق علم ما وراء الطبيعة فلا يمكن لأى مبدأ حتى وان كان مصدره الوحى ، أن يكون صحيحا اذا كان مناقضا لضرورة العقل ولا يجوز التصديق بشىء ما لم يحكم العقل بامكانه على الأقل .

٢ ــ ان العقل عاجز عن معرفة أسرار ملكوت السماوات أى عن ادراك الكيفية والكمية والجوهر وحقيقة السبب الأول والغـاية الأخيرة من الأمور الالهية • ففى هــذا النوع من الحقائق لا يجوز له لا الاثبات ولا النفى ، بل الحكم بالامكان فحسب •

٣ ــ ان العقل فى ما عــدا ذلك النوع المعين من الحقائق : له مبدئيا حق الحكم المطلق فى الامكان والاثبات والنفى •

هــذا ويجب ألا ننسى أن غرض الغزالى فى « التهافت » انما كان التهــديم لا البناء واظهار ما يعجز العقل عن معرفته أكثر مما يقوى عليه • ولهــذا أردنا الوقوف بالتفصيل والضبط على القضايا التى للعقل الحكم الأخير فيها ، علينا أن نطلبها لا من « التهافت » بل من كتاب (قواعــد العقائد) ، أى ذلك الكتاب الذى وعدنا الغزالى به كمحاولة للبناء لا للهدم فنرجع اذن الى ذلك الكتاب •

ولكن هناك عقبة كبرى تعترض سبيلنا الى ذلك الكتاب . وهى أننا لا نعثر بين كتب الغزالى الموجودة حاليا لدينا على كتاب اسمه (قواعــد العقــائد) بل لا نجــد له ذكرا فى لائحة تأليف الغزالى ، كما نشرها جميع الذين اهتمــوا بها من المؤرخين •

أجل أن هناك رسالة صغيرة تدعى (القواعــد العشر) يبدو أن المستشرق الانكليزى (زويمر) قــد اعتبرها ذلك الكتــاب المنشود ، اذ نراه بعــد ذكره هــذه الرسالة يقول : ان كتاب (القواعــد) يثبت الحقائق التى يجب أن تقوم مقام مغالطة (الفلاسفة) فان كان يعتقد أن كتاب (القواعــد) ولا شك أن الرسالة الصغيرة المذكورة هو الكتاب الموعود به ، ظهر تحت اسم جديد محرف بعض التحريف عن الاسم الأصلى ، فانه على خطأ مبين لان هــذه الرســالة ليست سوى تعــداد مقتضب وشرح دينى وجيز لعشر مبادىء بالايمان والآداب الدينية ليس الا ، وليس فيها من البحث الفلسفى ما يجوز لنا اعتبارها ذلك الكتاب الذى يجب أن يحل محل كتب الفلاسفة فى اثبات الحقائق الالهية •

أنقول اذن بأن الغزالى لسبب من الأسباب نجهله ، قــد أقلع عن تأليف هــذا الكتاب كما مال الى الاعتقاد بذلك الفيلسوف الاندلسى ابن رشد ــ اذ شهد جيلا بعــد الغزالى ــ ان هــذا الكتاب لم يصل اليه ، وزاد على ذلك بقوله : (ولعله لم يؤلفه) اننى لا أوافـــق على هــذا الحل السريع لهــذه

المسألة ، بل أعتقد أن الغزالى ألف الكتب الذى وعـد به ، وأن هـذا الكتاب بين أيدينا اليوم ، غير أنه يحمل اسما غير الاسم الأصلى وهـو (الاقتصاد فى الاعتقـاد) •

أما ما يحملنا على هـذا الاعتقاد فهو الاعتبارات الآتية :

أولا : ان كتب (الاقتصاد فى الاعتقاد) يعالج جميع مسائل ما وراء الطبيعة معالجة فلسفية ويثبت حقائقها اثباتا عقليا ، فهو اذن فى موضوعه وفى طريقته لا يختلف فى شىء عن الكتاب المطلوب •

ثانيا : ان الغزالى ذكر فى كتاب (احياء علوم الدين) أنه خصص كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) للبحث العقلى عن (قواعد العقائد) فهنا نجـد الاسم الأصلى للكتاب مطلقا على موضوع كتاب (الاقتصاد فى الاعتقاد) •

ثالثا : ان (الاقتصادفى الاعتقاد) قـد ظهر بعـد (التهافت) بدليل ان اسم (التهافت) ورد فى الصفحة الأربعين منه •

ومهما يكن من الأمر فان (الاقتصاد فى الاعتقاد) يمثل عمل الغزالى البنائى فى حقل ما وراء الطبيعة ، وهو الى ذلك أوسع مؤلف للغزالى فى هـذا الموضوع وما (الرسالة القدسية) التى هى أيضا تعالج عقليا هـذه المسائل الا مختصر له ، وهو أخيرا أقوى واثبت ما يمكن تقـديمه الى طالب الحقيقة لاقناعه وهـديه حتى ان الغزالى يعتقد أن من لا يشفى هـذا الكتاب حيرته ويقطع شكوكه يجب أن يترك لأمره حتى يتلطف الله به •

فلجميع هـذه الأسباب ترانا على حـق اذا ما استندنا اليه لمعرفة ما يمكن للعقل الوصول اليه فى حقل ما وراء الطبيعة• غير أن الواقف على تآليف الغزالى والمخالف لنا بالرأى فى صـدد هـذا الكتاب لابد أن يحاول القـدح فى قيمته بالنسبة الى ما نتوخاه منه معترضا بأن الغزالى ذكر فى كتـاب جواهر القرآن ان كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد من تآليفه المنتمية الى علم الكلام • وقد رأينا أن علم الكلام لا يصلح فى نظر الغزالى لبلوغ الحقيقة ، بل للجدل وافحام الخصم فحسب فمن أين اذن أن نثق بأن الغزالى مقتنع بصدق الأدلة التى يدلى بها فيه بصلاحها للكشف عن الحقيقة واثباتها أليس من المجازفة اذن الاستناد الى تلك الأدلة لمعرفة موقفه الحقيقى من مقـدرة العقل فى حقل ما وراء الطبيعة ؟

ان هــذا الاعتراض لمعقول ووجيه ولكنه غير كاف فى نظرى للتخفيف من قيمة الكتاب بالنسبة الى غرضنا منه ، ذلك لان الغزالى يعرض لنا فى مقــدمة الكتاب المبادىء والمقــدمات التى ترتكز عليها أدلته فيه معترفا بأن من هــذه المقــدمات والمبادىء ما لا يوصل الى حقيقة نسبية ولا يصلح الا للجدل الكلامى وهى حقائق الوحى ومسلمات الخصم صحيحة كانت أم فاسدة وهــو يصرح بأن الأولى أى حقائق الوحى لا تفيد الا المؤمن بالوحى ، وأن الثانية أى مسلمات الخصم لا تنفع الناظر وانما تنفع المناظر ، وما المبادىء والمقــدمات الأخرى وهى حسب تعــداده لهــا حقائق الحس والعقل المحض والتواتر والقيــاس المستند الى الحسيات والعقليات أو المتواترات فهى ثابتة يقينية تقود حتما الى الحقيقة المجردة.

وعلى هــذا يمكننا القول أن الغزالى انما عــد كتابه بين كتب علم الكلام سيرا على مبدأ تسمية الكل باسم الجزء ، غير أننا لا نقف عند هــذا الاعتبار بل نلتفت الى اعتبار آخر أشــد منه وأقــوى وهــو أن الغزالى قــد رفع بواسطة تآلفــه المنطقية مستوى علم الــكلام وجعــله صــالحا ليس للجــدل والمناظرة فحسب ، بل للايصال الى الحقيقة أيضا كما يشهد بنفسه على ذلك اذ قال : ان علم الكلام له آلة تصلح لا للجدل فحسب بل للبرهان أيضا الاقتصادى .

وها نحن أولاء فى رجوعنا الى هــذا الكتاب لمعرفة ما يمكن للعقل البشرى اثباته ضروريا فى عالم ما وراء الطبيعة ، لن نستند الا الى أدلة الغزالى البرهانية فيه ، ولا يعنينا فى هــذا البحث أن نعرض لكيفية اثبات الغزالى الحقائق الغيبية أو أن نناقض أدته فى اثباتها بل يكفينا لبلوغ مأربنا أن يتأكد أولا من أن الغزالى استعمل العقل لاثبات هــذه الحقائق وثانيا : أن تعــداد الحقائق التى أثبتها به من جهة والتى اعترف بعجزه عن اثباتها من جهة أخرى .

أن الغزالى يبرهن فى ((الاقتصاد)) استنادا الى العقل والأدلة البرهانية على : أن الكون حادث .

وأن للكون خالقا .

وأن هذا الخالق أزلى ليس بجوهر متحيز ، ولا بجسم ، ولا بعرض وليس فى جهة مخصوصة من الجهات الست ، غير مستقر على العرش ، مرئى ، واحد ،

قادر ، عالم بنفسه وبغيره ، حى ، مريد سميع بصير متكلم . (الاقتصاد) .

فالعقل قادر اذن على اثبات وجود الخالق ووجود هـذه الصفات المعينة فيه ، ثم أن الغزالى يدعى الى ذلك ان الصفات ليست الذات بل زائدة على الذات . غير انه لا يعتبر برهانيا الا القول (بأمر زائد على وجود ذات الصانع سبحانه وهو الذى يعبر عنه بأنه عالم قادر ، وغيره) . أما اذا كانت هـذه الأمور الزائدة هى الذات كما يرى الغزالى فهذا واقع فى حيز الممكن ، ولا يستطيع العقل القطع فيه نهائيا وان كان الغزالى يميل الى اعتبار الوجه الآخر أقرب الوجـوه الى الحقيقة .

هنا نرى كما رأينا فى (التهافت) أن كنه الأمور الالهية لا يعرف معرفة يقينية عن طريق العقل .. ويبرهن الغزالى أيضا على ان (هـذه الصفات كلها قائمة بذاته لا يجوز ان يقوم شىء منها بغير ذاته) . وانها ليست حادثة والا (كان القـديم سبحانه محلا للحوادث وهو محال) . وهنا أيضا لا يتعرض الغزالى الى كيفية قيـام هـذه الصفات منذ الأزل فى الله بل يكتفى باثبات أن هـذه الصفات قـديمة خارج الذات .

هـذه هى أهم القضايا التى يحاول الغزالى اثباتها عن طريق العقل مطلقا فيها أحكاما وجودية لا أحكاما تعليلية . ان مسائل الثواب والعقاب والقيامة وما أشبهها ، أى تلك المسائل التى اعترف فى التهافت بعجز العقل عن اثباتهـا فهـو يصرح هنا أيضا التصريح ذاته تاركا أمرها لحكم الوحى .

وأما قضية روحانية النفس وخلودها فانه لا يذكرها هنا أصلا وقـد رأيناه فى (التهافت) يبرهن على أن حجج الفلاسفة فيها غير كافية لا يصالنا الى اليقين. وان أردنا الآن أن نكون لنا فكرة عامة تجمل كل ما تقـدم وتقرره بصـورة نهائية فما علينا الا الرجوع الى هـذا المقطع من (الاقتصاد) الذى يلخص الغزالى فيه دور العقل فى حقل الغيبيات فيقول :

(ان ما لم يعلم بالضرورة ينقسم الى ما يعلم بدليل العقل دون الشرع والى ما يعلم بالشرع دون العقل والى ما يعلم بهما) .

أما المعلوم بدليل العقل دون الشرع فهو حـدوث العالم ووجود المحدث

وقــدرته وعلمه وارادته ، فان كل ذلك ما لم يثبت « بالعقل » لم يثبت بالشرع اذ الشرع يبنى على الكلام « كلام الله » فان لم يثبت كلام النفس « عند الله » لم يثبت الشرع فكل ما يقــدم فى الرتبة على كلام النفس يستحيل اثباته بكلام النفس وما يستند اليه ، ونفس الكلام أيضــا فيما اخترناه لا يمــكن اثباته بالشرع •

واما المعارضة بمجرد السمع فتخصيص أحــد الجائزين بالوقوع ، فان ذلك « ليس » من مواقف العقول ، وانما يعرف من الله بوحى والهام ، ونحن نعلم من الوحى اليه « الى النبى » بسماع كالحشر والنشر والثواب والعقاب وأمثالها •

وأما المعلوم بهما ، فكل ما هــو واقع فى مجال العقل ومتأخر فى الرتبة عن اثبات كلام الله تعالى كمسألة الرؤية « رؤية الله فى الآخرة » وانفراد الله تعالى بخلق الحركات والاعراض كلهــا وما يجرى هــذا المجرى • ثم كل ما ورد السمع به ينظر فان كان العقل مجــوزا له وجب التصديق به قطعا ، ان كانت الأدلة السمعية قاطعة فى متنها ومستندها لا يتطرق اليهــا احتمال ووجب التصــديق به ظنا أن كانت ظنية •

وأما ما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به ولا يتصور أن يشتمل السمع على قاطع مخالف للمعقول ، فان توقف العقل فى شىء من ذلك فلم يقض منه باستحالة ولا جواز ، ويجب التصديق أيضا لأدلة السمع ، فيكفى فى وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالاحالة •

وهكذا بعــد أن انجلى لنا موقف الغزالى من العقل فى عالم ما وراء الطبيعة وتبينت لنا قيمة العقل وحــدوده فى نظره ، يسهل علينا اذا ما عــدنا الى أول هــذا البحث فهم بعض الأمور الواردة فيه فهما دقيقا مضبوطا • وأهم هــذه الأمور التى من الضرورى أن تكون كاملة الوضوح والجلاء فى ذهن القــارىء أمران :

أمر يمكننا فهمه كدليل قاطع على اعتقاد الغزالى بأن للعقل سلطة مطلقة لا محــدودة فى حقل ما وراء الطبيعة • وأمر يمكننا أن نستنتج منه بالعكس احتقار الغزالى للعقل وحــدوده • أما الأول : فهــو تصريحه حيث قال عن موازين النظر : (وزنت بها جميع المعارف الالهية بل أحوال المعاد وعــذاب القبر وعــذاب أهل الفجور وثواب أهل الطاعة) فاننا نفهم الان بهــذا القول للعقل

حق الحكم فى جميع الأمور الالهية ولكن بالامكان أو بالاحالة فقط لا بالوقوع ، اذ كثير من الأمور الالهية لا يتخصص أحد الجائزين بالوقوع منها الا بالوحى •

وأما الثانى : فهو انخراط الغزالى فى سلك التصوف الذى يقوم على أسس لا عقلية ، فهذا الأمر يمكننا الان فهمه على حقيقته لا كدليل على احتقار الغزالى للعقل بل كنتيجة لاعتقاده أن للعقل حدودا لا يمكنه تعديلها بأن التصوف يقود الى ادراك ما يعجز العقل عن ادراكه •

نتفق مع الدكتور (كريم عز قوله) فيما عرض له ونحب أن نقف على الرأى الصواب وان كان الوقوف على الرأى الصائب ليس من السهل لصعوبة المسألة وعدم الاحاطة بما كتبه الغزالى ، ولكن سنحاول الوصول الى ما هو قريب من الصواب من اعتقادنا بذلك :

أولا : ان الغزالى يؤمن بالفلسفة وبالعقل لان تقسيمه للعلوم الفلسفية ثم رضاءه عن هذه الأقسام الا بعض الالهيات فى تفاصيلها لهو ايمان بالعقل والفلسفة اذن محل الخلاف هو قسم الالهيات وهو ماألف له كتاب التهافت ، يعنى أن الاعتماد على العقل وحده للوقوف على أسرار عالم ما وراء الطبيعة جهل واضح ثم دخل بتجربته النظرية لمناقشة الفلاسفة على طريقتهم فأفلح وأصاب وأثبت دعواه لكن هل معنى ذلك أن الغزالى عندما قصد تقويض مذاهب الفلاسفة كان يقصد من تقويض مذاهبهم تقويض العقل لا نرى ذلك « انما كان يقصد اثبات قدرة العقل وحده على الهدم والبناء •••• » ثم ساق الدكتور عبد الحليم محمود دليلا من موقفه من النفس فقال :

(خلود النفس) مثلا رأى يقول به الفلاسفة ويقول به الغزالى ، ولكن الامام حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى اثبات خلود النفس وهدم أداتهم وضرب بمعوله فيها فانهارت وتهافتت ، ومع ذلك فقد كان مؤمنا بهذا (الخلود) •

ثانيا : الحق أن الغزالى قصد من تقويض مذاهب الفلاسفة اثبات قدرة العقل على الهدم والبناء ، فاعتماد الفلاسفة على العقل وحده فى هذا الميدان ، ميدان ما وراء الطبيعة أعتماد على ركن مزعزع غير شديد ، فلابد من الالتجاء الى ركن شديد هذا الركن أشار اليه الغزالى فى مقدمة كتابه الاقتصاد

فى الاعتقاد بقوله : واصفا أهل السنة : (وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد ، واتباع الظواهر ما أتوا به الا فى ضعف المعقول وقلة البصائر ، وان من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة فى تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ما أتوا به الا من خبيث الضمائر « ص ١ » فميل أولئك الى التفريط وميل هؤلاء الى الافراط وكلاهما بعيد عن الحزم والصواب ، فبعــد أن بين الغزالى نعيه على التقليد والجمود وما سبيل ذلك الا من ضعف العقول « ص ١ » وذلك ليس من الشرع وكذلك الذى حاد تالفلاسفة هــذا الحيد لم يكن العقل وانمــا هــو خبث الضمائر والتغلغل « ص ١ » ثم راح يبين رأيه راسما طريقا للعقل وفى نفس الوقت مجيبا عن صلة العقل بما وراء الطبيعة فقال « ص ١ » بل الواجب المحتوم فى قواعــد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتقاد على الصراط المستقيم ، فكلا طرفى قصد الأمور ذميم •

وانما يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر وينكر مناهج البحث والنظــــر •

أولا : يعلم أنه لا مستند للشرع الا قول سيد البشر وبرهان العقل هــو الذى عرف صدقه فيما أخبر ، أو كيف يهتدى للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر ، فليت شعرى كيف الي العقل من حيث يعتريه العى والحصر أولا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجــاله ضــيق منحصر هيهات قــد غاب على القطع والثبات وتنثر باذياله الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هــذا الشتات ، فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والايذاء ، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء فالخلق بأن يكون طالب الاهتــداء المستيقن اذا اشتغل باحداهما عن الأخرى فى غمار الأنبيــاء فالمعرض عن العقــل مكتفيا بنور القرآن مثاله المتعرض لنــور الشمس مغضيا للاجفان فلا فرق بينه وبين العميان ثم انتهى الى نتيجة هى :

(فالعقل مع الشرع نور على نور)(١١) •

مفهوم العقل ومميزاته عن الحواس :

ولقــد شرح الغزالى عيوب الحس السبعة وعصمة العقل منها وعيوب العقل وعصمة العقل الاشراقى منها فقال :

اعلم أن نور بصر العين مرسوم بأنواع النقصان •

فانه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولا يبصر ما بعد منه ولا ما قرب منه قربا مفرطا ولا يبصر ما هو وراء حجاب ، ويبصر فى الأشياء ظاهرها دون باطنها ويبصر فى الموجودات بعضها دون كلها ، ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له ، ويغلط كثيرا فى ابصاره : فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا ••

فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة فان كان فى الأعين عين منزهة عن هذه النقائص كلها فليت شعرى هل هى أولى باسم النور أم لا ؟؟

واعلم أن فى قلب الانسان عينا هذه صفة كما لها وهى التى يعبر عنها تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس الانسانى •• ودع عنك العبارات فانها اذا ما كثرت أوهمت عند ضعيف البصيرة كثرة المعانى فنعنى به المعنى الذى يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون ولنسمه « عقلا » متابعة للجمهور فى الاصطلاح فنقول :

العقل أولى بأن يسمى نورا فى العين الظاهرة لرفعة قدره على النقائض السبع •

١ ــ أما الأول : فلأن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه : اذ يدرك نفسه عالما وقادرا ويدرك علم نفسه ويدرك علمه بعلم نفسه الى غير نهاية وهذه خاصية لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام ووراءه سر يطول شرحه •

٢ ــ أما الثانى : فلأن لا تبصر ما بعد منها ولا ما قرب منها قربا مفرطا •

والعقل يستوى عنده القريب والبعيد يعرج فى تطويقه الى أعلى السموات رقيا وينزل فى لحظة الى تخوم الأرضين هويا ، بل اذا حقت الحقائق انكشف أنه منزه عن أن تحوم بجنبات قدسه معانى القرب والبعد الذى يعرض بين الأجسام فانه أنموذج من نور الله ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة وان كان لا يرقى

الى ذروة المساواة وهـذا ربما هزك للتفطن لسر قوله عليه السلام « ان الله خلق آدم على صورته » •

٣ ــ أما الثالث : فلأن العين لا تدرك ما وراء الحجب •

والعقل يتصرف ؟؟ فى العرش والكرسى وما وراء حجب السموات وفى الملأ الخاص بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل وأما حجاب العقل حيث يحجب الأعلى والملكوت الاسمى كتصرفه فى عالمه الخاص ومملكته القريبة أعنى بدنه فمن نفسه لنفسه بسبب صفات هى مقارنة له تضاهى حجاب العين فى نفسه عند تغميض الأجفان •

٤ ــ أما الرابع : فلأن العين تدرك الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها بل قوالبها وصورها دون حقائقها • والعقل يتغلغل الى بواطن الأشـياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها وأنها مم خلق ؟ وكيف خلق ، ولم خلق ؟ ومن كم معنى جمع وركب وعلى أى مرتبة فى الوجـود يدل وما نسبته الى خالقه وما نسبته الى سائر مخلوقاته •

٥ ــ أما الخامس : فلأن العين تبصر بعض الموجودات اذ تقصر عن جميع المعقولات وعن كثير من المحسوسات • اذ لا تدرك الأصوات والروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى المدركة أعنى قوة السمع والبصر والشم والذوق بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح والسرور والغن والحزن والألم واللذة والعشق والشهوة والقدرة والارادة والتعلم الى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تعد فهى ضيقة المجال مختصرة المجرى لا تسعها مجاوزة الألوان والأشكال وهما أحسن الموجودات :

فان الأجسام فى أصلها أحسن أقسام الموجودات والألوان والأشكال فى أحسن أعراضها •

فالموجودات كلها مجال العقل اذ يدرك هـذه الموجودات التى عـددناها وما لم نعدها وهو الأكثر : فيتصرف فى جميعها ويحكم عليها حكما يقينيا صادقا فالأسرار الباطنة عنده ظاهرة والمعانى الخفية عنده جلية ، فمن أين للعين الظاهرة مسلماته ومجاراته فى استحقاق اسم النور ؟؟ كلا انها نور بالاضافة الى غـيرها لكنها ظلمة بالاضافة اليه بل هى جاسوس من جواسيسه وكله بأخس خزائنـه

وهى خزانة الألوان والأشكال لترفع الى حضرته أخبارها فيقضى فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب النافذ • والحواس الخمس جواسيسه وله فى الباطن جواسيس سواها فى خيال ووهم وفكر وذكر وحفظ ووراءهم خدم وجنود مسخرة له فى عالمه الخاص يستسخرهم ويتصرف فيهم استسخار الملك عبيده بل أشد • « عجائب القلب فى كتاب الاحياء » •

٦ ــ أما السادس : فلأن العين لا تبصر ما لا نهاية له فانها تبصر صفات الأجسام والأجسام لا تتصور الا متناهية •

والعقل يدرك المعلومات والمعلومات لا يتصور أن تكون متناهية نعم اذا لاحظ الحاضر فلا يكون الحاصل الحاضر عنده الا متناهيا لكن فى قوته ادراك مالا نهاية له •

فان أردت له مثالا فخذه من الجليات فانه يدرك الاعداد ولا نهاية لها بل يدرك مضعفات الاثنين والثلاثة وسائر الاعداد ولا يتصور لها نهاية ويدرك أنواعا من النسب بين الاعداد لا يتصور التناهى عليها بل يدرك علمه بالشىء وعلمه بعلمه بالشىء فقوته فى هذا الواحد لا تقف عند نهاية •

٧ ــ أما السابع : فلأن العين تبصر الكبير صغيرا فترى الشمس فى مقدار مجن والكواكب فى صورة دنانير منثورة على بساط أزرق والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة والعين ترى الكواكب ساكنة بل ترى الظل بين يديه ساكنا وترى الصبى ساكنا فى مقداره والعقل يدرك أن الصبى متحرك فى النشوء والتزايد على الدوام والظل متحرك دائما والكواكب تتحرك فى كل لحظة أميالا كثيرة كما قال صلى الله عليه وسلم لجبريل : « أزالت الشمس ؟؟ فقال : نعم قال الرسول : كيف زال منذ قلت • لا الى أن قلت نعم : قد تحرك مسيرة خمسمائة سنة » •

وأنواع غلط البصر كثيرة والعقل منزه عنها فاذا قلت ترى العقلاء يغلطون فى نظرهم فاعلم أن فيهم : خيالات وأوهاما واعتقادات يظنون أحكامها أحكام العقل فالغلط منسوب اليها •

أما العقل اذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط بل رأى الأشياء على ما هى عليه وفى تجريده عسر عظيم وانما يكمل تجرده عن هـذه النوازع بعـد الموت وعند ذلك ينكشف الغطاء وتتجلى الأسرار ويصادف كـل أحـد ما قـدمه • من خير أو شر محضرا ويشاهد كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وعنده يقال « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » •

وانما الغطاء غطاء الخيال والوهم وغيرهما وعنده يقول المغرور باوهامه واعتقاداته الفاسدة وخيالاته الباطلة « ربنـا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمـل صالحـا » ••

فقد عرفت بهـذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين بل بينهما فى التفاوت ما يصح معه أن يقال انه أولى بل الحق أنه المستحق للاسم دونه ••

وانتهى الغزالى الى نتائج هى :

١ ـ احترام العقل وتحـديد مجاله ، وأن تحامله وخصومته للفلاسـفة ليست من قبيل العـداء العقلى انمـا هـو ينكر على الفلاسفة الاسراف العقلى الذى لا غناء فيه •

٢ ـ تحـديد موضوع الفلسفة ونفى العلاقة بينها وبين الدين •

٣ ـ احترام العاطفة الدينية وحمل الناس على حبهم لدينهم •

٤ ـ اظهار ضعف الفلسفة الالهية بالوقـوف على تناقضها فيما وراء الطبيعـة •

٥ ـ الوحى هو أرقى أنواع المعارف فى المجال الدينى ، وتكاد تكون النتيجة تلك هى ما يقصده الغزالى لانه اتخـذ السبيل اليها عمليا ، ولقـد بددت تلك النتيجة الفكرة القائلة ((العقل ضـد الدين)) ، فأقوم تعبير خير من الضـدية هـذه والأقرب واقعية : هـو أن الدين طريقه الوحى وضرورى للعقل والأخـذ بالدين يغنى عن البحث فيما وراء الطبيعة فيتفرغ العقل لشئون الطبيعة • وما أطلقت عليه الفلسفة ((المشكلة الفلسفية)) تصبح بالدين عبادة وراحة نفسية •

تعقيب:

الغزالى هو أول من سحب ثقته من الفلسفة ، فهى عنده ليست علما برأسها بل هى أجزاء ، وأخذ يحدد مفاهيم تلك الأجزاء والعلوم ، « جـ ١ ص ٢٧ » الأحياء • وهذا التقسيم هو ما عرف فى عصرنا الحديث باستقلال العلم عن الفلسفة ، ونلاحظ أن الغزالى لم يقدم نقدا للعلوم محرما أو مستهجنا ، انما دعا اليها فى حرارة كما دعا الى الدين فى تحرق وما بدا منه من نقد فهو نقد بعيد عن العداوة وان كانت الرياضة موطن افتتان « ديكارت » مما شجعه على السير نحو الميتافيزيقا فان الغزالى لاحظ افتتان الناس بها ومن يقينها ، واشاد بذلك بيد أنه اتخذ طريقا آخر للوصول الى الميتافيزيقا فأصول الرياضة غير مبادىء الفلسفة وان كان من مميزات العصر الحديث اقتسام لكل قسم ما يخصه ، وما دام هناك اعتراف بالاشراق فالبحث الميتافيزيقى من ميزات الفلسفة واستقلال ما كان تحت جناحها حتى لم يتبق للفلسفة الا نظرية المعرفة والقيم الجمالية والأخلاقية والميتافيزيقا فان الغزالى نادى بتلك الدعوة اختصاص تلك المعرفة الاشراقية • فالذين يربطون تأخر المسلمين بآراء الغزالى ، وكان أعدل نظرا من علماء العصر الحديث لانه لما رأى للمعرفة أقساما رأى وبسبب دعوته الى الضعة من الفلسفة ، لا نشاركهم فى هذه النظرة لان الغزالى دعا الى الدين الصافى البعيد عن الرمزية والاسطورية ، ودعا الى العلم حيث أشاد بأقسام الفلسفة العملية ، وصحح أخطاء الفلسفة الالهية ، وهل تقدمت الحضارة الا باصطناع العلوم ، والحد من جدل الفلسفة ، وتصفية الدين من شوائب الكهنوتية، بذلك تقدمت الحضارة وما كان للعقل أن يتقدم لولا أنه اتخذ من التاريخ مددا ، وما كان للدين أن يكون كوثرا هنيا لو لم يكن له من الاشراق معراجا •

اذن فلابد من اعتماد الميتافيزيقا على الوحى والاسفار المقدسة وهذا هو ما ينبغى أن يفهم من دعوة الغزالى اذن فالعقل عند الغزالى عجز عن الوصول الى اليقين فيما وراء الطبيعة ، وشهد كتاب التهافت بهذا العجز ، اذ استطاع الغزالى عن طريق هذا الكتاب أن يبدد حجج الفلاسفة بالعقل — عقل الفلاسفة — فهل هذا العقل يمكن أن يؤمن به الانسان وبقدرته على الوصول الى حقائق ما وراء الطبيعة ؟

بقيت ملاحظة أخرى نقولها فى هـــذا التعقيب : يقول الدكتور « عمــر فــروخ » :

« اتهام ابن رشد للغزالى بأنه كان يتقول على الفلاسفة له وجه واذا نحن أردنا أن ندافع عن الغزالى فى ذلك لم يكن بامكاننا أكثر من أن نقول انه اعتمد فى ردوده على النقول وهــذه النقول هى التى كانت تتقول على الفلاســفة . أما بأن تنسب قول فيلسوف الى فيلسوف آخر ، وبأن تضيف الى نقــد من الفلاسفة أقوالا ليست من الفلسفة ، وهناك جانب آخر نستطيع أن ننصف فيه الغزالى هو : أن الغزالى من نطاق ردوده على الفلاسفة ــ لحماية العامة من شرور الفلسفة ــ لم يكن يأبه لنسبة القضايا الى فيلسوف دون فيلسوف آخر ، لقــد كان يهتم بتلك القضايا على أنها قضايا مقصودة لذاتها بقطع النظر عن الذين تنسب اليهم » .

واذا كان العقــل لا يستطيع الوصول وحــده الى عالم الغيب « فكيف » وأين الطريق ! ثم بعــد هــذه الرحلة الجادة الطويلة واشادته بها فى نفس الوقت قفل الغزالى يسأل عن الطريق قائلا : ان مرادى الحقيقة فمن أين التمسها ؟ ومن أين تنزلاتها فى بيانها ؟ ! .

الباب الثالث

مدى علاقة العقل باليقين

- الغزالى الالهى .
- كتاب الاحياء أثر جليل .
- العقل والحقيقة واليقين .

مدخــل الى التصــوف

ان ثقافة الامام الغزالى ترجع — فضلا عن الأحــداث التى عاصرته — بالضرورة الى تجربة باطنية تأملية نفــذ بها الى أغــوار النفس البشرية • اذا المجاهدات الباطنية لا تقل أهمية عن أنواع العلوم الأخرى ، ان لم تفقها قــوة ورصانة •

فان تشخيص الدواء للأدواء والعلل التى تسيطر على الانسان فتصارعه لتفتك به قــد يبدو التشخيص فى هــذه الحــال صعبا مع أنه يخص أمراضا جسدية • فما بالك بالأمراض الروحية فان الأمر والحال هــذه لأشد صعوبة • ومثل هــذه الأمراض ما تقاسى البشرية فداحتها اليوم وذاك ما تخصص فيه الصوفية الاعلام وما شملته دراساتهم فى خاطراتهم ، ومدارجهم ، وحكمهم •

وبالنظرة الأولى الى عناوين مؤلفاتهم قبل مطالعتها تجــد أنهم ينشدون تها الاخلاص المخلص وعليها طابع النور وتتخــذ منها الانسانية هــدى فى مسراها فنطالع مثلا :

- قــوت القــلوب •
- الرعاية لحقوق الله •
- احيــاء علوم الدين •
- الحــكم العطــائية •
- الطريق الى الله •

وتلك مشاكل تأسس فى سبيلها علوم ومناهج فكرية كان الهــدف منها ايجاد حلول مناسبة لمــا يقاسيه الانسان فازدادت المشاكل بدلا من أن تقل • وكان مرجع ذلك الى الانسانية التى أرادت أن تخضع علاج هــذه الأمراض الى عقاقير طبية ، لذلك بدا الأمر صعبا ، صعوبة شديدة ، فانتقلوا الى علاجهــا بالصدمات الكهربائية • وهــذا العلاج لا يخرج تأثيره عن مراكز الحس • ثم أخيرا وصلوا الى أشياء هى ما وصى به الرسل وحكماء الصوفية منها :

- **الكلمة الطيبة قــد تكون علاجا • قال تعالى « قول معروف ومغفرة خير من صــدقة يتبعها أذى » •**

● **الصمت والهـدوء قـد يكون علاجا قال تعالى : « لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم » • وغير ذلك مما هو اسلامى وتمسك به الصوفية •**

فالدعوة الصوفية دعوة تأملية لعلاج مشاكل العصر على نور الدين وعلى أساس التصور الالهى • لحقيقة الانسان •

فمهما بحث العلم فى الانسان • واتخـذ فى سبيل ذلك مختلف الأساليب فان الانسان مخلوق لله • والله وحـده يعلم طبيعته الحقيقية •

فان أثبت العلم أن الانسان يتأثر أو يتطور أو يتغير ••• ، فانه يرى ذلك مع أخـذه فى الاعتبار أن الانسان سر معقـد ، فى ولادته ، وفى وجوده ، وفى موته وبعـد موته •

ومهما حاول الانسان مسخ نفسه أو تشريح نفسه بنفسه ، فانه سوف يظل مع ذلك رضى أوكره : « عبد الله » •

وقـديما طرح القرآن سؤالا حـدد فيه معالم العقل البشرى وسوف يظل السؤال علامة استفهام خالدة يقرر العقل فيها ومنها سورة عجزه وأن سلطانه من سلطان الله وسوف تظل علامة الاستفهام تلك تحمل معجزة القرآن الخالدة من بين معجزاته الجمة وعلامة الاستفهام تلك هى المعبر عنها بقوله تعالى :

« ويسئلونك عن الروح ؟

قل الروح : من أمر ربى » •

هل استطاع العلم المعاصر أن يقدم طعنا أو اجابة على ذلك ؟

من ذلك تتقرر لنا حقيقة واحـدة وهى : أن تصوير الله للانسان تصوير ثابت لا يتغير تقـدم العلم أو تأخر ، أثبت ذلك أم لم يثبت •

فما لحق بنا من شقاوة معاصرة لا نراها ناتجـة الا من النظرة المعـاصرة للانسان والسلوك به مسلك « الآلية » مما جعل أحـد الفلاسفة يكتب كتـابا يعنونه بقوله الانسان آلة • أو قول بعضهم :

- الانسان : قرد جميل ٠
- القرد : انسان ممسوخ ٠

فاذا ثبت أن العلم تقـدم فى ناحية أو نواح فانه لم يتقـدم فى كل ناحية من هـذه النواحى :

- النفس الانسانية ٠

فهو عاجز عن فهمها وان حلق فى مجالات الفضاء ٠

والمناهج العلمية بما تحمل فانها عاجزة وهى فى عجزها تؤكد ان الانسان عبـد الله ٠

فاذا تقررت العبودية ٠ رضى أو كره ٠

وأنه مخلوق لله رضى أو كره ٠ ولن يستطيع شيئا خلاف ذلك ٠

فمن هنا كان الناس من أمر الصوفية فى خلاف وخلاف دائم ما دام هناك من يختلف حول عبودية الانسان لله ، ولله وحـده ٠

لان مبدأ عبودية الانسان لله ، هو منطلق الصوفية فمن رضى بذلك ، فهو يرى علاجه فى العبادة وتقوية صلته بالله ٠ وتلك حيوية الصوفية ٠

ومن كره فهو يزور بنفسه عن محراب الأمن والسعادة ويرث بنفسه الشقاوة بالابتعاد عن الله ٠ وتلك قسوة الانسان على نفسه ٠

من هنا كتبنا على أنفسنا مطالعتهم والتريض برياضتها فى رياضهم لنأنس بقـوله تعـالى :

« الا بذكر الله تطمئن القلوب » ٠

الغـزالى الالهـى

العنوان ليس فيه مبالغـة انما هـو يمثل جانبين من جـوانب الامام الغـزالى همـا :

١ — جانب فكرى .

٢ — جانب صحى .

وكلا الجانبين عرضا للامام الغزالى وأعجزا الامام دفعهما والتمس لدفعهما وسائل العقل ومقاييس المنطق . وأساليب الطب ، ثم لمـا لم تفـد تلك الوسائل تساءل قائلا : ما قيمة العقل ؟ ما قيمة المنطق ؟ ما قيمة الطب ؟ .

اذن ومن أى طريق التمس الشفاء ؟ ، فقال عندما ألم به داء الشك :

« فأعضل هـذا الداء قريبا من شهرين على السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطـق والمقـال »(١) .

طريق الشفاء : « حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الأدلة العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين » .

هـذه الاضطرابات الفكرية خرج منها الامام الغزالى ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام (بل نور قـذفه الله تعالى فى الصدور وذلك النور هـو مفتاح أكثر المعـارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقـد ضيق رحمة الله الواسعة) ، فالضروريات العقلية أصبح موثوقا بها بسبب النور الذى قـذفه الله .

ثم قال واصفا المرض الحسى : (فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها ثمان وثمانون وأربعمائة ، وفى تلك الأشهر جاوز الأمر حـد الاختيار الى الاضطرار اذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهـد نفسى أن ادرس يوما واحـدا تطييبا لقلوب المختلفـة الى ، فكان ينطق لسانى بكلمة واحـدة ولا أستطيعها البتـة حتى أورثت هـذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب أبطلت معه قوة الهضم ومراءة

الطعام والشراب فكان لا ينساغ ثريد ، ولا تهضم لى لقمة ، وتعــدى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العـــلاج وقالوا : هــذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم المـــــلم(٢) •

مرضه أعيا الأطباء ويئسوا من العلاج ، فكأن المعارف البشرية التى تعتمد على العقل التجريبى والتى من شأنها اصلاح ما أصاب الغزالى يئست وقالت كلمتها ، فهل يئس الغزالى الذى خرج من محنة الفكر وقلق الحياة ؟ مع أن القلق الفكرى أشد من القلق الجسدى المـــادى ؟ •

اذن وضح عجز العقل التجريبى عن العلاج وأعلن عجزه وسجل هـــــذا العجز كما رأينا فى نص الامام (لا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتراوح السر عن الهم المـــلم) ، فهل يئس الامام •••• لم ييأس الامام لانه قــد خبر العقل فهو أعرف بالعقل من الأطباء الذين لاحظ لهم من العقل الا مدونة الطب والتجربة الصالحة فقال (ثم لمـــا أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمـــال والأولاد والأصحاب) •

- شفاه الله من الشك •
- وشفاه الله من المرض •

هـــذا مع التماسه الطرق الى الشفاء والبحث عنه فلم يتواكل انه كان نمطا من الاجتهاد والعبقرية انه وبالتماسه شتى الطرق نتبين بوضوح أنه لم يكن ذا نزعة زهـــدية فاذا كان ذلك هو ما كان عليه الامام ، فلماذا لا ندعوه بالغزالى الالهى وهو أحرى بهـــذا اللقب وذلك على ما أعتقد ناتج من كون الغزالى صاحب عقيدة اسلامية صافية •

- فمن أخرجه من الشك ؟ •••• الله •
- ومن ألبسه ثوب العافية ؟ •••• الله •

- وأليس الاطمئنان الفكرى نعمة ؟ واستعادة الصحة نعمة ؟ فمن أين تلك النعم ؟ من الله •

وبالرغم من أن الغزالى كان الهيا فى مرضه وشفائه واعترته حال لا تعترى الا القلائل من رجال التصوف المتشككين بالرغم من كل ذلك •

لا نقول كما يقول الكثيرون ان ما ارتضاه الغزالى لنفسه من مذهب التصوف كان ارضاء للنزعة الدينية التى كان هـو عليها وأسرته وأشياخه ، وفى نفس الوقت مهربا له من الفكر والحياة واستسلاما لمـا أصابه من المرض ، لا نقول مثل ذلك لأننا لو اصطنعنا الاناة ، واستعرضنا حياة الامام الغزالى العامة كما رأينا دون تعمق فى الجزئيات وخوض فى التفاصيل لنلاحظ أن الامام درس معارف عصره فأحسن الدرس ، وفهم فأتقن الفهم ، كما رأينا ، وبلغت شهرة الامام الغزالى العلمية أن حملت نظام الملك ليرسل الى الغزالى ليدرس فى المدرسة النظامية وما له من مؤلفات مثل هـذا لا يستسلم لمذهب الا عن فكر أطمأن اليه ووثق به وقلب بصير ثبت عليه كما رأينا من دراساتنا ، وكما رسم نفسه فى كتابه المنقـذ من الضلال وجهاده الطويل فى المعارف البشرية وما ألم به من الشك الشك فى آلات المعرفة ، بطبيعة الحال ، الشك فى المعارف الذى استلزم •

١ ـــ الشك فى الحواس كآلة للمعرفة •
٢ ـــ الشك فى العقل ثم حـدود معرفته •

ولقـد كان طريق العقل طريقا ، فسار مع الدراسات العقلية الى نهـاية المطاف فى دروب التراث البشرى وشعابه :

* علم الكلام وما فائدته وما قيمته •
* الفلسفة وأقسامها وما قيمتها وفائدتها •
* الباطنية وأنها غير طريق العقل والدين •

ثم طريق المعرفة الاشراقية مع عقد باب خاص عن النبوة وكيف أنها أرقى أنواع المعارف والتصوف من طريقها أى طريق الاشراق ، فالغزالى غلب طريق التصوف على غيره لا دروشة ولا عجزا ولا مهربا مما ورط نفسه فيه بل غلبه بعـد مقارنته بغيره ، ودرسه للتراث البشرى والدينى فكان طبيعيا أن يكون التصوف طريقه ومذهبه كنتيجة حتمية لدراساته الواسعة وتفضيله المعرفة الاشراقية على غيرها من المعارف وان الأنبياء بالتالى هم أرقى الناس لمـا يتنزل عليهم من المعارف الدينية •

فاذا كنا لاحظنا أنه قـدم نقـدا للحواس مما قلل من شأنها والاعتماد عليها وحدها ، ولاحظنا أنه قدم نقـدا للعقل فى غير موضع حتى جعله مشكوكا فيه ومعارفه ؛ فاذا لاحظنا ذلك وثبت لنا أن القضية التى ينشدها الغزالى هى : كيف الوصول الى العالم المستور بطبيعة الحال لابد أن يرد هـذا السؤال :

ما هـو الطريق الى ذلك ؟ وما هى المعرفة الكاملة التى لا يرقى اليها شك فى عرف الامام ؟ أنه طريق التصـوف ومعرفة الاشراق والنبوة أرقى هـذا الطريق وأعلى درجاته ! ٠

وهكذا نرى اختياره قام أساسه على بحث علمى نشأ عن الدراسة المنهجية الواضحة ، فاختياره التصوف لجـأ اليه كنتيجة طبيعية أو ضرورية وكحل شاف وكاف فى نفس الوقت لمـا انتابه من شك فى عجز الانسان عن الوصول الى عالم المغيبات ، وأيضا لو راجعنا تاريخ المتصوفة والأسباب الداعية للتصوف ، وجاز لنا أن نعتبر أن للتصوف أسبابا خارجية لكان عصر الغزالى وما لابسه من ظروف هو أولى العصور لان يزدهر فيه التصوف ٠

ففى هـذا العصر تكاثرت الانقلابات السياسية ، وأصبح مفهوم الخلافة غير واضح ، حتى عند الخلفاء أنفسهم لانهم عرفوا الطريق للخلافة بالرشـوة والارتشاء وبلغت المهـانة الى أن أصبح أخو الخليفة يدبر قتل أخيه فأدى ذلك بالطبع الى أمور منها :

* التهوين من شأن القيم الاسلامية والأخلاقية ٠

* الاستبداد وفرض الرأى على من هم أنصع فكرة وأقرب وعيا للاسلام ٠

* التأويل الخارج عن حـد الاعتدال — المفهوم للكتاب والسنة — ولقـد أفصح الغزالى عن بعض ذلك الخاص بالدين فقال :

« ٠٠٠ ولم يبق الا المترسمون وقـد استحوذ على أكثرهم الشـيطان واستغواهم الطغيان وأصبح كل واحـد يعاجل حظه مشغوفا فصار يرى المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ٠ حتى ظل علم الدين مندرسا ، ومنار الهدى فى أقطاره منطمسا ، ولقـد خيلوا الى الخلق أن لا علم الا :

١ — فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغــــام •

٢ — أو جــدل يتذرع به طالب المباهاة الى الغلبة والافحام •

٣ — أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ الى استدراج العوام[٣] •

فذلك ماذكره وهــو واضح •

ويقول القشيرى • « اعلموا أن المحققين من هــذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هــذا من هــذه الطائفة الا أثرهم كما قيل :

أما الخيــام فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هــذه الطريقة •• ، لا ، بل اندرست الطريقة بالحقيقة : مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحل عن القلب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات والارتفاق بما يأخــذونه من السرقة والنسوان وأصحاب السلطان •

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هــذه الأفعال حتى أشاروا الى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا من رق الاغلال وتحققوا بحقــــائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية »[٤] •

فاذا تناصرت تلك الأسباب الخارجية مع الصفات الأساسية التى غمرت نفس الغزالى مثل الاحساس الدينى ، والخوف الشديد من الله والتفويض التام له ، والخضوع لارادته ، كما رأينا فى الغزالى الالهى تأكد لدينا أن تصــوف الغزالى نتيجة طبيعية أيضا لظروف عصره وظروف حياته ولا سيما الناحــية الدينية التى كانت تتطلب زعيما تقيا •

الامام الغزالى بين العلم والعمل :

فخاض الغزالى تجربة التصوف قائلا :

« ثم أنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يوتصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبى طالب المكى — رحمه الله — وكتب (الحارث المحاسبى) و (المتفرقات المأثورة عن الجنيد) ، و (الشبلى) ، و (أبى يزيد البسطامى) قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشبع ، وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان : وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر ، وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء ، والصاحى يعرف حد السكر ، وأركانه ، وما معه من السكر شيء ، والطبيب فى حالة المرض ، يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته : ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معى — من العلوم التى مارستها ، والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية — ايمان بقينى بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر .

فهذه الأصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت فى نفسى لا بدليل

معين محرر ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها • وكان قــد ظهر عندى أنه لا مطمع فى سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى • وأن رأس ذلك كله • قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى • وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمــال والهرب من الشواغل والعلائق •

ثم لاحظت أحوالى : فاذا أنا منغمس فى العلائق ، وقــد أحــدقت بى من الجوانب • ولاحظت أعمالى — وأحسنها التدريس والتعليم — فاذا أنا فيهـــا مقبل على علوم غير مهمة • ولا نافعة فى طريق الآخرة • ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى • بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت : فتيقنت أنى على شفا جرف هار • وانى قــد أشفيت على النار ان لم اشتغل بتلافى الأحوال •

فلم أزل أتفكر فيه مدة ، وأنا على مقام الاختيار ، وأصمم العزم على الخروج من بغــداد ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقــدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى سلاسلها الى المقام ، ومنادى الايمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر الا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل ، رياء وتخييل ، فان لم تستعد الآن للآخرة ، فمتى تستعد ؟ • وان لم تقطع الآن هــذه العلائق فمتى تقطع ؟ • فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار •

ثم يعود الشيطان ويقول : هــذه حال عارضة ، واياك أن تطاوعها ، فانها سريعة الزوال فان أذعنت لها • وتركت هــذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافى عن منازعة الخصوم وربما التفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة • فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها • رجب سنة ثمان وأربعمائة وفى هــذا الشهر جاوز الأمر حــد الاختيار الى الاضطرار • اذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطبيبا لقلوب المختلفة الى • فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحــدة ولا أستطيعها البتة • حتى أورثت هــذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قــوة الهضم

ومراءة الطعام والشراب • فكان لا ينساغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى الى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا :

هــذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى الى المزاج • فلا سبيل اليه بالعلاج الا بأن يتروح السر عن الهم الملم • ثم لمــا أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمــال والأولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغــداد على عزم ألا أعاودها أبدا واستهدفت لائمــة أهل العراق كافة اذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الاعراض عما كنت فيــه سببا دينيا ، اذ ظنوا أن ذلك هــو المنصب الأعلى فى الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم •

ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات وظن من بعــد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهــة الولاة ، وأما من قرب من الولاة ، وكان يشــاهد الحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب على ، واعراضى عنهم وعن الالتفات الى قــولهم ؛ فيقولون : هــذا أمر سماوى وليس سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العــــلم •

ففارقت بغــداد وفرقت ما كان معى من المــال ولم أدخــر الا قــدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين ، فلم أر فى العالم ما لا يأخــذه العالم لعياله أصلح منه • ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لى الا العزلة والخلوة والرياضــــة والمجاهــدة : اشتغالا بتزكية النفس وتهــذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية • فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى •

ثم رحلت منها الى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحركت فى داعية فريضة الحج واستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعــد الفراغ من زيارة الخليل صلوات

الله عليه فسرت الى الحجاز ، ثم جـذبتنى الهمم ودعوات الأطفـال الى الوطن فعاودته بعـد أن كنت أبعـد الخلق عن الرجوع اليه .

فآثرت العزلة به أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعـاش تغير فى وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة وكان لا يصفو لى الحال الا فى أوقات متفرقة لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها فتدفعنى عنها العوائق وأعود اليها . ودمت على ذلك مقـدار عشر سـنين » .

نتـائج :

« وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى أذكره لينتفع به : لأنى علمت يقينا أن الصوفية هم السـالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم خاصـة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . بل لـو جمع عقـل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوا بما هـو خير منه ، لم يجـدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها ـــ وهى أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها ـــ الجارى مجرى التحريم من الصلاة ـــ استغراق القلب بالكلية بذكر الله . وآخرها الفنـاء بالكليـة فى الله ؟

وهـذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهى على التحقيق أول الطريقة وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه . ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد .

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنهـا نطاق النطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطأ صريح

لا يمكنه الاحتراز عنه • وعلى الجملة ينتهى الأمر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ • وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب « المقصد الاسنى » بل أن من لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد علىأ ن يقول :

وكان ما كان ، مما لست أذكره فظن خيرا ، ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة : فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق ، فليس من حقيقة النبوة الا الاسم • وكرامات الأولياء — على التحقيق — هى بدايات الأنبياء • وكان ذلك أول حال رسول الله عليه الصلاة والسلام — حيث تبتل حين أقبل الى جبل « حراء » حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب : ان محمدا عشق ربه ، وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها •

فمن لم يرزق الذوق : فيتيقنها بالتجربة والتسامح ان أكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقينا ومن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان • فهم القوم لا يشقى جليسهم • ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم امكان ذلك يقينا بشواهد البرهان على ما ذكرناه فى كتاب « عجائب القلب » من كتب احياء علوم الدين •

والتحقيق بالبرهان علم •

وملابسة عين تلك الحالة ذوق •

والقبول مع التسامح ، والتجربة ، بحسن الظن ، ايمان •

فهذه ثلاث درجات : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** » •

ووراء هؤلاء قوم جهال : هم المنكرون لأصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ويسخرون ، ويقولون : العجب أنهم كيف يهذون ، وفيهم قال الله تعالى : « **ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا**

للذين أوتوا العلم • ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » ••• فأصمهم ، وأعمى ابصارهم •

ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم • حقيقة النبوة ، وخاصيتها ، ولابد من التنبيه على أصلها ، لشدة مسيس الحاجة اليها » •

هـذه النصوص تفيدنا أن الغزالى عالم نفسى استطاع أن يروض نفسه ليسلك الطريق ثم انكشف له أن الحقيقة هى حقيقة النبوة وبذلك أجاب عن حقيقة العلم •

يقول نيكلسون :

« وان ما ذكره الغزالى عن حياته الصوفية لا يدع مجالا للشك فى أنه وجد فيها المعرفة اليقينية التى كان ينشدها وأن الفضل فى وصوله الى هـذه المعرفة كان للتصوف دون غيره ، ولكن الغزالى لم يكن صوفيا وحسب وعلى الرغم من أن تعاليمه الدينية والأخلاقية تستند الى أساس من التصوف ، وأن كتاباته مفعمة بالأفكار الصوفية ، ولكنه لو كان صوفيا فحسب لما استطاع أن يكتب ما كتب ، فان استخدام أساليب الفلسفة النقـدية للبرهنة على ان الدين أمر طبيعى للانسان من حيث هـو انسان وأن جميع القوى التى اختص بها الانسان تصدر عن قـوة ليست من معدن هـذا العالم و لا من طبيعته وهى القوة التى يفضلها بل يستطيع الانسان الاتصال بعالم الحقيقة ، وأن الشعور الدينى فى أكمل مظاهره — كشعور الأنبياء والأولياء — له أصوله فى الطبيعة الانسانية بالرغم من أنه من الأمور التى يستعصى على العقل الانسانى فيهما وهـذا المعنى وارد فى كتب الصوفية المعروفة فى مثل قولهم : « خلق الله آدم على صورته » ، وقولهم : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ، غير أن الغزالى بدلا من أن يعتبر المسألة سرا من أسرار الله التى لا يبيحها الا للخاصة من عباده عالجها على أساس سيكولوجى واسع وبحثها بطريقة ترضى عنها عقول جميع الطالبين للحقيقة كما ترضى عنها نفوسهم •

وفى هـذا تظهر قوته ولكن ربما يظهر فيه ضعفه أيضا ، فانه يكاد يغفل ناحيته الشخصية اغفالا تاما أو بعبارة أخرى لا تكاد تعبر شخصيته عن نفسها ناطقة بما تحس به مباشرة من احساس دينى • هـذا اذا استثنينا الفقرات

الخاصة الواردة فى كتابه « المنقذ » أما حياته الروحية بعد مفارقته بغداد فلا يكاد يخبرنا عنها بشىء به أسدل الستار على مسرح هذه الحياة ، واكتفى بأن أخبرنا أنه انكشف له أمور لا يستطيع ذكرها ولا وصفها ثم ذكر فى ايجاز المراحل التى يقطعها السالك فى طريقه الى مقام القرب من الله .

وقد كتب فى السنوات الأخيرة عالم ألمانى شاب يقارن شخصية الغزالى وشخصية القديس أوغسطين ، ويقابل مقابلة طريفة وفى ذلك يقول ان شخصية أوغسطين قد كملت عن طريق الاتصال الروحى الوثيق الذى كان بينه وبين الله من جهة ، وبينه وبين المسيح من جهة أخرى ، بينما انتهت حياة الغزالى الروحية باعترافه بحقيقة النبوة وتسليمه المطلق بأوامر الدين وفى رأى هذا الكاتب أيضا أن الغزالى عندما يتحدث بلهجة الاعجاب والثناء عن فضائل النبى محمد لم يتجاوز فى وصفه اياه أنه كان معصوما من الخطأ فيما آتى به وأن ما أنزل عليه فى الوحى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه على علم لا يتطرق اليه شك ولا نقد من لدن الله مؤيدا كل هذا بما اشتهر به النبى من كريم الصفات والأخلاق ، ولكنه يبدو عليه التثبت بالمنهج النظرى العقلى فى الوقت الذى نجد فيه أوغسطين يعلن من أعماق نفسه ما يحس به من شعور دينى ، نعم من الحق أن نقول ان الغزالى خطا خطوة فى ميدان « التجربة » التى تتجاوز طول العقل ، ولكن لم يكن لشخصيته من القوة ما تستطيع به المضى فى هذا الطريق الى النهاية ، ولذا كان يرجع ادراجه دائما الى النقطة التى ابتدأ منها : وهى مسألة العلم اليقينى الذى لا يتطرق اليه شك وربما كانت هذه هى المأساة الحقيقية فى حياته(٣) .

لقد أحاط نيكولسون بما رمى اليه وليس لنا تعقيب عليه الا بكلمة يسيرة وهى « أن منع الغزالى من التحدث عن حياته الروحية » خوفه من الضلال والاضلال ولا يستطيع معبر ما أن يعبر عن حالة الفناء بالكلية فى الله الا ويشتمل تعبيره على لفظ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ينتهى الأمر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول .. كل ذلك خطأ وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب « المقصد الأسنى » بل الذى لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فالذى منع الغزالى عن الكلام اعتقاده أن طريق التصوف ما توزع الى طوائف الا تبعا لشطحاتهم • ولو أخذ المتصوفة بعده بهذه النظرية لما رافقتهم مقالات المفكرين ولا أضلنا تفسير اتحادهم وحلولهم ، ولما بعد البون بين الشريعة والحقيقة بيد أننا نكون فى نفس الوقت فقدنا تراثا أدبيا يزاحم الأدب العالمى غنيا بالخيال والروحية • وقال « جولدزيهر » فى تقدير شخصية الغزالى « وكان من نتائج تحرره من هذه الاتجاهات والتيارات التى أدرك شدة ما تجلبه من ضرر ومفسدة بالمثل العليا الدينية فى الحياة العلمية والعملية أن أخرج للناس كتبا محكمة رصينة خالف فيها أسلوب الفقهاء المزهوين بعلمهم وعرض منهاجا منسقا متماسكا رأى وجوب الأخذ به لاعادة بناء العلوم الاسلامية كما أن مباحثه الأخرى التى هى أقل بسطا وتفصيلا كشف فى عبارة قوية أخاذة بعض نواحى فكرة الدين ، وقد عالج الأحكام والسنن الشرعية من هذا الوجه وبهذه الروح فى مؤلفه الضخم الكبير الذى توج بهذا العنوان الفاخر « احياء علوم الدين » لوثوقه بقيمته فى الاصلاح والتهذيب ولاقتناعه بأن العناية قيضته ليبعث فى الرفات الهامدة للفقه الاسلامى الرسمى حياة جديدة •

وقد حذا حذو من سبقه من المصلحين وجعل نفسه من زمرتهم لأنه اجتنب الاستعانة بفكرة التجديد ولم يعتبر عمله تجديدا وانما هو اعادة السنن القديمة الى حالها الأول ، تلك السنن التى تطرق اليها التغيير والفساد فى العصور التالية كما اتجه نظره فى حماسة واعجاب الى الحياة القلبية الصادقة المفعمة بالايمان التى كان يحياها المسلمون فى عصور الاسلام الأولى وعزز انتقاده واستنكاره بما ساقه من الأمثلة المستخلصة من عصر الصحابة ، وبهذا جعل مذهبه متفقا مع السنة ، انه فى الجو الدينى الذى أحاط بعصر الصحابة لم يرتكز الدين على الحكم الجدلية أو الدقائق الفقهية ولذا أراد الغزالى أن يخلص الأمة الاسلامية من ضرر الزخارف الكمالية من الزيادات الثانوية المفسدة للروح الدينية وأن يقوى الأثر التهذيبى للشريعة التى تعامى الناس عن مقاصدها وغاياتها •

وهكذا بدلا من شعور الاستنكار الصامت الضعيف الأثر الذى ملأ نفوس الصوفيين ممن غمرتهم الفيوضات الربانية وتوثقت الصلة بينهم وبين مريديهم المخلصين ونأوا عن مسلك السنة الواضحة جاحدين الرسوم الدينية الجامدة والعقائد اليقينية الجافة •

نهض فقيه من فقهاء السنة الاعلام وهو الغزالى الذى رفع صوت احتجاجه عاليا مستنكرا ما أصاب الاسلام من تحريف وانتكاس بسبب أخطاء أعلام الفقه وضلالات أساطين الكلام ، وما حظى به الغزالى من توقير واحترام فى كافة البيئات الاسلامية كفقيه سنى ساعد كثيرا على أن تكلل محاولته بالنجاح . ولم يصادف عمل هذا الفقيه الجليل القدر معارضة الا من جانب القوم الذين تعرضت مكانتهم الدينية الرفيعة للخطر بشكل جدى فلم تحدث هذه المعارضة الا مرة واحدة وكان ذلك فى الأندلس حيث قامت جماعة من الفقهاء لم يحتملوا الحط من مقامهم فأوقدوا النار لاحراق كتاب الاحياء غير أن هذا لم يكن سوى مقاومة عارضة لم يكن لها أثر دائم كما أن أهل الأندلس أنكروا ما صنعه فريق من فقهائهم ، وأن ما بذل من محاولات يائسة قصد بها منع تداول هذا الكتاب لم يحل دون انعقاد اجماع السنيين على أن ينقشوا على لوائهم مذهب الغزالى بعد ذلك بزمن قصير وأن يحيطوا شخصيته بهالة القداسة كما أحياه الخلف اعترافا بفضله بلقب (محيى الدين) و (المجدد) الذى أرسله الله تعالى لتفادى ذهاب ريح الاسلام فى فترة الانتقال المضطربة الواقعة فيما بين القرنين الخامس والسادس فى حياة الاسلام . وقد عد الاحياء كأنه أبدع كتاب ألف فى العلوم لاحاطته بها احاطة دقيقة حتى قيل فيه (كاد الاحياء أن يكون قرآنا) واعتبرت السنة الاسلامية الغزالى حجة ثقة يحتج به ولآرائه فصل الخطاب وصار اسم الغزالى شعارا لتوحيد الصفوف فى سبيل مكافحة الميول المعادية للاجماع ، كما أصبحت جهوده وتآليفه بعض أحجار الزاوية العظيمة الخطر فى تاريخ الاسلام التهذيبى والخلقى .

كتاب احياء علوم الدين أثر جليل :

اذا كان « جولدزيهر » لاحظ كتاب الاحياء وماله من مكانة بين المسلمين وأنه هو الذى رفع من ذكر الامام ولا يتحدث المتحدثون عن الجانب الروحى الذى غمر الامام الا ويتحدثون عن كتاب الاحياء فنحب أن نقول كلمة عنه :

عرض الغزالى فى مقدمته لكتاب الاحياء الى منهجه وغايته وموضوعاته وسبب تأليفه .

فقال : أحمد الله أولا حمدا كثيرا متواليا وان كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين .

وأصلى وأسلم على رسوله ثانيا صلاة تستغرق مع سيد البشر سـائر المرسـلين •

واستخيره تعالى ثالثا فيما انبعث له عزمى من تحرير كتاب فى احياء علوم الدين وانتدب لقطع تعبجك رابعا •

سـبب تأليفـه :

أيها العاذل المتغالى فى العذل من بين زمرة الجاحدين ، المسرف فى التقريع والانكار من بين طبقات المنكرين الغافلين ، فلقـد حل على لسانه عقدة الصمت وطوقت عهدة الكلام وقلادة النطق ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق ، مع اللجاج فى نصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشغيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ، ومال ميلا يسيرا عن ملازمة الرسم الى العمل بمقتضى العلم طمعا فى نيل ما تعبده الله من تزكية النفس واصلاح القلب ، وتداركا لبعض ما فرط من اضاعة العمر يأسا عن تمام التلاف والجبر ، وانحيازا عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه : ((أشد الناس عـذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه)) ، ولعمرى انه لا سبب لاصرارك على التكبر الا الداء الذى عم الجم الغفير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة دورة هـذا الأمر والجهل بالأمر اد ، والخطب جـد ، والآخرة مقبلة والدنيـا مدبرة ، والأجل قريب ، والسفر بعيد ، والزاد طفيف والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقـد البصير رد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثير القوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكـد • فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقـد شغر منهم الزمان ، ولم يبق الا المترسمون وقـد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحـد بعاجل حظه مشغوفا فصار يرى المعروف منكرا والمنكر معروفا حتى ظل علم الدين مندرسا • ومنار الهـدى فى أقطار الأرض منطمسا • ولقد خيلوا الى الخلق ألا علم الا :

- فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغاة •
- أو جـدل يتدرع به طالب المباهاة الى القلب والافحام •

● أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ الى استدراج العوام ٠

اذ لم يروا ما سوى هـذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام ٠

غايتـه :

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه فى كتابه : فقها ، وحكمة ، وعلما ، وضياء ونورا ، وهـداية ، ورشدا ٠ فقـد أصبح من بين الخلق مطويا وصار نسيا منسيا ولمـا كان هـذا علما فى الدين ملما ، وخطبا مدلهما ٠

رأيت الاشتغال بتحرير هـذا الكتاب مهما :

● احياء لعلوم الدين ٠
● وكشفا عن مناهج الأئمـة المقـدمين ٠
● وايضاحا لمناحى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين ٠

منهجـه :

وقال قـد أسسته على أربعة أرباع وهى :

● ربع العبـادات ٠
● ربع العـادات ٠
● ربع المهلكات ٠
● ربع المنجيـات ٠

ثم قال : وصدرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم لاكشف :

أولا : عن العلم الذى قصده الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بطلبه اذ قال رسول صلى الله عليه وسلم : (طلب العلم فريضة على كل مسـلم) ٠

ثانيا : وأميز فيه العلم النافع من الضار اذ قال صلى الله عليه وسلم : (نعوذ بالله من علم لا ينفع) •

ثالثا : وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب وانخداعهم بلامع السراب واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب[7] • ثم نقول :

أولا : لقد أراد الامام الغزالى بمؤلفه ذلك العظيم العود بالمسلمين الى العصر الأول المشرق عصر الرسول وخلفائه ، وما أراد ذلك حلما وخيالا وانما كان يرى أن واقع الاسلام نفسه هو الذى سيخفف من بلاء المسلمين وهو الذى سيقدم الحلول المناسبة للمشاكل التى ألمت بالعالم الاسلامى • كان الغزالى يرى ذلك وهو حق فكتب مؤلفه الضخم — احياء علوم الدين — وكانت دعوة الغزالى صالحة لان تنمو فى ذلك الحقل وكان الحقل خصبا بيد أن المجتمع الاسلامى فقد القيادة الصالحة •

وذات يوم استبد بالمجتمع الاسلامى هجس الخواطر فأمعن السير فى متاهات الفكر الميتافيزيقى « عالم الغيب » وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل تعداه الى متاهات اللفظ • هذا التداعى الفكرى كان الغزالى يراه أنه ناتج من البعد عن دستور الاسلام ، ومن ناحية كانت القيادات التى تمتعت بالسيطرة على العالم الاسلامى لم تكن متمتعة بالكفاءة ومن أعطى الكفاءة والعبقرية كانت حال العصر وما فيه من موجات غير مستقرة نتيجة لما ساد العصر من أنماط فكرية زائفة ضالة لا تحترم هؤلاء القادة ، فلذلك كثرت الاغتيالات من غير شرف الفداء • فمن أهم ما كان يصبو اليه الامام الغزالى من وراء دعوته المتضمنة فى كتابه الاحياء ربط الأمة بسلفها الصالح ومصدر ثقافتها الكتاب المقدس النبأ العظيم وحكمة النبوة وربط الزمن ماضيه وحاضره هذا من ناحية •

ثانيا : ومن ناحية أخرى لا شك فى أن كتاب احياء علوم الدين يعبر بوضوح عن منهج الغزالى الدينى وكما يظهر من عنوانه أن الغزالى أراد احياء الدين باحياء القلوب وهو فى نفس الوقت أيضا يفيد أن الغزالى كان صاحب عاطفة دينية ولا سيما اذا ذكر اسم كتاب آخر ألفه الغزالى هو تهافت الفلاسفة •

فاذا لوحظ تهافت الفلاسفة بجانب احياء علوم الدين يتداعى الى الخاطر أنوان الحماس والنشاط العلمى ، فكلمة تهافت تثير حملة الغزالى الهادمة الساخرة وفى نفس الوقت دوافعه أى ليست حملة مجنونة دعا اليها العجز العلمى ليس الأمر من قبيل ذلك .

فاذا كان الامام الغزالى قد بلغ من قدرته أن وقف من الفلسفة والفلاسفة موقف الند للند ولا يرى فى التلفيق منهجا ، فاذا كان ذلك موقف الامام الغزالى من الدراسات العقلية التى زاحمت الدين .

اذن فما رأى الامام فى الدين :

لقد عبر عن ذلك كتابه الاحياء فالاحياء هو الغزالى .

هو الغزالى تصراحة ووضوح وحياة والتهافت هو أيضا الغزالى الدارس الذى أراد بمنطقه أن يسقط الفلسفة الالهية وهيهات للفلسفة الالهية أن تعبر عن الحقيقة اليقينية ، فالذى أثبت التهافت هو الامام الغزالى ، فهو اذن ليس من المتهافتين ، واذا كان التهافت يدل على حماس صاحبه فان كلمة احياء فيها انفعال التجديد .. — « تجديد » الوعى الدينى .

فاذا كانت الدراسات التى قام بها الغزالى وانتهت به الى هذه النتائج يلمس منها الباحث تعصب الغزالى لنشأته المنزلية والمدرسية معا فاننا قبل الانتهاء الى هذا الحكم وتلك النتيجة نكون قد تأكدنا من أن الغزالى قد هضم الفلسفة واستساغها وذاق الدين وأوغل فيه ، وجمع بأطرافه المعنية له جميعا ، وهذا مما يجعلنا نجل الغزالى مؤمنين بنشاطه العلمى فانه لم يدخر وسعا راكنا الى الراحة كلالا من العلم ، فاذا تحققنا من ذلك وهو حق فان رميه بالتعصب اساءة منا الى الغزالى . وحسب الامام الغزالى « التهافت والاحياء والمنقذ » على روحه وهمته العلياء .

علاقة اليقين بالعقل

ـ العقل والحقيقة واليقين فى مجال الفكر :

هـذه مشكلة الحيرة •

ان تاريخ الفلسفة حافل بألوان شتى من الفكر •

العالم مم تكون ، ومن الذى كونه ، وما موقفى من هـذا العالم ؟

وهكذا سار الفكر فى دروب الاستفهام • يتيه فى أبعاد الأبعاد •

ثم يعـود ليسأل :

هل هـذه الاستفهامات لقيت الحلول ؟

يجيب علينا التاريخ الفكرى للانسانية : لقـد لقيت هـذه الاستفهامات العريضة الحلول المناسبة فى منطق مغر • بيد أن المشكلة لم تكن فى ايجـاد الحلول بل كانت تأخـذ شكل سؤال آخر هو : لم أقبل هـذا الحل ؟؟ لتطل الحيرة برأسها من جـديد •

لقـد قـدم الدين الحلول المناسبة لأسئلة شتى كما رسم أسئلة تحمل تحـديا للفكر الانسانى فى مختلف العصور لا تعجيزا للفكر ولا تهوينا للمشكلة انما هـو رسم لمنهاج فلسفة هو أن الفكر الانسانى : فكر انسانى • ولست أبغى من وراء ذلك عوجا بل أعنى حقيقة من وراء ذلك هى :

أن الفكر الانسانى محـدود وليس عاجزا فاذا تأكدنا من الفرق بين المحدود والعاجز استطعنا أن نوقف من تيار الحيرة لان ما قـد يعجز عنه اليوم يقـدر عليه غـدا ولقـد أثبت التاريخ الفكرى هـذا الفرق فهناك مشكلات عالم الغيب ولا سيما الروح فهى قـديمة قـدم الانسانية تواتر الفلاسـفة على تسميتها مشكلات ما بعـد الطبيعة ولا نرى فى هـذا الا تحـديدا للعقل الانسـانى •

لذلك قـدمت الفلسفة حلولا •• وأنا لا أحب أن أقـدم تقويما عاما لحلول الفلسفة • وانما أحب أن ألمس جانبا يجب أن نوليه أهمية فى نظرنا •

ما عمل الفلسفه ؟ البحث عن الحقيقة •• أى حقيقة ؟ حقيقة الموجود •• من حيث هـو موجـود • بأى شيء تبحث ؟ أبحث بالعقـل • عقـل من ؟ عقـل الفيلسوف • أى فيلسوف ؟ فيلسوف السوفسطائية ؟ فيلسوف المثالية ؟ فيلسوف الوضعية ؟ فيلسوف المـادية ؟ أى سـوفسطائية ؟ سـوفسطائية المـاضى أم الحـاضر ؟

مثالية المـاضى أو الحاضر ؟ وضعية المـاضى أو الحاضر . مادية المـاضى أو الحاضر ؟ فاذا سلمنا بانتهاء البحث وصنفنا النتائج فسوف تطل الحيرة برأسها مرة أخرى لتقول متسائلة أى الحلول أتقبل ولم ؟ هكذا كما يبدو لى •

ان الفلسفة تثير من الأسئلة أكثر مما تقـدم من الأجـوية •

كذلك ليست الفلسفة علما برأسها لهـا أسس وقواعد ونتائج بل هى تاريخ فكرى يحمل محاولات تلاؤم الانسان مع قواعد الحياة •

فهى لا تحب النتائج لانها لا تحب أن تكون صورة من الدين كما قـدر لها الفلاسفة وكما يتضح لنا أنها محاولات العقل نحو الحقيقة سجلها الانسان على نفسه ليطيل فيها النظر فترة بعـد فترة • ليتأكد أن للعقل أن يفكر وان كان لمـا يصل الى الحقيقة •

وان الحقيقة موجودة لذلك يبحث عنها ولكن مشكلته اليقين •

هـل اليقين مصـدره العقل ؟

كل انسان له عقل ومع ذلك اختلف الناس وتشككوا بل ان أصحاب العقول الكبيرة هم أهل الحيرة والقلق •

اذن ما مصـدر اليقين •••

لقـد قال عنه الغزالى : نور الهى •

لقـد قال عنه ديكارت الحـدس •

لقـد قال عنه بيرجسون : الغريزة •

تلك كلمات ان دلت على شيء فانما تدل على التجربة التى عاناها كل واحد منهم وما وصلوا اليه ! لقــد وصلوا الى شيء اختلفوا فى تسميته غير انهم اتفقوا على أنه غير العقل هــذا الشيء حــددته اللغة فأفسدته لأن هــذا الموقف هو من الأمور ذات المجال الضيق التى لا يحسن فيها التكلم بالألفاظ بقــدر ما يحسنها الصمت والارتياح •

وكتاب الحياة ملىء بالأمثلة الغفيرة تدل فى صراحة ووضوح على أن اليقين ليس مصدره العقل دائما •• فمثلا ما هى النقطة ! تعريفها لا يألفــه العقــل ولا يقوى على نكرانه والتسليم به انطلاق الى التقــدم العقلى فى الرياضيات مع أن البدء عمل غير عقلى وأساسها ليس من بدع العقل •

ما هــو الأثير !! اصطلاح ليس له تصور ولكنه فرض لتفسير الكهرباء والموجـــات :

ما هــو العــدم ما هــو المستحيل ؟

ثم نقول أخيرا بعض الأسئلة التى أثارها الدين وجزم بوجودها وأكــــد الايمان بها بالرغم من الحاح العقل حول تصورها • كما وكيفا فلم يفلح منها ما هى الروح ! فاليقين ليس مصدره العقل •

فهناك عقل يفكر وليس من شأنه أن يصل الى الحقيقة لان الحقيقة أوســع من العقــل •

والحقيقة عالمية يعبر عنها بجميع اللغات ثم هى أوسع فتعجز عنها جميع اللغات وياليت العقل يعرف لغة الحقيقة فيترجمها • وياليت للحقيقة لغة • ولكن الحقيقة لا تحب هــذا التمنى لتحــد من نفسها بحواجز اللغة المصطنعة •

نحس بالحقيقة ونخطىء التعبير عنها فاللغة محــدودة بالأفــق الانسانى مربوطة بشواهد الحس ومسلمات البيئة هل فى الأمر غير ذلك ؟

فالحقيقة ليست تجربة انسانية فى اطار تاريخها فتدخل فى نطاق العبث الانسانى انها أقــدم وأقــدم وعلى العقل أن يكفكف من غروره ويؤمن بأن التسليم جانب ايجابى وهو مصدر اليقين وذلك هو الدين •

وعلى ضوء ذلك سنحاول فهم تلك المشكلة عند الغزالى .

٢ ـ المشكلة فى أبعادها عند الغزالى :

العقل ، والحواس ، أصبحا عاجزين تماما امام الغزالى . كذلك التراث الانسانى بأنواعه لا يمكن الاعتماد عليه الا بعـد الوثوق بالعقل الذى هـو المصدر لهـذا التراث .

فمفهوم التراث الانسانى أوسع دائرة من العقل لانه يحمل ضمن ما يحمل الكثير من الموروثات والتلقينات والتقليدات ، فلابد من كير ننفى به الخبث عن الأصل حتى تسلم الاجابة عن سؤال : ما هى الفطرة ؟ ، هل يمكن للانسان أن يصـل الى علم يقينى ؟ .

ظـل الغزالى يهمس بهـذا السؤال أمدا طـويلا يعاوده ويردده بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، فلو وصل الغزالى الى امكان العلم اليقين لاستطاع أن يقدم الحلول المناسبة لأطراف المشكلة ، فالحـواس غير قـديرة على ذلك . كذلك العقل غير قـدير .

فهو وان تشكك أولا فى قـدرة الحواس والعقل فلقـد خطا خطوة جريئة وهى أن المسألة لم تعـد مسألة شك فى ذلك بل غـدا الأمر لدى الغزالى مسألة ايمان بعجز العقل والحواس . وكانت تلك من الخطوات الجريئة . ثم اخـذ الشك مرحلة ثانية : هل العقل هـو الطريق الوحيد للمعرفة بمعنى ليس فوقـه شىء .

فهـداه التشكك وكثرة التساؤل عن ذلك أدى الى يقين نفسى أساسه أن هناك معرفة هى فوق العقل ودون النبوة . كان من الممـكن أن يتسلسل الأمر حول المعارف بعضها فوق بعض . ثم يثوب فى النهاية الى لا شىء قـد يكون قـد حصل شىء من هـذا . ثم راجع المسألة من جـديد ليحسم الأمر بقـدرة عقلية تسترعى البحث والدراسة .

فراح يناقش المشكلة بصورة أعمق وأدق : ناقش قدرة العقل على البحث ، ومدى قـدرته على اليقين .

٣ ــ قــدرة العقل على البحث :

قدرس لذلك التراث الانسانى وراءه قــدرة العقل على البحث والمناظرة ، ثم يخلص من كل قضية الى عــدم اليقين القاطع وأن الأمر ما زال يحتاج الى مزيد من البحث والدراسة ، فأخــذ يحلل القضية الى جانبين :

الجانب الأول : العقل فى عالم والشهادة وقــدرته على البحث واليقين •

الجانب الثانى : العقل فى عالم الغيب وقــدرته على البحث واليقين •

فأخــذت الاجابة على سؤال العلم اليقينى تتجزأ :

(أ) العلم اليقينى فى عالم الشهادة من وسائله العقل والتجربة وشتى وسائل المنهج ومع ذلك فهناك مسائل وصل فيها الى يقين ••• ومسائل لم يصل فيها الى يقين ••• ومبادىء وأوليات وبديهيات بالغــة مبلغ اليقين وليس للعقل سبيل الى هــذا اليقين ، من ذلك تأكد للغزالى من اخفاق العقل وعــدم نجاحه أن العقل ليس هو الوحيد للمعرفة ما دام العقل يتخبط فى هــذا العالم الذى يعيشه ويقضى فى أموره بقياس المسائل بنظائرها ، فما ظنك فيما هــو فوق ذلك وليس له نظير ••• من هــذا أخــذت المسألة تتضح •

(ب) العلم اليقينى فى عالم الغيب ، فان كان العقل فى عالم الشهادة اتخــذ كثيرا من الوسائل ظهيرة له ومع ذلك لم يوفق كل التوفيق فيما بحث فيه ، واذا كان الانسان اطمأن الى كثير من المسائل لم يكن للعقــل سبيل اليها اذ سلم بها تسليم عجز لا بحث ، فاذا كان ذلك شأن العقل فى هــذا العالم وعلاقة اليقين بالعقل ليست اضطرادية فلا عجب أن تعــدينا العقل للوصول الى عالم آخر ، ذلك ما قال عنه الغزالى •

٤ ــ مفهــوم اليقــين :

يقول الغزالى فى الاحياء :

اليقين هــو رأس مال الدين •

١ — قال رسول الله (اليقين هــو الايمان كله)[١] .

فلابد من تعلم علم اليقين أعنى أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه .

٢ — ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم (تعلموا اليقين)[٢] .

ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم (علم اليقين) . وقليل من اليقين خير من كثير العمل .

٣ — قال صلى الله عليه وسلم ، لمــا قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين فقال الرسول : (ما من آدمى الا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لانه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة) [٣] .

٤ — وقال : (ان أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما ما فاته من قيام وصيام النهار) .

٥ — وقــد أشار الله تعالى فى القرآن الى ذكر الموقنين — فى مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات .

فان قلت :

١ — فما معنى اليقين ؟

٢ — وما معنى قــوته وضعفه ؟ .

فلابد من فهمه أولا .

ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه فان ما لم يفهم صورته لا يمكن طلبه .

فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين :

١ — أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عــدم الشك . اذ ميل النفس الى التصديق بالشىء له أربعة مقامات :

الأول : أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك كما اذا سئلت عن شخص معين ان الله تعالى يعاقبه أم لا وهو مجهول الحال عندك فان نفسك لا تميل

الى الحكم فيه باثبات ولا نفى فيستوى عندك امكان الأمرين فيسمى هـذا شـكا ٠

الثانى : أن تميل نفسك الى أحـد الأمرين مع الشعور بامكان نقيضه ولكنه بامكان لا يمنع ترجيح الأول اذا سئلت عن رجـل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هـذه الحالة هل يعاقب فان نفسك تميل الى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها الى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح ومع هـذا فأنت تجوز اختفاء أمر موجب للعقاب فى باطنه وسريرته فهـذا التجويز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه فهـذه الحالة تسمى ظنا ٠

الثالث : أن تميل النفس الى التصديق بشىء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة اذ لـو أحسن صاحب هـذا المقام التأمل والاصغاء الى التشكيك والتجـويز اتسعت نفسه للتجويز وهـذا يسمى اعتقادا مقاربا لليقين وهو اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها اذ رسخ فى نفوسهم بمجرد السماع حتى ان كل فرقـة تثق بصحة مذهبها واصابة امامها ومتبوعها ولو ذكر لأحـدهم امكان خطـأ امامه نفر عن قبـوله ٠

الرابع : المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه ٠ فاذا امتنع وجود الشك وامكانه يسمى يقينا عند هـؤلاء ٠ ومثاله أنه اذا قيل للعاقل هل فى الوجود شىء هـو قـديم فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لان القـديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فانه يصدق بوجودهما بالحس وليس العلم بوجود شىء قـديم أزلى ضروريا مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحـد ومثل العلم بأن حـدوث حادث بلا سبب محال فان هـذا أيضا ضرورى ٠ فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القـديم على طريق الارتجال والبديهة ٠

ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقا جزما ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام ٠ ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهـو أن يقـال له أن لم يكن فى الوجود قـديم فالموجودات كلها حادثة فان كانت كلها حادثة فهى حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال

فالمؤدى الى المحال محال فيلزم فى العقل التصديق بوجود شيء قـديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة وهى :

١ — أن تكون الموجودات كلها قـديمة ٠
٢ — أو كلهـا حادثة ٠
٣ — أو بعضها قـديمة وبعضها حادثة ٠

فان كانت كلها قـديمة فقد حصل المطلوب اذ ثبت على الجملة قـديم وان كان الكل حادثا فهو محال اذ يؤدى الى حـدوث بغير سبب فيثبت لاقسم الثالث أو الأول وكل علم حصل على هـذا الوجه يسمى يقينا عند هؤلاء ٠

- سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه ٠
- أو حصل بحس ، أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب ٠
- أو بتواتر كالعلم بوجود مكة ٠
- أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل ٠
- أو بدليـــل ٠

فشرط اطلاق هـذا الاسم عندهم عـدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقينا عند هـؤلاء ٠

وعلى هـذا لا يوصف اليقين بالضعف اذ لا تفاوت فى نفى الشك « وانمـا يتفاوت بالخفاء والجلاء ٠ وهـذا لا ينكر » ٠

ولتأييد وجهة نظر الغزالى فيما حكاه عن المتكلمين نذكر بعض التعاريف :

البيضـــــاوى :

اليقين : اتقان العلم ، بنفى الشك والشبهة عنه ، نظرا واستدلالا ٠

- ولذلك لا يوصف به : علم البارى ٠
- ولا العلوم الضرورية ٠

بعضهم عرف اليقين فقال :

هــو الاعتقاد الجازم الثابت •

أى الذى لا يزول ـ بتشكيك المشكك ـ المطابق للواقع •

وهــذا شامل للضرورى • فتكون داخلة فى اليقين •

قال صاحب المواقف :

اليقين : هو الاعتقاد بأن الشىء كذا مع مطابقته للواقع واعتقاد أنه لا يمكن الا كذا • ينقسم الى :

القطعية الضرورية وهى :

● المبادىء الأولى وهى سبع :

● الأولى أوليات ، قضايا قياســاتها معها ، المشــاهدات ، المجربات ، الحــدسيات المتواترات ، الوهميات فى المحسوسات •

فظهر منه أن الضروريات = يقينيات •

الزمخشرى :

ايقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه •

قال الشريف العــلامة :

أراد صاحب الكشاف أن العلم الذى من شأنه أن يتطرق اليه الشبهة والشك اذا انتفيا عنه كان ايقانا •

ولذلك لا يوصف به العلم القــديم ، ولا الضرورى •

فلا يقال تيقنت أن الكل من الحزء •

من العرض الموجز لبعض تعاريف اليقين عند علماء الكلام ظهر لنا :

أولا ـ أن البيضاوى يتفق مع صاحب الكشاف من حيث انه لا يوصــف به : علم البارى •

ولا العلوم الضرورية •

ولا يقال عنهما : انهما عـدم الشك •

ثانيا — التعريفان الآخران الذى لبعضهم وصاحب المواقف يتفقان من حيث أن كلا منهما يشمل : الضرورى •

ثالثا — والأربعة يتفقون على أن اليقين هو اعتقاد •

قال الكازرونى :

نعم اليقين هو : العلم المتيقن بالبعـد عن الشك والشبهة وأما أنه لابد أن يكون بعـده عنهما بالاستدلال فغير مسلم بل قـد يكون بسبب ضرورة العقل •

وبعـد هـذا يمكن أن نقول :

ان اليقين عند هؤلاء هـو عـدم الشك وقـد يكون سبيل ذلك العقل والنظر والاستدلال • أى عمـل عقلى •

المـآخـذ :

— يؤخـذ على تعريف صاحب المواقف والذى لبعضهم :

● أنهم نزلوا اليقين منزلة الاعتقاد مع أن هناك فرقا بين اليقين والاعتقاد •

فان اليقين قـد يوجـد ولا يطلق عليه اعتقاد •

فالمسائل العلمية • فيها يقين ولا يطلق عليها اعتقاد و « كلمـة مطابقـة الواقـع » •

ويفهم من ورائها شىء سوى أنها أثر من آثار المناطقة فى تعريفاتهم ومن الأشياء التى جرى عليها المتكلمون فهى من آثار التقليد فأكثر المشاكل التى تثير الشك وتتطلب اليقين المسائل •• مشاكل مخالفة للواقع •• فمواقف سـقراط الفلسفية هى نقـد الواقع ، ورسالة الرسول هى نقـد الواقع :

اذن فأى واقع يؤكدون عليه ؟
الواقع الاجتماعى أو الواقع الفكرى •

اذن « تطابق الواقع » فى التعريف من الكلمات الواسعة فى مقام يقتضى كلمات محـددة لمفهوم ينبغى أن يكون محـددا .

الترجيـــح :

نرجح تعريف الزمخشرى والبيضاوى .

لأن اليقين = عـدم الشك .

ولم يخلط بين اليقين والاعتقاد .

ويتفاوت بالخفاء والجلاء بتفاوت الدليل . وهـذا خلاف الاعتقاد أيضا ويؤكد على الفرق بينهما

وهـذا يتفق مع ما ذكره الغزالى حيث بين بوضوح المقامات الطبيعية للنفس فقـــال :

اذ ميل النفس الى التصديق له أربعة مقامات :

١ ـ مقام الشك : وهو عند اعتدال التصديق والتكذيب .

٢ ـ مقام الظن : وهو ميل النفس الى أحـد الأمرين مع احتمال النقيض وغير دافـع رجحانه .

٣ ـ مقام الاعتقاد المقارب لليقين .

وهو أن تميل النفس الى التصديق بشىء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك عن معرفة محققة . « وهـو مقام العـوام » .

٤ ـ مقـام اليقـين ..

المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيـه ولا يتصور الشـك فيـه .

فاذا امتنع وجود الشك وامكانه يسمى « يقينا » سواء حصـل بنظر ، أو بحس أو بغريزة العقل أو بتواتر ، أو بتجربة ، أو بدليل .

فى النظريات المعروفة بالأدلة فانه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة فى تساويهما فى نفى الشك .

وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الكتب والسماع ، ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال .

٣ — وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين .

كما يقال فلان أكثر علما من فلان أى معلوماته أكثر ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ما ورد الشرع به .
وقد يكون قوى اليقين فى بعضه .
فهو قد يكون بمعنى نفى الشك .
أو بمعنى الاستيلاء على القلب .

السهروردى :

علوم القلوب لها وصف خاص ووصف عام .

١ — فالوصف العام : علم اليقين .

وقد يتوصل اليه بالنظر والاستدلال .

ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة .

٢ — والوصف الخاص يختص به علماء الآخرة .

وهى السكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ..

فبالنظر الى الوصف الخاص :

لليقين مراتب فى الايمان .
والى الوصف العام : اليقين زيادة على الايمان .
فمن مراتب اليقين : المشاهدة وصف خاص فى اليقين : وهو عين اليقين .

وفى عين اليقين وصف خاص : وهو حق اليقين .
فحق اليقين اذن فوق المشاهدة .
وحق اليقين موطنه ومستقره فى الآخرة .

وفى الدنيا منه لمح : يسير لأهله •
وهو من أعز ما يوجـــد من أقسام العلم بالله لأنه وجـــدان •

يقـــول الطيبى :

ان من جبلة الانسان الاختلاج والشك •
وأن قرينته طلب الدلائل والتوفيق من الله تعالى •

تحرير اليقين أى الطريقين أفضل :

- أكد الغزالى أن لليقين مفهومين •
- كذلك السهرودى •
- مفهوم أساسه النظر والاستدلال •

وهذا هو الواضح والطبيعى عند المتكلمين والفلاسفة وعند الذين يعانون مشكلة اليقين أو سوف يعانون منها •

وسواء أكان الدليـــل :

نظرا ، أو تواترا ، أو تجربة ، أو عن طريق الهام ، أو عن خطابة ••• متى حصل هـــذا الدليل مهما كانت قيمته ومهما كان مصدره ما دام قـــاد صاحبه الى اليقين • وأبعـــده عن الشك فهو يقين وهو دليل •

هـــذا الاتجاه القائم على النظر والاستدلال ليس مرفوضـــا من جانب الاتجاه النورانى انما يسبغ عليه صورة المقـــدمة الموصلة لليقين النورانى •

أولا : يقول الغزالى مؤكدا على قيمته لجعله من صفات علماء الآخرة « ان فى شأن علماء الآخرة صرف العناية الى تقوية اليقين بالمعنيين جميعا » •

وهو نفى الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحـــكم عليهـــا •

ثانيا : جعله الغزالى المقـدمة الطبيعية لنورانية القلب فيقول : « فلابد من تعلم علم اليقين أعنى أوائله ، ثم ينفتح للقلب طريقه » •

ثالثا : قال السهروردى :

« وقـد يتوصل اليه بالنظر والاستدلال ••
ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة » •

رابعا : قال الطيبى •

« وان قرينته طلب الدلائل •

والتوفيـق من الله » •

والصوفية وان كانوا يقرون بقيمة النظر والاستدلال فانهم يرون من ظفر باليقين عن طريق هـذا الجانب فقط هو من علماء الدنيا وليس من علماء الآخرة • وكان هـذا الجانب وحـده غير كاف صاحبه بل لابد من جانب القلب فيقـول السهروردى :

« فصار على الصوفية وزهاد العلماء نسبته الى علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال » •

فان كانت فى عبارة السهروردى بوادر الاستخفاف •
فان الجوينى والغزالى أعربا بوضوح عن عجز هـذا الجانب أى جانب النظر والاستدلال عن أن يصل صاحبه باليقين •

الامام الجـوينى :

« لقـد قرأت خمسين ألفا فى خمسين ألفا ثم خليت أهل الاسلام باسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم ، وغصت فى الذى نهى أهـل الاسلام عنه كل ذلك طلب الحق وكنت أهرب فى سالف الدهر من التقليد •

والآن قـد رجعت عن الكل الى كلمة الحق عليكم بدين العجائز •
فان لم يدركنى الحق بلطف بره فأموت على دين العجائز •

وتختم عاقبة أمرى عند الرحيل على مذهب أهـل الحق وكلمة الأخـلاص لا اله الا الله •

فالويل لابن الجوينى » يريد نفسه •

فالجوينى من الذين ثاروا على أخـذ اليقين من هـذا الجانب •• أو من الذين لم يوفقوا للاستفادة منه • كما قرر عن نفسه •• ونحن لا نناقشه فى ذلك بقـدر ما نحب أن نثبت أن هناك من بين بحرارة أن طريق النظر والاسـتدلال لا يسعف صاحبه •• ومع ذلك هـدى الى اليقين •• بيد أن الجوينى أعرب عن حالة نفسية وبصورة عامة •

الغزالى وتجربته :

الغزالى — وهو تلميذ الجوينى— يعتبر أول من بين وأثبت أن طريق النظر الى اليقين غير خال من التشويش والمعوقات وبين ذلك بأدلة محررة وكأنه يحاج العقل نفسه • وحتى لا يقال صوفى ينتصر للصوفية • وراح يعرض شكه ومشكلته بأدلة — جريئة قوية فهو يقول :

« أن مرادى العلم اليقينى » • !

وحـدد العلم اليقينى بأنه هـو :

« انكشاف المعلوم انكشافا تاما لا يتقى معه ريب ولا يقـارنه امكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقـدير غير ذلك » •

ثم أخـذ يقول :

« ثم فتشت عن علومى فوجـدت نفسى عاطلا فى علم موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات •

فقلت : الآن بعـد حصول اليأس لا مطمع من اقتباس المشكلات الا فى الجليات وهى الحسيات والضروريات فلابد من أحكامها أولا •

فانتهى بى طول التشكيك الى أن نفسى لم تسمح بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضا » .

وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول :

« من أين الثقة ، بالمحسوسات ؟

وأقواها حاسة البصر وهى تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة .. ثم بالتجربة والمشاهدة — بعد ساعة — نعرف أنه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة بغتة بل على التدريج ذرة — ذرة — حتى لم تكن له حالة وقوف . وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار .

هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكام ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته .

فقلت : قد بطلت بالمحسوسات أيضا . فلعله لا ثقة الا بالعقليات التى هى الأوليات كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشىء الواحد ، والشىء الواحد لا يكون حادثا موجودا معدوما واجبا .

فقالت المحسوسات : بم نأمن أن تكون الثقة بالعقليات كثقتك بالمحسوسات؟ وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ولولا العقل لكنت تستمر على تصديقى .

فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر ، اذا تجلى كذب العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه وعدم تجلى الادراك لا يدل على استحالته فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا .

وأيدت اشكالها بالمنام . وقالت :

أما تراك تعتقد فى النوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا شك فى تلك الحالة فيها . ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك

ومعتقداتك أصل وطائل ؟

فبم تأمن أن تكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقــل هــو حــق ؟ بالاضافة الى حالتك التى أنت فيها .

لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها فاذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها .

فلما خطرت هــذه الخواطر وانقدحت فى النفس حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر .

اذ لم يمكن دفعه الا بالدليــل ولم يمكن نصب دليــل من ركيب العــلوم الأولية ــ فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل .

فأعضل هــذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على السفسط بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال » .

ثم قال :

« حتى شفانى الله .. ولم يكن ذلك بنظم ودليل وترتيب كلام » .
بعــد هــذا العرض لــا أثاره الغزالى حول عرضه النقدى للاتجاه العقلى الى اليقين .

نلاحظ أيضا أن الغزالى هــدى الى اليقين باتجاه ما ؟ وبدليل ما ؟ فالمسلك العقلى نحو اليقين بالرغم من أنه هو أوضح الطرق وهو الطبيعى على ما يظهر لنــا . فقــد أتيح لبعض المفكرين أن يقللوا من شأنه ويوهنوا من قــدره . ولا نريد من وراء هــذا السياق عوجا انما نريد اثبات أن هــذا الاختلاف اختلاف طبيعى حول ما هو أحسن الطرق الى اليقين فلكل منهم وجهته ومنهاجه .

كيف رجــع الغزالى ؟

بنـور قـذفة الله .

قال السهروردى :

« ووصف خاص يختص به علماء الآخرة .
وهى السكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » .
هـذا الطريق ليس واضحا ولا طبيعيا فى ظاهر الأمر .

وحوله اختلاف .. والمختلفون حوله كثير ..

لأنه طريق غير عقلى .. فهو غير متصور .

فهـذا الطريق اللاعقلى فالاختلاف حوله انما هو فى الطبقة الممتازة والصفوة المفكرة وحسب .

لذلك قال الغزالى . مشيرا الى صعوبته :

« وهـذا قـد ينكره المتكلم الذى يأخـذ العلم من الكتب والسماع ، ولا يراجع فيما يدركه من تفاوت الأحوال .. وأهل هـذا الطريق يحسون بصعوبته وبخصوصيته ولذلك يدعونه بأسماء شتى .

علم اليقين ، حـق اليقين ، عين اليقين » .
كذلك يشيرالسهروردى ويؤكد على صعوبة علوم هؤلاء القوم .
فيقول : « وهى علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل اليها الا بذوق ووجدان » .
ويقول : « وطريق الصوفية أوله ايمان . علم . ثم ذوق .

ـــ فمجال الاختلاف حول الطريق الأول أى النظر والاستدلال أن علاقته باليقين ليست اطرادية ولا يعتد به من الذوقيين العرفانيين .

ـــ ومجال الاختلاف حـول الثانى هـو أنه غير معقول ولا يعتد به عند العقليين وفى مجال العلوم .

ـــ غير أن عدم اطراد الأول لا يمنع ولا يقلل من شأنه . وعـدم معقولية الثانى لا يلغيه .

— وأما عدم اتفاقهم حول طريق واحــد فيه دلالة على أن الناس يحيون بالعقل والوجــدان .

غير أن طريق الوجــدان عزيز .

قال الغزالى : « فهو عزيز يختص به الصديقون » .
قال السهروردى :

« وهو من أعز مايوجد من أقسام العلم بالله لأنه وجــدان .

انها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .
يقين .. ولكنه غير معقول ..

هــذا الاتجاه عرف فى الاسلام بالاتجاه الصوفى .. وكان من المــآخذ التى أخــذت عليهم . واعتبر شطحات وأوهام صوفية . حتى جاء الغزالى وحقق هذا بتجربة ناجحة .. كما حكاها المنقذ .. وأثبت حقيقتها.

ثم التمس العــذر للمنكرين هــذا الطريق فقال :

« وهــذا قــد ينكره المتكلم الذى يأخــذ العلم من الكتب والسماع .. ولا يراجع فيما يدركه من تفاوت الأحوال » .

وبالرغم من كل ذلك اعتبر الغزالى « امرءا فيه صوفية » .

- حتى قال بها ديكارت .
- وبســـــكال .
- وبرجسون .

فهؤلاء باعترافهم بالجانب الثانى المؤدى الى اليقين ردوا اليــــه اعتباره وأهميته .

وبذلك خرج من محراب الصوفية الى صالونات البحث .

مما سبق نلاحظ اختلافات شتى حول تحـــديد المفهوم من لفظ اليقين •

- فمنهم من جعله وليد القضايا المنطقية والأدلة البرهانية •
- ومنهم من جعله شيئا يستولى على القلب •

وبالرغم من هـــذه الاختلافات حول اليقين فاننا نقول :
ان هـــذه الاختلافات تتبع ثقافة الفرد الذى عانى مشكلة اليقين •

- فالعقلى : يحاول أن يجعل من اليقين قضية عقلية ويؤكد على ذلك •• فيكون اليقين بجانبه أمرا نسبيا فقد يستيقن بقضايا دون بعض • ما دام اليقين لديه قضية عقلية • أو يعاود الايمان بها ان ساعده الدليل الشخصى • أو ينكرها عندما لم يواته الدليل •

فالحالان لديه يسميان اليقين •

ويصبح الشك لديه ليس ترجيح أحـــد الدليلين ــ انمـا الشك هـــو أى الحالين أقرب :

- الانـــكار •
- أو الاثبـــات •

ومهما كانت القضية المنكرة •

ومنهم من يجعل اليقين شيئا خارجا عن طبيعة العقل ــ وهؤلاء هم أو الصوفيون « هم اللاعقليون » فيقين هـــؤلاء يقين مطلق غير مقيـــد بقواعـــد منطقية ، أو متوقف على أدلة برهانية محررة •

فالغزالى مثلا :

ساق الأدلة على الشك قوية ، رصينة وفى نفس الوقت عقلية ثم رجع الى اليقين •• بنور قـــذفه الله •

فأصبح اليقين لديه الهيا • ثم دعمه بالبرهان فقاده يقينه الى الايمان بكل شيء دينى •• أكثر قلقا من الفلسفة وموضوعها •

•• ومهما اختلف المفكرون حول اليقين فان هناك شيئا بالغ الأهمية يجب الالتفات اليه وهــو :

•• هنــاك يقين •

•• وممكن الوصول اليه • وله طريقان :

••• الطريق الأول : العقل وهو أن يؤيد بالأدلة البرهانية ويهتدى اليها بنور الله على رأى الدينيين أو بنور المنطق على رأى الفلاسفة أو أصحاب هــذا الاتجاه العقلى •

••• الطريق الثانى طريق القلب •• بنور يقــذف فى الصــدر •

وهناك طرق أخرى تتفاوت بتفاوت الناس ، اليقين عن طريق امام أو عن طريق مفت ــ اليقين عن طريق الارتجال والخطابة وهكذا يتفاوت النــاس فى مراتب اليقين •

الأثر النفسى لليقين :

يعتبر مقــدمة من مقــدمات علاج القلق •
لأن اليقين كما عرفت هــو : عــدم الشك •

- على التعريف الأول •
- وعلى التعريف الثانى •

وكما عرفنــا أن الشــك سبب من أسباب القلق بل الشــك هــو المقــدمة الطبيعية الى القلق •

فاذا كان اليقين من علاج الشك فهو مقــدمة طبيعية الى دور النقاهة من القــلق •

علاقة اليقين بعلاج الدين للقلق :

لكن السؤال هــو :

أولا : ان الدين يحث على الأخــذ باليقين والاتصاف به •

قال الامام الغزالي :

« وقد أشار الله تعالى في القرآن الى ذكر الموقنين في مواضع دل بها على أن اليقين هــو الرابطة للخيرات والسعادة • قال الرسول : لمــا قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين فقال صلى الله عليه وسلم: « ما من آدمي الا وله ذنوب ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر له ذنوبه له فضل يدخل به الجنة » رواه أنس والترمذي الحكيم » •

وقال :

« اليقين هــو رأس مال الدين » •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اليقين هــو الايمان كله » •

- من هــذه النصوص نتبين اهتمام الدين بالدعوة الى اليقين •
- وحرص القرآن على جعله وصفا للصفوة من المؤمنين ••

ثانيا : هــو صفة تميز بها السلف الصالح •

قال السهروردي :

« وقد كان أصحاب رسول الله أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين•ودقائق المعرفــــــة •

- ومن أهداف الصوفية تعليم الناس حقائق اليقين ودقائق المعرفة » •
- قال عمر رضى الله عنه •

« رحم الله تعالى صهيبا لو لم يخف الله لم يعصه » •

● قال رسول الله « شيبتنى سورة هـود وأخواتها » •

قيل له وما الذى شيبك منها قال :

قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت » •

ثالثا : أساس اليقين الاعتقاد فى الله •

من عرضنا لمفهوم اليقين :

عرفنا : أن للوصول الى اليقين طريقين :

● الطريق العقلى •

● الطريق القلبى الالهامى •

فالطريق القلبى الالهامى أساسه المعتقد الدينى •
فيقول الغزالى : بنور قـذفه الله •
ويقول الطيبى • بالأدلة والتوفيق من الله •

ويقول السهروردى :

بالسكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ••
هـذا جانب أهل اليقين فى الله •
وفى الجانب الآخر ••

نأخـذ مثالا واحـدا لكن له قيمته وأهميته :

فديكارت مثلا : •

عندما عرض نظرية الشك كان عقليا فى شكه عقليا فى يقينه •
ولكن فى حقيقة الأمر كان من أصحاب اليقين فى الله •

اذ قال :

« ان الله لا يمكن أن يرزقنى عقلا مضللا » •

فاليقين سنده : الاعتقاد فى الله ••

فاليقين اذن كان سنده الوحيد هو الله .

فلماذا اختلفت الطرق ؟

حقيقة أن الاختلاف لفظي وشخصي :

أولا : المتكلمون هم جماعة لم يخالجهم شك فى القواعد الدينية حتى يعنوا فى مشكلة اليقين .. بل هم جماعة آمنوا .. ثم دافعوا ..

فعندما تعرضوا لتعريف اليقين عرفوه على أن على أساسه تتبنى الأدلة .

ثانيا : قال الكندى فى بعض رسـائله : ينبغى أن لا يطلب فى ادراك كل مطلوب الوجود البرهانى لأنه ليس كل مطلب موجودا بالبرهان لأنه ليس لكل شيء برهان اذ البرهان بعض الأشياء ولو كان للبرهان برهان لكان هـذا بلا نهاية ولم يكن لشيء وجوديته لان ما لا ينتهى الى أوائـله فليس بمعلوم . فلا يكون علم بتة » وفى معنى آخر يقول :

« لا ينبغى أن يطلب ما فوق الهيولى بالتمثيل .

يعلق ابن حزم فيقول :

لأن البرهان هو النور فى نفس اللفظ ، فادراكه هو كادراك البصر نور واضح لا يحتاج الى برهان .

فلو قال قائل : ما البرهان على أن هـذه السماء وهـذه الأرض ؟

قيل له : لو أجبناك على ذلك ببرهان طلبت على البرهان برهانا الى ما لا نهاية له ، فلا يطلب فى العلم الرياضي اقناع .

ولا (يطلب) فى العلم الالهى حس ولا تمثيل .

ولا (يطلب) فى أوائل العلم الطبيعى الجوامع الفكرية .

ولا ين الاقناعية برهان .

ولا فى أوائل البرهان برهانا ٠

يقين الغزالى فى الميزان

أولا — حقيقة هـذا النـور :

اننا لا نستطيع أن نحقق هـذه القضية تماما لان الغزالى نفسه قال : نور قـذفه الله فهـذه ليست قضية من قبل المعقولات أو المحسوسات حتى نحتكم الى منهج عقلى ، أو آلات الحواس ليست من قبيل ذلك ، وان كنا نريد أن نكون أكثر واقعية فنقول انها ليست قضية عقلية على الاطلاق ، ولكنها هبات وأنوار تلم بالانسان فى آنثر من آن وهـذا ما يظهر من تعبير الامام وكما هـو واقع فى كتاب « المشكاة » وهو الكتاب الوحيد الذى يفسر لنا أثر النور على العقل ولعله يكون هو الكتاب الذى يفسر لنا حقيقة هـذا النور ٠

بيد أن الجانب الآخر الذى يصح أن نلتفت اليه هـو : أن الانسان قـد يشك ولا يخرج من شكه وهـذا واضح من تاريخ الشكاك فلقد عرف تاريخ الفلسفة نماذج من هـؤلاء واحتفظ لهم بلقب بل وألقـاب مثل اللاأدرية ، والسوفسطائية ٠٠٠

هـذا الجانب لنا منه شىء بالغ الأهمية وفى نفس الوقت تحسن الاشارة اليه وهـو أن المتشكك سلك طريق الشك بعقله ٠٠٠ ثم يقف العقل عند هـذا الحـد ، هـذا مما يجعلنا نعتقد أن طريق الرجوع الى اليقين طريق آخر غير العقل لان كل الناس يتفقون فى العقل — بل ان أصحاب العقول الكبيرة هم أهل الحيرة والقلق ومع ذلك يعز عليهم اليقين ٠

جانب آخر نلاحظه وهو أن الغزالى بدأ الطريق الى اليقين من حيث عجز العقل أو بمعنى آخر ان يقين الغزالى يقين غير عقلى ، فكيف يعجز العقل ثم يكون اليقـين ! ٠

هـذه مشكلة أثارها الغزالى حين كان المعتقد أن العقل الانسانى هو مصدر اليقين والمعرفة معا بيد أن منطق الغزالى فصل بين اليقين والمعرفة ٠ فالمعرفة

شيء قد تكون عن طريق العقل وغيره واليقين شيء آخر قد يتعدى العقل في أغلب الاحيان .

فلك أن تعرف ما شئت عما حولك من الوجود ولكن اليقين ليس وليد المعرفة أبدا . هكذا تصور الغزالي وكذلك اعتقد . ولكن اذا حاولنا تحقيق ذلك من حيث الواقع وناقشناه المناقشة الخالية من روح العداء والتعصب فلربما غلبنا منطق الغزالي ولكن سنحاول متحفظين تمام التحفظ حتى لا تعرونا نفحات التصرف .

يقول الأستاذ محمد جواد مغنيه :

« والآن ما هو الكشف الذي عناه الغزالي واعتبره مصدرا هاما من مصادر المعرفة ، وبه صار في عداد الصوفية ؟ هل هو الاتصال والرواية عن الله بالمشاهدة كما يروى فلان عن فلان ؟ أو هو اتحاد الانسان بالله كما نسب الى أبي يزيد البسطامي أو حلول الله بالانسان وجميع المخلوقات كما نقل عن الحلاج ؟ » .

والجواب : ان الغزالي قد بين معنى الكشف بأنه نور يقذفه الله في القلب ولكن هذا النور يحتاج الى توضيح وتحديد ، لأن تفسير الكشف بالنور والنور بالكشف أشبه بتفسير الماء بالماء ، وبدهي أن الحوادث والوقائع الملموسة هي التي توضح المفاهيم وتظهرها جلية على حقيقتها تماما كحوادث الكنغو حيث أوضحت معنى الاستعمار ، وكشفت الغطاء عن جميع أسراره ، وليس لديه أية حادثة استشهد بها لأن الكشف الصوفي من الأمور التي لا تعرف الا من قبل الانسان نفسه الذي فهمته من مطاوى كلمات الغزالي المتفرقة من آثاره هنا وهناك ، والمعنى الذي ارتسم في ذهني من حيث لا أشعر هو أن الغزالي أراد من الكشف والنور شهادة القلب الطيب بما يراه ويحسبه هو عين اليقين ، أما القلب الخبيث فشهادته كشهادة الفاسق الفاجر يجب ردها وعدم الاعتماد عليها ، وهنا سؤال يفرض نفسه : هل من الممكن أن يرى القلب الشيء على حقيقته بحيث يكون معصوما عن الخطأ والاشتباه : ؟ هل في القلب من المؤهلات ما يبلغ به مرتبة العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ ولا أستطيع أنا بالخصوص أن أجيب بالايجاب على هذا السؤال اذا طلب مني الأرقام

والأمثلة من الحوادث والوقائع المحسوسة الملموسة ولدى الجواب الكافى الشافى على أن هـذا العلم ممكن فى حـد ذاته ، وغير مستحيل فى طبيعته •

ومتى أثبتنا الامكان يصبح الوقوع سهلا ، فان الانسان لو لم ير الراديو لنفاه ، واستنكره ، والقلب السليم أشبه بالراديو ، فكما أن الراديو يلتقط الصوت دون أدنى تغير وتبدل فى كلمة أو حروف أو نقطة أو حركة ، وكما أن آلة التصوير ترسل مناظر الطبيعة دون تحريف وتزييف اذا كانت صحيحة ، فمن الممكن أن نشاهد القلب الطاهر الذكى الواقع على ما هـو عليه فى حقيقته دون زيادة أو نقصان ، ومن هنـا قال الامام على لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا وكما أن الراديو لا يلتقط الصوت الا بعـد اجراءات وتوافر جميع الشروط بحيث اذا حصل له أدنى خلل توقف عن الالتقاط ، كذلك القلب لا يشاهد الا بعـد الجـد والاجتهاد من أجل صفائه وخلاصه من كل شائبة تقف حاجزا بينه وبين رؤية الحق ، فاذا ما تدنس بالرذائل والأرجاس احتجب عنه نور الحق قال الامام على : من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا ••

هـذا هـو الكشف الذى أراده الغزالى ، انه علم القلب الصادق وحـديثه الصائب ويقظة الذات الأمينة وشهادتها العادلة وبهذا ، بحكاية القلب للواقع — حكاية المرآة للوجه — كانت الذات هى الواقع وكان الواقع هو الذات •

ثانيا — معقـولية اليقـين :

الغزالى رجع بنور قـذفه الله ، فاذا لم يقـذفه الله لم يكن عند الغزالى يقين ، الغزالى شك فى الحس وفى العقل ، فاذا آمن بالحس ، فمـا مصدر ذلك الايمان هل مصدره حسى ؟ لا يعقل لانه لا يثبت الشىء نفسه وهو مفروض عجزه ••• هل مصدره العقل ؟ ان العقل كذلك مفروض عجزه ، اذن هو فى احتياج الى معجزة ترجع اليه اعتباره ••• أشار الغزالى الى أنه شىء خارج عن الطاقة الانسانية ، ما زال يرعى الانسانية ويقـدر عجزها ، فالانسان فى نظر الغزالى متصل بسبب الهى وما زالت السماء تمـده بمـدد لا يجف فيضه ، فما زالت المعجزات والخوارق مصدر أمنه فى حسه وعقله ، وغـدا خلاف الفلاسفة حـول معرفة الله بالجزئيات فلسفة نظرية لا تثبت أمام تجربة اليقين الغزالية ، فالله لا يعلم الجزئيات وحسب ؛ ولكنه يوحى الى أفراد النوع الانسانى باليقـين النـورانى •

فنرى بدهيات الأمور ويقين المسائل يقوم على مبدأ التسليم والارتياح ، والتسليم والارتيـــاح أمر نفسى لا أمر منطقى ، اذن من أين جـــاء التسليم والارتياح ؟ • قــد تجيب بأنه عجز بشرى انتاب التفكير ! فمعنى ذلك أن العجز يكون مصدرا للبدائه واليقينيات الكل أكبر من الجزء (١ + ١ = ٢) هــذه بدائه عجز الانسان أن يغير من شأنها ، فآمن بها عن ارتياح وتسليم ، ومع ذلك لا يصح أن نقول : ان العجز مصدر تلك البدائه ، ان العجز لا يكون مصدرا للوجود ، ولا التسليم مصدرها لانه يفترض وجود شىء ما فتسلم بوجوده انما هو شعاع الهى لاستقامة الوجــود لا يدعمه منطق ولا يبدده برهان الجاهــل والعالم أمامه سواء •

ان مثل تلك البدائه فقط بدأ ليستطيع الانسان استقامة بالحياة • ان فى كل شىء نقطة بدء تمثل تلك النقطة طريق معقول ••• وان كانت فى مفهومها قــد تكون غير معقولة ، فمثلا ما هى النقطة ؟ ما هو الأثير ؟ •

كل تلك أشياء عجز العقل عن تفسيرها ومع ذلك اعترف بوجودها واعتبرها العقل بدء طريق واعتاد عليها الناس ليسيروا فى طريق الفهم قــد تكون مثل تلك الأشياء من افتراض العقل ، وقــد تكون فرضت على العقل هــذا ليس من شأننا ، المهم بالرغم من عــدم معقوليتها فان تركها سيجعل كثيرا من الحقائق تلوى وجهها عنــا ، كل ذلك يؤكد عن يقين بأن لمحات النــور الالهى ما زالت ترافق الانسانية ، وتؤتينا من الله مبدأ كل شىء • فلا عجب أن يكون مبدأ اليقين جاء من قبل اللامعقول من ذلك ممكن أن نقول بعض النتائج استنتاجا مما وصل اليه الغزالى هى محل احترام وتقــدير يؤكدها ما سبق من الأمثلة :

١ ـــ الغزالى شك فى قــدرة الحواس على الوصول الى عالم الغيب •

٢ ـــ الغزالى كذلك آمن بأن التراث البشرى لا يستطيع أن يدل على هــذا الطــريق •

٣ ـــ الغزالى رجع بنور قــذفه الله ـــ طريق غير معقول ـــ ورضى الغزالى بذلك ولم يذكر للعقل فضلا فى هــذا النور •

٤ ـــ فبعــد أن كان متشككا فى قــدرة العقل أصبح مؤمنا بعجز العقــل

٥ — وقام مقام العقل لديه الى ذلك الهدف الذوق والكشف والنور الالهى .

٦ — كذلك أثبت أنه لا علاقة اطرادية بين العقل واليقين .

اذن تجربة المنقذ لم تكن شكا فى ذات العقل ، كذلك لم تكن للايمان بالعقل ، وانما كانت اثباتا لعجز العقل عن الوصول الى عالم الغيب .

كذلك الغزالى لم يتحين الفرصة لضرب العقل ، كما كان يفعل اللاهوتيون أو أخذ يعدد نقائصه للاعراض عنه .

دكتور محمد ابراهيم الفيومى
الثلاثاء ٢٦ محرم سنة ١٣٩٦
٢٧ يناير سنة ١٩٧٦

حـــــــــواشى وشرح

الكتــــــــــاب

- الجزء الأول .
- الجزء الثانى .
- ملاحـــــــق .

الجزء الأول

حـــــواشي وشروح

البـــاب الأول

(١) ضبط الأعلام ــ أحمد تيمور (ص ١٠٨)

(٢) قال السيد مرتضى الزبيدى فى شرحه للاحياء قال صاحب تحفة الارشـــاد نقلا عن الامام النووى فى دقائق الروضة التشديد فى الغزالى هو المعروف الذى ذكره ابن الأثير ٠

كتاب المصباح المنير للفيومى واليها نسب الامام أبو حامد قال أخبرنى بذلك الشيخ محمد بن محمد بن أبى الطاهر سروان شاه أبى الفضائل فخرآور ابن عبد الله ابن ست النساء بنت أبى حامد الغزالى ببغـداد سنة ٧١٠ وقال : اخطأ النـاس فى تثقيل جـدنا وانما هو مخفف ٠

(٣) شرح الشفا لشهاب الدين الخفاجي جـ ٤ (ص ٤٩٤)

شرح الشفا لعلى القارى بهامش الخفاجي جـ ٤ (ص ٤٩٤)

(٤) ضبط الأعلام ــ العلامة أحمد تيمور (ص ١١٣)

(٦) ضبط الأعلام ــ العلامة أحمد تيمور (ص ١١٣)

(٧) ضبط الأعلام ــ العلامة أحمد تيمور (ص ١١٣ ــ ١١٤)

(٨) نظرة تاريخية فى حـدوث المذاهب الأربعة للعلامة أحمد تيمور (ص ٤٧)

(٩) مؤلفات الغزالى الدكتور عبد الرحمن بدوى (ص ٢١) وسبط ابن الجوزى ولبن كثير والسبكى ٤/١٠٢ وابن قاضى شهبه والعينى فيما يتصل بميلاد الغزالى

لو سعرنج ابلاد الخلافة الشرقية (ص ٣٨٨ — ٣٩١) كمبرج سنة ١٩٣٠ فيما يتصل بطـــوس .

(١٠) العقد المذهب فى طبقات حملة المذهب لسراج الدين أبى حفص عمر بن العلامة أبى الحسن على النحوى بن أحمد بن محمد الإنصارى الاندلسى المعروف بابن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ = ١٤٠١ مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٥٧٩ ورقة ١٥٦ .
مؤلفات الغزالى الدكتور عبد الرحمن بدوى (ص ٥٤٨)

(١١) الغزالى المجلد الأول الدكتور محمد رفاعى (ص ٨٥) عن المقفى المقريزى .

(١٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٣٠٣/٤

(١٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ١٠٣/٤

(١٤) وقد روى هـذه الحكاية عن الغزالى أيضا الوزير نظام الملك كما هـو مذكور فى ترجمة نظام الملك فى ذيل السمعانى .

(١٥) مؤلفات الغزالى للدكتور عبد الرحمن بدوى (ص ٤)
ابن المرتضى : يذكر هـذه التعليقه ولعل ذلك نقلا عن السبكى فيقول : « ومنها أى من مصنفات الغزالى — التعليقة فى فروع المذهب كتبها بجرجان عن الأسماعيلى وهـذا لا يزيدنا ايضاحا » .

(١٦) مؤلفات الغزالى — الدكتور عبد الرحمن بدوى (ص ٤)

(١٧) الغزالى المجلد — الدكتور أحمد فريد رفاعى (ص ٨١)

(١٨) الطبقات الكبرى للشافعية — السبكى جـ ٤ , ص ١٠٣)

تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٨١ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٣ تاريخ حـ ١ (ص ٤٣٠ — ٣٤٢)

(٢٩) المنتظم فى التاريخ لأبى فرج عبد الرحمن بن الجوزى نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١٢٩٦ تاريخ جـ ٧ (قسم ٢)

(٢٠) مؤلفات الغزالى — الدكتور عبد الرحمن بدوى

(٢١) طبقات الشافعية ـ السبكى ج ٣ (ص ٢٥٤)

(٢٢) تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى ٥٨١ مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٩٢ تاريخ .

(٢٣) المنقـذ من الضلال للامام الغزالى تحقيق وتقـديم الدكتور عبد الحليم محمود (ص ١٣٨)

(٢٤) المنقـذ من الضلال للامام الغزالى تحقيق وتقـديم الدكتور عبد الحليم محمود (ص ٣٨ – ٣٩)

كلمـة عن طـوس المعاصرة

هـذا وتشمل خراسان القـديمة التى كانت طوس ثانى مدنها/المدن التاليـة فنيسـابور ومرو وهمـا فى ايران حاليا/وبلخ وهرات وهما فى أفغانستان ، حاليا .

أما خراسان الحالية فهى محافظة من محافظات ايران الأربع عشرة .
وتقع فى غرب ايران على الحـدود الافغانية .

وخراسان الحالية تشمل ١٥ مركزا هى :

مشهد (طوس القديم) تربت جام ـ كناباد ـ كاشمر ـ بيرجند قرجان ـ شيروان سبزوار ـ تربث حيدريه ـ نيسابور ـ دركز ـ اسفراين ـ خردوس ـ طبس ـ ايجبنـورد .

هـذا ويحد خراسان من الجنوب محافظتا كرمان وزاهـدان .

ويحـدها من الشرق محافظتا أصفهان ومنطة سمنان/فرمانه أردكل .

ويحـدها من الشمال الشرقى محافظة ماز ندراما .
أما من الغرب فيحـدها امحافظة همدان الواقعة فى أفغانستان كما يحـدها من الشمال تركستان الروسية .

أن محافظات خراسان من المناطق الباردة حيث يغطيها الثلج طوال الشتاء وجوها

معتدل فى الصيف/وتسمى فى ايران باسم المدينة المقدسة وذلك لوجود قصر الامام رضـا فيهـا ٠

ان المسافة بينها وبين طهران العاصمة حوالى ١٦ ساعة فى السيارة وحـوالى ١٠ ساعات فى القطار السريع ٠

ترجمة من : قاموس عميد (زهند عميه)

ترجمة عبد الحليم أحمدى

ومن ـ غزالى نامه

(تأليف الدكتور جلال همانى) الطالب بكلية اصول الدين ــ الدراسـات العليـــا قسم الدكتوراه ٠

حـــواشى وشروح

الباب الثانى

(١) الكلام والفلسفة ص ٧٨ — الدكتور عادل العــوا

(٢) حقيقة الفلسفات الاسلامية ص ١٠٨ — الأستاذ جلال العشرى

(٣) الكلام والفلسفة — الدكتور عادل العــوا
يمكن القارىء الاستزادة من النصوص الكثيرة الواردة فيه التى تؤيد اتفـــــاق الفلسفة والدين فى نظر الكندى ·

كذلك يمكن مراجعة رسائل الكندى الفلسفية للدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ·

(٤) نظرات فى فلسفة العرب الأستاذ جبور عبد النور

كذلك الكلام والفلسفة ·

كذلك المدينة الفاضلة ولا سيما المقـــدمة للدكتور انبير نصرى نادر ·

(٥) منطق الشرقيين مقـدمة الشيخ الرئيس ابن سينا ·

(٦) التمهيد ص ٤٤ الشيخ الجليل مصطفى عبد الرازق ·

(٧) رسائل ابن سبعين ـ دكتور عبد الرحمن بدوى ·
مجموعة نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ النصوص فى بلاد الاسلام :
ماسينيون – ذكرها التمهيد ص ٤٢ ·

(٨) مثالب الوزيرين ص ١٤ أبو حيان التوحيدى ·

(٩) الغزالى كرادى فو ترجمة عادل زعيتر ص ٥٩ ·

(١٠) المرجـــع نفســـه ·

(١١) معرفة الغيب ـ أبو حامد ـ الذكرى المئوية ـ دكتور عبد الحليم محمود
نصوص تؤيد وجهة نظرنا وهى :

(١٢) يقول الامام الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد ص ٢٠ ·

« ولكن يظهر أن أمرين غلبا على غائبهم :

الأول : الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصا ارسطو . وأفلاطون ووجـــدا أن اللذة فى تقليدهما بادىء الأمر ·

والثانى : الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت .

وهو أشام الأمرين : زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عـددهم بما انطبعت عليه نفوس الكافة · فمال حماة العقائد عليهم » ·

(١٣) ويقول حيدر بامات فى كتاب مجال الاسلام ص ٢٠٩ وقد قلنا ان الفلاسفة كانو يسلمون على البداهة بوجود اتفاق مطلق بين الفلسفة اليونانية والعقيدة الاسلامية فلا يمكن أن يوجـــد تباين بين العلم والايمان فكان الغرض الذى يهـــدفون اليـــه منذ ذلك هو ابراز الانسجام الموجود مقـــدما بين المـــاثور اليونانى والسنة . والسعى تكشف عن عسر .

(١٤) ويقول الدكتور محمد اقبال فى تجـديد التفكير الدينى فى الاسلام ترجمة عباس محمود العقاد ص ٩ وقـد فات هـذه الأمة أن المتقـدمين من علماء الاسلام الذين عكفوا على درس القرآن بعـــد أن بهرهم النظر الفلسفى القـــديم فقرأوا الكتاب على ضوء الفكر اليونانى ومضى عليهم أكثر من قرنين من الزمان قبل أن يتبين لهم فى وضوح غير كاف أن روح القرآن تتعارض فى جوهرها مع تعاليم الفلسفة القـديمة وقـد نجم عن ادراكهم هـذا النوع نوع من الثورة الفكرية لم يدرك أثرها الكامل الى يومنا هذا ·

(١٥) يقول الأستاذ جلال العشرى فى كتابه حقيقة الفلسفات الاسلامية ص ١٢٨ « وقصارى القول ان محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، والقول باتخاذ الفلسفة نصيرا للدين وسبيلا الى تأييد عقائده انما هو ضار بالدين والفلسفة جميعا ، وليس تقـديسا لعقائد هـذا ولا احتراما لمناهج تلك فلا هـو اعتبر « المسائل » من مسائل الدين فترك التعرض لها ، ولا هـو اعتبرها فلسفة فبحثها بمنهج تحررى وقررها من وجـه نظرى ·

(١٦) الكلام والفلسفة ص ١٠٩ ، ١٦٦ ، ١١٤ ٠

(١٧) من المغالطات فى المقارنة نذكر هذا النص ٠ نقل أبو حيان التوحيدى فى الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١١ عن المقدسى الفيلسوف أنه قال :

الشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحاء ، والأنبياء يطبون المرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا ، وبين مدبر المريض وبين مدبر الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف ، لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به الى الصحة هـذا اذا كان الدواء ناجعا والطبع قابلا والطبيب ناصحا ، وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة وقد افاده كسب الفضائل لهـا وقربه وعرضه لاقتنائها وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى وقـد صار مستحقا للحياة الالهية والحياة الالهية هى الخلود والديمومة .

حـواشي وشروح

الباب الثالث

(١) الفلسفة والمجتمع الاسلامى ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ الدكتور ابراهيم عبد المجيد اللبان ·

(٢) حقيقة الفلسفات الاسلامية ص ١٠٩ الأستاذ جلال العشرى ·

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٧ الشيخ الجليل مصطفى عبد الرازق ·

(٤) فى الفهرست ص ١٦٩ « كان متفلسفا قرأ كتب الأوائل » .

وراجع أيضا ياقوت طبع مرجليوث ج ٥ ص ٩٢ حيث يقول : أنواع التعاليم القـديمة من المنطق والفلسفة ويراجع بالتفصيل موقف أهل السنة القـدماء بازاء علوم الأوائل : لا جنتس جلـد تسيهر من كتاب دراسات اسلامية — ١ — التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ·

وهى دراسات لكبار المستشرقين ألف بينها وترجمها عن الألمـانية والايطاليـة دكتور عبد الرحمن بدوى ·

المرجع نفسه ص ١٣٨ ·

(٥) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٢٤ .

(٦) ياقوت ج ٢ ص ٤٨ ·

(٧) البخلاء للجاحظ ص ٨٧ يذكر من بين الأشياء التى تخفى عن عيون النـاوى جانب « الشراب المكروه » الكتاب المتهم ·

(٨) التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ص ١٣٨ ·

وللاستزاده يمكن مراجعـة صـون المنطـق والكلام عن فنى المنطـق والكلام للامام جلال الدين السيوطى فى جزءين ·

تحقيق الدكتور على سامى النشار والسيدة سعاد على عبد الرازق من سلسلة احياء التراث الاسلامى — مجمع البحوث الاسلامية ·

ذكر السيوطى فى مقدمة كتابه هذا أنه فحص كتاب ابن تيمية :

يقول : « تطلبت كتاب ابن تيمية حتى وقفت عليه غرايته سماه نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان وأحسن فيه القول ما شاء من نقض قواعده — قاعدة ، قاعدة وبيان فساد أصولها فلخصته فى تأليف لطيف سميته جهد القريحة من تجريد النصيحة ، صون المنطق ج ١ ص ٢ ·

قال ابن عبد الهادى فى العقود الدرية فى مناقب شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ج ١ الأستاذ الشيخ حامد الفقى ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٨ قال : وله كتاب فى الرد على المنطق مجلد كبير وله مصنفان آخران فى الرد على المنطق نحو مجلد ، ج ١ ص ١١ .

وللدكتور على سامى النشار كتاب أعلن عنه بأنه تحت الطبع عنوانه :

نقد مفكرى الاسلام للمنطق الارسططاليسى ·

وللأستاذ الجليل للدكتور عبد الحليم محمود الاسلام والعقل أو الدين الخالص مثل هذا يعطينا وجهة نظر عبرت عن الصراع الذى دار بين العقل الاسلامى والعقل اليونانى وأنه بالرغم من المحاولات التى بذلت لتهيئة العقل الاسلامى لتلقى التراث الوافد فان العقل الاسلامى رفض فلسفة ما بعد الطبيعة على أساس أن ما يعرف بالمشكلة الفلسفية فى العقل اليونانى رفض رفضا باتا عند الاسلاميين الأصوليين لأن القرآن وهو الكتاب الالهى تكفل بشرحها وبيانها وكان هذا الوضع الطبيعى لولا تشبث بعض المتفلسفة الاسلاميين بتقليد فلاسفة اليونان فى اثارة مشكلة ما بعد الطبيعة وهذا ما أدى الى افتعال قضية الدين والفلسفة .

الجزء الثانى

حـــواشى وشروح

البـــاب الأول

(١) الذكرى المئوية لأبى حامد الغزالى - رجوع الغزالى الى البعثين وعمر فروخ ص ٢٩٩ ·

(٢) القرآن الكريم سورة البقرة آية (٢٦٠) ·

(٣) كتب السيرة - سيرة ابن هشام ·

(٤) المنقذ من الضلال - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود (ص ١٢٦) ·

(٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى (ج ٣ ص ٢٦٩) ·

(٦) العقيدة والشريعة فى الاسلام جولد تسير (ص ١٧٨) ترجمة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور على حسن عبد القادر والأستاذ عبد العزيز عبد الحـق ·

(٧) الغزالى - كرادى فو - ترجمة عادل زعيتر ·

(٨) دولة الخلافة فى الاسلام القسم الثانى - الأستاذ زكى غيث ·

(٩) المنقـذ من الضلال (ص ١٣٤) ·

(١٠) المرجع نفسه (ص ١٢٦) ·

(١١) المرجع نفسه (ص ١٢٦ ، ١٢٧) ·

(١٢) المرجع نفسه (ص ١٢٥ ، ١٢٦) ·

(١٣) العقل فى الاسلام (ص ٤٤) الدكتور كريم عزقول ·

(١٤) المنقـذ من الضلال (ص   ) ·

(١٥) التعرف لمذهب أهـــل التصوف الباب الحادى والعشرين « قولهـــا فى معرفة

الله » تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور (ص ٦٣) ومشكاة الأنوار للامام الغزالى تحقيق دكتور أبو العلا عفيفى ص ٦٣ ٠

(١٦) مباهج الفلسفة (ول ديورنت) ترجمة الدكتور احمد فـؤاد الاهـوانى أورد نصين عن لونز ونيتشة (ص ١٧) ٠

قال لونز « ان النظرية الفلسـفية محـاولة لتسـوية نظرية أسـاسية عن أشياء سبق اعتناقها فى فجر الحياة ٠ وكتب نيتشة يقول : ان جميع الفلاسفة يزعمون أن آراءهم الواقعة قـد كشفت بطريق جـدلى ينشأ فى داخل انفسهم على حين يدل الواقع على أن فكرة متحيزة أو قضية أو اقتراحا اهى على العموم رغبة قلوبهم قـد تجردت وتهـذبت ، ثم أخـذوا يدافعون عنها بالأدلة التى يجتهدون فى الحصول عليها بعـد نشأة الفكرة » ٠

(١٧) مباهج الفلسفة الكتاب الأول ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الاهـوانى (ص ٦٣) ٠

(١٨) ربيع الفكر اليونانى — الدكتور عبد الرحمن بدوى (ص ١٣) يقول وثمة مسألة أخرى تلك هى ما يسميه بريبه فى كتابه « تاريخ الفلسفة » اختلاف مستوى المذاهب ، فمثلا فى مشكلة العقل والنقل نجـد أن الشىء الواحد كان يعـد فى عصر من العصور تابعا لمبدأ الايمان — أو النقل — بينما ورد هـذا الشىء نفسه فى عصر آخر تابعا لميدان العقل فنرى مثلا أن فكرة مادية الروح هى فكرة عقلية فى نظر ديكارت ، بينما نجدها من بعد فى نظر لوك عقيدة دينية ولا يمكن أن تكون عقيدة عقلية . والحياة السعيدة أو حياة النعيم هى فى نظر رجال الدين فكرة دينية فى أصلها ولكنها أصبحت فيما بعـد على يد رجل فيلسوف هو « اسبينوزا » فكرة عقلية رياضية برهن عليها « اسبينوزا » بطريقته الرياضية فى اثبات الحقائق الميتافيزيقية ٠

ومعنى هـذا أن الفلسفة لا يمكن أن تنفصل عن الأشخاص الذين انتجوها ٠

(١٩) انجيل متى — الاصحاح الخامس ٠

(٢٠) القرآن الكريم سورة الشورى آية ١٣ ٠

حواشي وشروح

الباب الثاني

(١) أضواء على الفلسفة والعلم والدين — السيد صلاح السلجوقى تخريج الشيخ محمود أبو ريه .

(٢) احصاء العلوم — مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٩٣١ ص ٧١ ، ٧٧ لأبى نصر الفـــارابى .

(٣) المنقـذ من الضـلال .

(٤) احياء علوم الدين — قواعـــد العقائد للامام الغزالى .

(٥) نصوص من المنقـذ من الضـلال .

(٦) العقل فى الاسلام كريم عز قول ص ١٤٣ .

(٧) المرجع نفسه ص ١٤٥ .

(٨) المرجع نفسه ص ١٤٧ .

(٩) المرجع نفسه ص ١٥٠ — ١٦٩ .

(١٠) مقال فى مجلة الأزهر — الامام الغزالى والفلسفة — دكتور عبد الحليم محمود — المجلد ٢٣ ص ١٣٦ .

(١١) الاقتصاد فى الاعتقاد للامام الغزالى ص ١ تخريج دكتور عثمان عيش .

(١٢) مشكاة الأنوار للامام الغزالى تحقيق الدكتور أبو العلا عفيفى ص ٤٣ — ٤٨ .

حـواشى وشروح الباب الثالث

(١) المنقـذ من الضـلال .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) أحياء علوم الدين جـ ١ ص ٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢ .

(٥) فى التصوف الاسلامى وتاريخه - طائفة من الدراسات - رينولد نيكلسون ترجمة دكتور أبو العلا عفيفى ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٦) العقيدة والشريعة فى الاسلام جولد زيهر ص ١٧٩ ، ١٨٠ ترجمة الأساتذة دكتور محمد يوسـف موسى ودكتور على حسن عبد القـادر والأستاذ عبد العزيز عبد الحـق .

(٧) احياء علوم الدين — الامام الغزالى ص ٢ جـ ١ ص ٢٢١ .

(٨) ابى حامد الذكرى المئوية — الأستاذ محمد جواد مغنيه .

(٩) الرد على ابن النغريله اليهودى ورسائل أخرى — منها رسـالة للكندى من ١٩٢ لابن حزم الأندلسى — دكتور احسان عباس .

حــواشي وشروح اليقين

(١) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٧٨ .

(٢) تفسير البيضاوى مع حاشية الكازروى جـ ١ ص ٦٢ ·

(٣) المواقف جـ ١ ·

(٤) الزمخشرى الكشاف جـ ١ ·

(٥) عوارف المعارف عى هامش احياء علوم الدين للسهروردى ·

(٦) المنقذ من الضلال ـــ للامام الغزالى مع مقدمة مستفيضة ـــ دكتور عبد الحليم محمــود ·

(٧) الرد على ابن النغزيلة اليهودى رسائل أخرى لابن حزم الأندلسى ـــ دكتور احسان عباس ص ١٩٣ ·

ملاحــــق قضــــــايا

متعلقة بالامام الغزالى

- خصـوم الغزالى ٠
- تأثر الفكر الغربى بالفكر الغزالى والاسلامى ٠
- الدعوة ونقضها فيما يتعلق بدراسة نفسية الغزالى من خلال المنهج النفسى ٠

الملحـــق الأول

من خصوم الغزالى

١ ـ ابن الصلاح المتوفى ٦٤٣ هـ من فقهاء الشافعية ·

٢ ـ أبو عبد الله المـازرى المتوفى ٥٣٦ هـ من فقهاء المـالكية ·

٣ ـ وأبو الوليد الطرطوشى المتوفى ٥٢٠ هـ من فقهاء المـالكية ·

٤ ـ وأبو الفرج بن الجوزى المتوفى ٥٩٧ هـ من الحنابلة اغلب هذا النقـد يدور على ايراد الغزالى للأحاديث الضعيفة · وقوله : بأن الفقه من علوم الدنيا وقوله فى مقدمة المستصفى فى أصول الفقه جـ ١ ص ١ « أن من شروط الاجتهاد معرفة فن المنطق »·

واغلب هـذا النقد من الدعاوى عليه فمثلا المـازرى وهو أقساهم نقـدا نراه يقول بعـد نقده للاحياء : لم يتقدم لى قراءة هـذا الكتاب سوى نبذ منه · وقال الحافظ العراقى ان أكثر ما ذكره الغزالى ليس بموضوع وغير الأكثر وهـو غاية فى القلة رواه عن غيره متبرئا منه بنحو صيغة روى ·

لعل هـذه النبذ هى ما تصيدها الخصوم ·

ومن الكتب التى كتبت فى الرد على الغزالى ·

(أ) النكت والأمالى فى الرد على الغزالى ·
لمحمد بن خلف بن موسى الارسى من أهل البيرة بالاندلس المتوفى ٥٣٧ ·
وفى فهرست المخطوطات المصورة جامعة الدول العربية · يوجـد :

(ب) الرد على الغزالى والجوينى تأليف :محمد بن محمد بن عبد الستار العمادى الكردى كتب ٨٨٤ ·

الرد على الغزالى والجوينى تأليف ـ عماد الدين مسعود بن شيبة بن الحسين السندى الحنفى سنة ٨٤٧ ·

وتلبيس ابليس : لابن الجـوزى ·

الملحـــق الثانى

نصوص تبين مدى تأثر الفكر الأوروبى بالفكر العربى الاسلامى ومواقف الباحثين

هناك من الباحثين من يعتقد تقاربا بين شك الغزالى وديكارت Daeacartes
ويجعل أساس هـذا التقارب الترجمات المتعـددة لمؤلفات المسلمين قبل ديكارت ومنها كثير من أفكار الغزالى التى تم ترجمتها الى اللغة اللاتينية فى القرن الثانى وهذا قبل ديكارت بزمن طويل ويسوق أدلة على التأثر بفكر الغزالى من خلال مؤلفـــات Jehunda hal ladi ٢١٤٥ م ٠

ـ وهـذا فى نظرية الشك ٠

ـ grescas ١٤١٠ م يظهر أثر الغزالى على فكره عموما ٠

Raymand Msreini

انتفع بالترجمة العبرية لكتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالى ٠

St Ehamas

أى القديس توماس الأكوينى الذى تلقى دراسته بجامعة نابلى بتوجيه الكنيسة واستعمل فيما بعـد أسلوب الغزالى ومناقشاته فى مهاجمة أفكار أرسطو اللاهـوتية على نحو ما فعل الغزالى "

متابعـة آثاره .

بعـد ذلك يعلق M.M. Sharif فى كتابه : الفكر الاســلامى :
قائلا : وكل هـذا يؤكد لنا أن الالتقاء بين أفكار ديكارت وأفكار الغزالى لم يجىء عفوا وانما هـو نتيجة طبيعية لتعرف الأول على أفكار الثانى من خـلال الترجمات المتعـددة وعن طريق الكتاب الغربيين الذين سبقوا ديكارت بالاقتبـاس من الغزالى .

ثم يؤكد وضوح هـــذا الناثر بعـــد عرضه لنظرية الشك بقوله :

وديكارت وتلميذه اسبينوزا يتبعـــان رأى الغزالى فيمـــا يتعلق بصـــفات الله وصـــلتها بذاته .

فذات الله عندهم واجبة الوجود ولا يحتاج تعالى الى علة توجـــده .

وهو عند اسبينوزا جوهر لا نهائى له أعراض لا نهائية : Attribules
وجـــوهر Subatanca الذى يتحدث عنه اسبينوزا قريب الشبه بالله الذى يتحدث عنه الغزالى . ديكارت واسبينوزا يثبتان للجوهر نفس الصفات التى يثبتها الغزالى لله . مما يوحى بالاقتباس والاقتداء .

ص ٢٨٦ ترجمة دكتور احمد شلبى ـــ الناشر : مكتبة الانجلو المصرية .

وما ذهب اليه هـــذا الباحث نراه عند باحثين غيره مثل ديلاسى او ليرى فى مؤلفه الفكر العربى ومكانته فى التاريخ تكلم فى الفصل العاشر عن انتقلة اليهـــود وما قاموا به من أدوار هامة فى جلب المعرفة بالبحث الفلسفى من آسيا الى اسبانيا .

ونشأت بين اليهود حقا مدرسة رشـــدية اصبحت فيما بعـــد وسيلة رئيسية لتقـــديم نظريات ابن رشد الى المدرسة اللاتينية .

ثم عقـــد فى الفصل الحادى عشر فصلا عن :

اثر الفلسفة العربية فى المدرســـة اللاتينية فتكلم عن المدارس والأشـــخاص والجهود التى بذلت لنقل المـــادة العربية الى اللاتينية .

منها مدرسة طليطلة التى أسسها كبير الأساقفة « ريمـــوند » من ١١٣٠ م الى ١١٥٠ م .

وجعل على رأسها كبير الشمامسة « دومنيك جوند سلافى » .

وجعل من واجبها أن تعـــد ترجمات لاتينية لأهم الكتب الفلسفية والعلميـــة العـــربية .

وهكذا وجـــدت ترجمات كثيرة للنسخ العربية لأرسطو والشروح والمختصرات التى وضعها للفارابى وابن سينا . ثم يذكر تطـــور مراحل الترجمة : فيجعلها ثلاث مراحـــل هى :

ـــ مرحلة استجلاب بقية نصوص أرسطو ومجموعة المصنفات العلميـــة التى يتالف منها القانون المنطقى بطريق الترجمة العربية .

والثالثة : استجلاب كتب الشراح العرب .

ثم يقول : ونجـــد فى بداية القرن الثالث عشر مجادلات متنوعة فى باريس تدور حول موضوعات شبيهة بموضوعات الجـــدل عند فلاسفة العرب .

ومنها جامعة نابولى أسسها : فردريك سنة ١٢٢٤ لجلب العلم العربى الى العـــالم الغربى .

ثم ينهى « أوليرى » بحثه قائلا :

أن الطريق العملى لنتقـــل فى القرن الخامس عشر وما بعـــده يتمثل فى عـــدوى الروح المضادة للكنيسة والتى ظهرت فى شمال شرق ايطاليا كاثر من آثار الفلاســـفة العرب فى النهضة الايطالية . ص ٢٦٧ ، ٢٨٠ .

ترجمة دكتور تمـــام حسان .

مراجعة دكتور محمد مصطفى حلمى .

وهناك من الباحثين مثل الأستاذ الشيخ أمين الخولى من يرجع حركة الاصـــلاح المسيحى الى التأثر بالتراث الاسلامى وتتبع هـــذا بعمق وأصالة . وهـــذا فى بحث القاه فى مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس المنعقد بمدينة بروكسل من ١٦ الى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٥ .

وهناك كثير مثل ما كتبه « الدومييلى » وكيل المجمع الدولى وهـــو : العلم عنـــد العرب وأثره فى تطور العلم العالمى . ترجمة دكتور عبد الحليم النجار والدكتور محمد

يوسف موسى وما ذكرناه قليل من كثير يتيح للقارىء والباحث معا من غير تعصب أن يتبين بوضوح قيمة الفكر الاسلامى العربى فى الفكر الأوربى . وبذلك تصبح دعـــوى عـــدم صلاحية اللغة العربية غير صالحة للعلم الحـــديث من غير أساس .

ودعوى أن التراث العربى الاسلامى غير عالمى هى الأخرى من غير أساس .

فان المؤلفات العربية الاسلامية عرف الأوربيون مسالكها فتتبعوها .. فعلينا بعد ذلك البحث عنها لنعرف أصالتنا اين هى ؟

يقول الشيخ الامام محمد مصطفى المراغى فى مقـــدمته للأستاذ الشيخ أمين الخولى فى بحثه السابق : ان الاصلاح كان نتيجة لعوامل كثيرة .. وغاية الأمر أن المعـــارف الاســـلامية كانت تحمـــل العناصر التى يمكن ان تصاغ منها أمنيـــة المصلحين ، وأنهـــا جـــذبت الأبصار اليها ووجهت العقول نحـــوها وخلقت مزاجـــا أعانهم على ما اختاروه ثم قال : وهـــذه الدراسة التى حاولها الأستاذ فى هـــذه المسألة خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين فى دراسة الأديان دراسة مقارنة .

وهذا الاستطراد دفعنا اليه رأى بعض الباحثين فى أن ديكارت تأثر بالغزالى .

الملحــق الثالث

دعـــــوة ونقضــــــها

فيما يتعلق بدراسة نفسية الغزالى من خلال المنهج النفسى

دعوة الى مشروع بحث فى جوانب مهملة فى حياة الغزالى يدعو اليه :

الأستاذ عبد العزيز عبد الحــق فى كتاب :

الرد الجميل للامام الغزالى ـــ الذى حققه وقــدم له وعلق عليه وترجم مقدمات الأب روبير شدياق لنشرته الأولى لهــذه الرسالة ـــ الأستاذ عبد العزيز عبد الحــق الأمين المساعد سابقا لمجمع البحوث الاسلامية والكتاب طبع مجمع البحوث الاسلامية ١٩٧٤ يقول ص ٤٨ :

هناك مجال جــديد فى بحث أزمة الغزالى النفسية التى انتهت بنزعته الصوفية بتحليلها وذلك بدراسة كتاباته الصوفية واعترافاته فى المنقــذ على ضوء مقررات علم النفس الدينى وما يتعلق منها بسيكولوجية التصوف ٠

ولم تظهر بعــد فى اللغة العربية دراسات فى هــذا الفرع من العلوم النفسية ٠ بيد أن هناك عــددا كبيرا من المؤلفات الأفرنجية التى تتناول هــذه الموضوعات : نذكر من أشهرها : أنواع مختلفة من التجربة الدينية بقلم وليم جيمس (نيويورك ١٩٠٢ م) ٠

ودراسات فى تاريخ التصوف الاسلامى وسيكولوجية ـــ هنرى دلاكرو (باريس ١٩٠٨) ٠

ومقــدمة فى سيكولوجية الدين ٠ دو هـ ٠ نوليس ـــ كمبردج ســـــنة ١٨٢٣ وسيكولوجية الدين : و ٠ ب سلبى اكسفورد سنة ١٩٢٤ ٠ وسيكولوجية التصــوف الدينى : ج ٠ هـ ٠ لوبيا لندن ١٩٢٥ ٠ الوعى الدينى دراسة سيكولوجية : برانت ثم

قال : هذا فضلا عن مواد مختلفة تتصل بهذه الموضوعات فى موسوعة الدين والأخلاق ومع أنه ليس بين هـؤلاء الباحثين فى علم النفس الدينى من له مشاركة فى دراسة التصوف الاسلامى فأن التصوف ظاهرة نفسية عامة يشترك فيها المتصوف مع أصحاب العقـائد المختلفـة .

دعـوة تحتاج الى نظر :

ان ما أشار اليه الأستاذ عبد العزيز عبد الحق لتكملة بعض الجوانب المهملة وهى الدراسة النفسانية للتصوف والنفسية الدينية للامام الغزالى خاصة ثم الدعوة الى اثراء ثقافتنا العربية بمثل هـذه الأبحاث عامة .. وساق أدلة من الثقافة الغربية هـو ما ذكرناه عنه ٠

نقول مثل هـذه الدعوة غير مجـدية اذا قصد منها انها دراسات سوف تعطينا نتائج ذات قيمة فى الجوانب الروحية . لمـاذا ؟

لأن هـذه الدراسات النفسية رفضت هـذا الجانب على أساس أنه معتقدات مرضية ومعنى رجوعها اليه لتدرسه لسوف تعطينا الكثير من قـول الشاذ وسنسوق الكثير لتأييد ما نذهب اليه أولا : استبدالها مفهوم النفس القـديم بمفهوم حـديث يعنى : السلوك ودوافعه . ومهما بدأ اختلاف بين مدارسهم فانهم يتفقون على رفض المفهـوم القـديم .

(أ) فمناهج علم النفس كانت قاسية على الدين وتفسيره . ثانيا : أحب أن أقدم تلخيصا لكتاب : هنرى دولا كرو (١٨٧٣ ـ ١٩٣٧) « الذى عنوانه دراسـات فى تاريخ التصوف ونفسية كبار الصوفية المسيحية » باريس ـ المكان سنة ١٩٠٨ كنموذج لمثل هـذه الدراسة .

ندرس : اكهارت ـ تريزا ـ سوزو ... الخ .

وقرر أن الوجـدان الصوفى هو الوجـه الجوهرى فى التصوف وذلك ـ على أساس بحثه هو النفسى ـ أن التصوف النظرى « تركيب فلسفى يبـدأ من اللامتناهى ليصل الى الواقعى : والوجدان يرسم خطوطه ويحدد حدوده والتأمل والتحليل يعينان درجاته وأقسامه » والواقعى واللامتناهى هما المعطيان المباشران للشعور ، والتناقض الظاهرى الذى احتوته الحياة بالتوفيق بين أطرافه « والمقالة النهائية للتصـوف هى

فى الصميم الهوية بين الوجـدان والفعل : ان الفكر يخلق ما يتأمله ويتأمل ما يخلقه .
والروح تدرك نفسها فى الفعل الذى به تؤكد نفسها » ثم يقول :

والصوفى هـو من يعتقد أنه يدرك الالهى مباشرة ويشعر باطنيا بالحضور الالهى
والتصوف مفهوما على هـذا النحو هو الأصل فى كل دين .

« والصوفى وجـدانى يجمع فى عاطفة مبهمة وجـد كل ما يشتته الانسـان
العادى الى مشاعر محـددة ومعرفة منطقية وعمل ايجابى •

وأساس الوجـدان الصوفى نشاط فعال ، وهو القدرة على تحقيق الله أكثر منه
القـدرة على امتثال الله . مثل هـذه الأبحاث بنتائجها هى ما أسهم بها دولا كرو فى
ميدان علم النفس .

لأراها تخـدم شيئا الا ما أطلق عليه « الوضعية الروحية » .

ثم قـدم دراسة شبيهة بمثل تلك الدراسة فى كتابه « الدين والايمان » يقـدم
هـذه الدراسة من وجهة نظر نفسية وبناء على هـذه الدراسة النفسية يقـدم
تصوره عن الدين فيقول :

ان الدين تعبير عن الحاجـة الى الحياة •
والناس لهم آلهة يمكنهم الانتفاع بهم .

انه أولا فعل غريزى تحت دوافع العواطف يستخدم الأفكار ليؤمن لنفسه معرفة
ماذا يريد ؟

(ب) جاء من بعـده رجان باروزى ١٨٨١ — ١٩٥٣ وأعـد رسالة دكتوراه
بعنوان « القـديس يوحنا ومشكلة التجربة الصوفية » وحاول أن يقوم
بتأسيس علم النفس الميتافيزيقى — هـذه المحاولة فى حـد ذاتهـا ماذا
تعطى ؟ اخفاقا أم تطورا لعلم النفس التجريبى الذى يجعل موضوعه :
الوقائع النفسية وصـفها ، تصـنيفها والبحث عن قوانينها وأحـوال
وجودها . ويحرم على نفسه بكل شدة كل نظر فى طبيعة النفس الأولى

فان شاء علم النفس أن يكون علم نفس وميتافيزيقا معا فانه لن يكون هـــذا ولا ذاك كما قال تيوديل ريبو .

(جـ) تيودور فلورونوا (١٩٥٤ ـــ ١٩٢٠) من خـــلال كتابه : ما بعـــد الطبيعة وعلم النفس يضع فاصلا بين علم النفس بوصفه علما تجريبيا وبين النظر الميتافيزيقى فى الحياة النفسية وعلاقاتها بالحياة الفيزيائية .

يقول : على علم النفس أن يهز نير الميتافيزيقا بهـــذا القول يذكرنا بوضـــعية كونت ويذكرنا أيضا بعـــدم فائدة الميتافيزيقا :

ثم يقول عن علم النفس ومناهجه : ان علم النفس ينبغى عليه أن يستخدم المقياس مثل سائر العلوم الدقيقة .

بهـــذا المنهج قدم لنا دراساته وأعماله فى علم « ما فوق النفس » ميتاسيكولوجى وعلم النفس الدينى .

ويكفينا هنا أن نذكر دراسته : « صوفية حـــديثة حالة الآنسة vé فيـــ وثائق فى علم النفس الدينى » بحث نشر فى مجلة (محفوظات علم النفس ـــ جنيف ســنة ١٩١٥ يقول :

كانت فيه vé تشكو من نصف سير فى النوم أبرز خصائصه نوع من الشعور المزدوج وحالة لا تحتمل من الانشقاق الباطن . راجع أيضا مبادىء علم النفس .

وتحت تأثير هـــذا الاتجاه لعلم النفس الدينى كتب فردينان موريل رســـالة دكتوراه بعنوان : بحث فى الانطواء الصوفى وفيها يقدم تفسيرا طبيا وجنسيا لطبيعة التصوف وكل ميتافيزيقا على العموم . اذ يرى موريل أن كل الصـــوفية (منطـــوون intravertis أى أنهم فى حقيقة الأمر مرضى لا يستطيعون التكيف مع العـــالم الخارجى ولافتقارهم الى سوى الغريزة الجنسية يتجهون الى الباطن ولا يفعلون بل يفكرون ويحلمـــون ويتـــأملون وهم يتجنبون المجتمـــع ويلـــوذون بالوحـــدة انهم محصورون فى الفكر الذاتى .

والمرأة المتصوفة هى خصوصا نموذج الجنسية autoérotisme المنظمة من خلال دراساته لبعض السيدات جويون ــ وانطوانيت بورنيو .

هــذه جنس النتائج التى يمكن أن نأخــذها من المناهج الحــديثة التى حاولت أن تفسر الدين والحياة الروحية التى يتمتع بها الصوفية بأنها أمراض هستيرية .

كما نلاحظ أن النماذج التى وقعت أعينهم عليها هى بطبيعتها نماذج مرضية ؛ وكما أن هناك مرضا يطرأ على العقول فهناك أمراض تلم بالعواطف وكما أن مرضى العقول لا يعبأ بتفكيرهم ويؤخــذ بسوء فكرهم معابة على الفكر فكذلك مرضى العواطف ليسوا حجة على الدين .

يراجع : مقدمة فى علم الاجتماع الدينى دكتور محمد ابراهيم الفيومى فالدراسات الحــديثة بمناهجها لا تصف الحياة الدينية . لذلك أرى على خلاف الأستاذ عبد العزيز عبد الحق أن التصوف والدين من العلوم الخارجــة عن نطاق المناهج الحــديثة بل ومحاولة دراستها وفق المناهج التجريبية لا تعطى سوى تعثر فى الحياة الوجــدانية اذ أنها تند وتدق على مناهج التجربة • وفى النهاية ان هــذه المدارس وعلى رأسها مدرسة التحليل النفسى ــ فرويد بدراستها للدين جعلته فى أزمة حيث اســقطت عليه ظلمات البشرية فى تاريخها الطويل ثم فى النهاية نقول : أى خير فاتنا من اهمالنا لهــذا الجانب أى الدراسة النفسية فى الدين ؟ ! .

وسواء أخــذنا بها أم لم نأخــذ بها فان الواجب يقضى علينا بان نقول : ان هــذه الدراسات داخلة فى النطاق العقلى المــادى وهى بهــذه الصورة لا تخــدم الدين ولا اتجاهات الصوفية • يعــد ذلك نقول مع الأستاذ الفاضل : حقيقة أن لدينا فقرا فى مثل هــذه الدراسات ولكن ألست معى فى انه قــد يكون الفقر فضيلة اذا كان صاحب المــال سفيها ؟

محتويات الكتاب

الجزء الأول

الجـــو الفكرى قبــل الامام الغزالى

البــــاب الأول

لوحـــة تاريخية عن حيـــاة الامام الغزالى

الموضـــوع الصفحة

البـــاب الثانى

الجـــو الفكرى قبـــل الغزالى

الموضـــوع	الصفحة

البـــاب الثانى

ســلطة العقـــل فى دائرة اختصاصه

الموضـــوع — الصفحة

البـــاب الثالث

مدى عـــلاقة العقـــل باليقين

الموضـــوع	الصفحة

تم بحمـد الله

رقم الايداع بدار الكتب القومية
٨٦/٥٤٨٧

دار الاشعاع للطباعة
١٤ شارع عبد الحميد ــ جنينة قاميش
السيدة زينب ــ القـــاهرة
ت : ٣٦٣٠٤٦٩